أمهات المؤمنين

(١-١٣)

محمد موفق سليمة



دار الهدى للنشر والتوزيع

خديجة عليها السلام

المجاهدة الطاهرة

مُتابَعَةٌ على الدَّرْبِ

تَبدَأُ هَذِهِ المجموعَـةُ الطَّيِّبَةُ يا أَحبَّائي عِنْدَما بَلَـغَ سَيِّدُنا محمدٌ ﷺ الخامِسةَ وَالعِشْرِين مِنْ عُمرِه ، وَهي السِّنُّ التي أَصْبَـحَ فيها زَوْجاً كَرِيماً . وَإِنَّ حَيَـاتَـهُ كُلَّها جَـدِيرةٌ بـأَنْ يَعْـرِفَهَـا الصَّغيرُ والكَبيرُ ، وَقَـدْ فَهِمْنَـاهَــا وعَـرَفْنَـاهَـا في المجموعةِ السَّـابقة (قصصِ السَّيرةِ) التي تَحَدَّثَـتْ عَنْهُ مِنْ زَمَنِ وِلَادَتِـهِ إلى أَنْ وَدَّعَ الحياةَ ، وَالْتَحَـقَ بالـرفيق الأَعْلىٰ..

وَنَحْنُ الآنَ مَـعَ أَوَّلِ حَلَقَةٍ مِنْ حَلَقَـاتِ مَجْمُوعةٍ جَـديدةٍ ، نَتعَرَّفُ فيهـا أَيْضاً عَلى رسولِنـا العظيمِ، ولكنْ مِـنْ خلال الحديـث عَنْ سِيرَةِ زَوْجـاتِهِ الكـريمات ، اللَّواتي جَعَلَهُـنَّ القرآنُ أُمَّهاتٍ لِلْمُؤْمِنِين إِعْلَاءً لِقَدْرِهِنَّ وَمَكَانَتِهِنَّ . وَإِنَّنا في كُلِّ حَلَقَـةٍ مِنْ هَذِهِ الحلَقَـاتِ سَنَعِيشُ مَعَ قِصَّـةِ وَاحِدَةٍ مِنْهُـنَّ . لِنَعْـرِفَ أَنَّ الله قَـدْ أَنْعَـمَ عَلَى رَسُـولِـهِ بِـزَوْجَـاتٍ صَـالحاتٍ مُؤْمِنـاتٍ، عَـرَفْنَ قِيمـةَ هَـذَا الـزَّوْجِ الكريـمِ ، وَسَاعَدْنَهُ علىٰ أَدَاءِ مَـهَمَّتِهِ العظيمةِ وَنشْرِ رِسَالَةِ الإِسْلَامِ.

الأمينُ مَحَطُّ الاحْترام

في مكَّـةَ حَيْثُ نَشَـأَ الرَّسُـولُ الكريـمُ ﷺ عرفَ القَـوْمُ صَغيرُهُمْ وَكَبيرُهُمْ هذا الإِنْسَانَ ، وأَكْبَرُوا فيه ذَكَاءَهُ اللاَّمعَ ، وَمداركَهُ المُتَفَتِّحَـةَ ، وَقَرِيحَتَهُ المُتَوَقِّدَةَ ، وَرَأَوْا مِنْ مُعَـامَلاتِهِ مَعَهُمْ شَابّاً لَهُ مِنْ أَرْفَعِ الأَخْلاقِ وَأَسْماها مـا لَمْ يَتَوَفَّرْ لِغَيْرِهِ مِنَ الشَّبابِ . وَلَعَلَّ السَّيِّدَةَ خديجَةَ بنْتَ خوَيْلدٍ قَدْ أَدْرَكَتْ ما رآهُ القَوْمُ فيه ، وَكَانَتْ وهي التَّاجرةُ الكبيرةُ قَدْ لَمَسَتْ مِنْ صِـدْقِ الأَمِينِ مـا أَعْجَبَهَا عِنـدَمـا أَرْسَلَتْـهُ في تجارةٍ لها إلى الشّـامِ ، فَبـاعَ لَها وَاشْتَرى ، وَقايَـضَ واستَبْـدَلَ ، مُتَّبعـاً في ذَلكَ ما عُرِفَ عَنْهُ مِنْ تَعَقُّـلٍ وَحِكْمَةٍ وَعَظِيمِ أَمانَةٍ ، وَلِمَ لا تُـدْرِكُ خَـدِيجَةُ هَـذا وَقَـدْ عادَ إليهـا مُحَمَّـدٌ عَلَيْـه الصَّـلاةُ والسَّلامُ بِـرِبْحٍ وَفيرٍ ، لَمْ تكُـنْ لِتَحْلُمَ بِـهِ مِنْ قَبْـلُ ، وَأَتاهـا ببِضائِعَ تُنـافِسُ في جَوْدَتِها بَضـائِعَ الآخَرين ؟! لَقَـدْ سَرَّها كُـلَّ السُّرُورِ في عَمَلِـهِ ، وَأُعْجِبَـتْ بِـهِ كُـلَّ الإعْجـابِ ، وَامْتَـلأتْ رُوحُها إكْبـاراً لهذِهِ الشَّخْصِيَّـةِ الأَمِينَـةِ السامِيَـةِ النَّبِيلَةِ .

أُمْنِيَةٌ في مَحَلِّها

وَتَمَنَّتْ خَدِيجَةُ أَنْ يَكُونَ مُحمدٌ هُوَ الشَّخْصُ الذي تَرْكَنُ إلَيْهِ في أُمورِها، وَتَسْتَشيرُهُ في شُؤُونِها ، وَأَحَبَّتْ أَنْ تَتَزَوَّجَ هَذا الأَمينَ الطَّاهِرَ ، ولا سيَّما بَعْدَ أَنْ عرفَتْ عَنْهُ الكَثيرَ ، وَتَوَقَّعَتْ لَهُ شَأْناً كَبيراً في الأَيَّامِ المُقْبِلَةِ.

إِنَّها سَمِعَتْ مِن عَمٍّ لَهَا اسْمُهُ (وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَل) أَنَّ نَبِيَّاً سَوْفَ يُبْعَثُ في أُمَّتِهِ وَقَوْمِه أَحَقُّ بالنبوَّةِ مِنْهُ ، وَلَكِنْ هِلْ يَرْضَى بها محمدٌ زَوْجَةً، وَهُوَ الشَّابُّ الجميلُ ذُو النَّسَبِ العريقِ وَالأَخْلاقِ العالية؟ هَلْ يَرْضَى بِها وَهي تكبرُهُ وَلَها وَلَدٌ وَبِنْتٌ ؟ لَقَدْ طَلَبَ يَدَها الكثيرون مِنْ أَشْرافِ مَكَّةَ بَعْدَ وَفاةِ زَوْجها وَتَرَمُّلِها ، لكنَّها رَفَضَتْ طَلَبَهُمْ رغم إغْرائِهِمْ لَهَا با لمالِ والزُّخْرفِ ، فَما بالُها اليَوْمَ تفكِّرُ في أَمْرِ هَذا الأَمينِ بَعْدَ عَوْدِتِهِ لها بتجارةٍ رابحةٍ وَمالٍ وَفيرٍ ؟

مَنْ يَأْتِي مِنْ عِنْدِهِ بِرَأْيِهِ في الزَّواجِ ؟ وَهَلْ تُحاوِلُ عَرْضَ ذَلِكَ عَلَيْهِ؟

﴿ وَوَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنىٰ ﴾

لَقَدْ حاوَلَتْ يا أحبَّائي ، وَأَرْسَلَتْ صديقتَها (نَفِيْسَةَ) لِتَتَعرَّفَ رأْيَ مُحَمَّد ، وَتَسْتَطْلِعَ خَبَرَهُ في هَذا الأَمْرِ ، وَوَصَلتِ الصَّديقةُ لِتَسْأَلَ محمَّداً : ما يَمْنَعُكَ مِنَ الزَّواجِ يا محَمَّدُ؟ ويجيبُها : ما بيدي ما أَتزوَّجُ بِهِ ، وَتَفْهَمُ نَفِيْسَةُ أَنَّهُ يَشْكُو فقْرَ ذاتِ يَدِهِ ، فَتُهَوِّنُ عَلَيْهِ الأَمْرَ قائِلَةً : فَإِنْ كُفِيتَ ذَلِكَ ، وَدُعِيتَ إلى الجمالِ والمالِ والشَّرَفِ، أَفَلا تُجِيبُ ؟ وَيُدْرِكُ الأَمينُ أَنَّ الأَمْرَ قَدْ هانَ ، فَمَنْ هِيَ يا تُرى صاحِبَةُ الجمالِ والمال والشَّرَفِ؟ وَتُبَيِّنُ لَهُ نَفِيسَةُ أَنَّ خَديجَةَ بِنْتَ خُوَيْلدٍ هي الزَّوْجَةُ المُنْتَظَرَةُ إِنْ وافَقَ عَلى ذلك. وَوافَقَ حَبيبُنا محمَّدٌ ﷺ ، وَفَرِحَتْ خديجَةُ بالأَمْرِ ، وَأَحَبَّتْ أَنْ تَسْمَعَ رَأْيَهُ بِنَفْسِها ، إِنَّها صَدَّقَتْ ما قالَتْهُ نفيسَةُ لَها ، وَأَدْرَكَتْ أَنَّ محمَّداً يَعْرِفُ أَدَبَها وَعِفَّتَها وَطَهارَتَها ، وَيَعْلَمُ ما لَقَّبَها القَوْمُ بِهِ مِن (السَّيِّدَةِ الطاهِرة) لكنَّها تُرِيدُ أَنْ تَتَيَقَّنَ مِنْ مُوافَقَتِهِ ، لِيَطْمَئِنَّ قَلْبُها أكثَرَ . وَتَمَّ الأَمْرُ عَلَى ما أَحَبَّتْهُ .

الحبيبُ لا يُرَدُّ طَلَبُهُ

وَيَشَاءُ اللهُ سبحانه وتعالى أَنْ يَقْبَلَ أَهْلُهَا وأَهْلُهُ ، وأَنْ يَجْتَمعَ عَمُّهُ أَبو طالِبٍ مَعَ نفرٍ مِنْ أَهْلِ خَديجَةَ ، لِيَسْمَعَ مِنْهُم مُوافقَتَهُمْ على ابْنِ أَخيهِ في تَزْويجِهِ خَدِيجَةَ .

وَازْدادَ فَرَحُ سَيِّدَةِ قُرَيْشٍ الطاهِرَةِ ، عِنْدَما أَعْلَنَ عَمُّها قَبُولَ الأَمْرِ ، وَنحَرَتِ الذَّبائِحَ في دارِها وأَطْعَمَتِ النّاسَ ، وباتَتِ الدّارُ وَكُلُّ مَنْ فِيها فَرِحٌ مُسْتَبْشِرٌ ، وانْتَشَرَ السُّرُورُ إلى جِبالِ مكَّةَ ووِدْيانِها ، وَزُفَّ الأَمينُ إلى عَرُوسِهِ ، وَحَوىٰ بَيْتُ خَديجَةَ زَوْجاً يَسْتَحِقُّ أَرْفَعَ مَعاني الحبِّ والحَنانِ ، وَرَأىٰ مُحَمَّدٌ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّ زَوْجَتَهُ مُسْتَعِدَّةٌ لإِسْعادِهِ وَهَناءَتِهِ ، وَتَقْدِيمِ كُلِّ مَا يَحْتاجُ إِلَيْهِ مِنْ حُبٍّ وَرِعايَةٍ ، افْتَقَدَهُما في يُتْمِهِ المبكّرِ عِنْدَما كانَ صَغيراً . وسَتَجْزِيهِ مَعْروفَ أَمانَتِهِ وَصِدْقِهِ بِأَوْسَعِ ما تَسْتَطِيعُهُ .. وَنَزَلَتْ رِعايَةُ اللَّهِ مِنْ فوقِ سَبْعِ سَماواتٍ ، تُكَلِّلُهُما وَتحْفَظُهُما ..

انْطَلِقْ نَحْوَ الحَقِّ

وَتَفْسَحُ خَدِيجَةُ مَجالاً رَحْباً لِزَوْجِهـا كَيْ يُفَكِّرَ فيما يُرِيدُهُ ، فَلَقَدْ رَأَتْ لَدَيْهِ تَطَلُّعاً إلى المَعْرِفَـةِ ، وَلَمَحَتْ في وَجْهِهِ آياتِ التَّفْكيرِ وَالتأَمُّلِ ، وَقَرَأَتْ في نَظَراتِهِ مَعـانِيَ سامِيةً آمِرَةً نَحْوَ الحقِّ المُنْتَظَرِ.

إِنَّها تَعْلَمُ عَنْهُ ، وَتعْلَمُ عَنْ نَبِـيٍّ سيأْتِي ، وهِيَ الآنَ تَأمَلُ أنْ يكونَ زَوْجُها هوَ النبيُّ المُنْتَظَـرُ بَعْدَ أنْ حقّقَ اللَّهُ أَمَلَها في أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ زَوْجاً لها .. وَلَقَدْ عاهَدَتْ نَفْسَها أَنْ تَرْعاهُ وَتَحْمِيَهُ ، وَتُسَهِّلَ لَـهُ مَعْرِفَةَ الحقِّ والوصـولَ إِلَيْهِ . وَمَا أَجْمَلَ تَـرْحِيبَها عِنْـدَمـا يَعُـودُ زَوْجُها إِلى البَيْـتِ إِثْـرَ فَـراغِهِ مِـنْ أَعْمالِهِ!! تَستقْبِلُهُ وَتَحْنُو عَلَيْهِ وَتَسْأَلُه : أَأَنْتَ بخيرٍ يامحمَّدُ؟ فيجيبُها : نَعَمْ والحمْدُ للهِ .إِنَّها تُريـدُ أَنْ تُؤَكِّدَ نَظرتَها إِلَيْهِ في نُبُوَّةٍ مُنْتَظَرَةٍ . وَإِنَّها لَنِعْمَ الزَّوْجَةُ تُـريدُ الخَيْرَ لِقَوْمِها في نبيٍّ يخلِّصُهُم مِنْ أغلالهِم ، وَيُنْقِذُهُمْ إِلى رَحْمَةِ اللَّهِ الواسعَةِ .

لا سَعادَةَ بلا مَصائِب

وفي أَثْناءِ هَذِهِ العواطِفِ الصّادقـةِ ، يَلْمَحُ الزَّوْجان بريقَ مَوْلُودٍ صَغيرٍ ، وَيَزدادُ فَرَحُ خَديجةَ أَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْها بِنِعْمَةِ الذُّرِّيَّـةِ مِنْ زَوْجٍ كـريمٍ وعظيـمٍ .. وَمَرَّتْ شُهُـورُ الحَمْلِ ، وَأَنْجَبَتْ خَـدِيجَةُ مَوْلُـودَتَها (زَيْنَبَ) ، ثُـمَّ مَرَّتِ الأَعْـوامُ ، لِتُبَشِّرَ بِأَخَواتٍ ثَلاثٍ هُنَّ (رُقِيَّـةُ ، وَأُمُّ كُلْثُومٍ ، وفاطِمَةُ) ، وَبِأَخَـوَيْنِ اثْنَيْنِ هُما (القـاسِمُ وَعَبْـدُ الله) ، وَهَنِئَتِ الأُسْرَةُ السَّعيـدَةُ بِـوَضْعِها هَـذا .. وَيَكْبرُ الأَوْلادُ ، وَتَحْنُـو عَلَيْهِـمْ خَدِيجَةُ وَتَرْعـاهُمْ ، وَيَتَعَلَّقُ الصِّغارُ بِأَبِيهِم الـذي يُداعِبُهُمْ وَيَحْمِلُهُمْ وَيُـلاعِبُهُمْ لِيُـدْخِلَ السُّرورَ وَالْفَـرَحَ إِلَى قُلُوبِهِمْ . ولكِنَّ هَذِهِ الفَتْرَةَ الحلْوَةَ ، واللَّحظاتِ الهنيَّـةَ لَمْ تَدُمْ طَويلاً ، فالأخَوانِ الصغيرانِ : (القـاسِمُ وعبدُ الله) يُودِّعـانِ الحياةَ ، ويُفارِقانِ البَيْتَ السَّعيدَ ، فَتَحْـزَنُ خديجةُ أَنَّ زَوْجَها يقاسي أَكْثَرَ مما تُقـاسيه ، إِنَّهُ يُقاسي فَقْـدَ وَلَدَيْهِ بَعْدَ أَنْ قـاسَى مِنْ قَبْلُ فَقْدَ أَبَوَيْهِ.

البشائِرُ تُطَمْئِنُ الْقَلْبَ

ولهذا راحَتْ خَديجَةُ تُخَفِّفُ مِنْ حُزْنِ زَوْجِها ، فَوَهَبَتْ لَهُ غُلاماً اسمُـهُ (زَيْدُ بْـنُ حـارِثَـةَ) يَتَربَّى في كَنَـفِ الحبيـبِ العَطُوفِ ، ويكُونُ لَهُ بمثابَةِ ابنِهِ .

وَأَنْعَمَ اللهُ عَلى رَسُـولِهِ بِصَغِيرٍ آخَرَ يَتَربَّـى مَعَ زَيْـدٍ ، هُوَ عَلِيٌّ ابْـنُ العَـمِّ أبي طـالِب ، الـذي رَأى خَـديجَةَ لـهُ أُمّـاً ، ومُحَمَّداً أَباً حانياً كَريماً.

وَتَمرُّ السِّنونَ عَلى زَواجِ خَديجَةَ مِنْ مُحَمَّدٍ ، وَخَدِيجَةُ تُعاوِنُ زَوْجَهَا في تَطَلُّعِهِ ، وَتَشُـدُّ أَزْرَهُ ـ وَتَرْعى لَـهُ صِغارَهُ ، وَتَسْأَلُ عَنْهُ إِذا طالَ غِيـابُهُ ، وَتُسرِّي عَنْهُ إِذا أَطْلَعَها عَلى مَـا يَشْعُرُ بِهِ وَيُحِسُّهُ وَيَتَخَوَّفُ مِنْهُ.

إِنَّ يَقينَها يَزْدادُ إِذا سَمِعَتْ مِنْ زَوْجِها كـلاماً يُذكِّرُها بما حَكاهُ لها ابْنُ عَمِّها وَرَقَةُ بْـنُ نَوْفَلٍ ، وَإِذا ما رَأَتْ عَلى وَجهِ محمَّدٍ بُشْرَى مِنْ بَشائِرِ النُّبُوَّةِ المرْتَقَبَةِ، مما يُرْضِيهاو يَسْتَحِثُّها عَلى مُواصَلَـةِ تَشْجِيعِها لهذا الزَّوْجِ الكريـم .وَيُشْرِفُ مُحَمَّدٌ عَلى الأَرْبَعينَ مِنْ عُمُرِهِ .. وَقَدْ آنَ للحقيقةِ أَنْ تَظْهَرَ .

الزَّوجَةُ الحكيمةُ نِعْمَةٌ

محمَّدٌ زَوْجُها في غارٍ اسْمُهُ (غَارُ حِرَاء) بالقرب مِنْ مكَّةَ، جَالِسٌ كَعادَتِهِ يُفكِّرُ ، وَتُـرَدِّدُ خَفَقاتُ قَلْبِهِ أَنَّ اللَّهَ واحِدٌ لا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّهُ وَحْدَهُ خالِقُ الكَوْنِ ، وَأَنَّ عِبادَهُ بِحاجَةٍ إلى مَـنْ يُنْقِذُهُـمْ ويُنَجِّيهِم .. هـا هِيَ ذِي الحقيقـةُ تَنْزِلُ مِـنَ السَّماءِ في شَهْـرِ رَمَضانَ الكـريمِ على لِســانِ جبريلَ : (يـا محمدُ .. أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ) ! فَيَعُودُ محمَّدٌ من الغارِ خائفاً مِمّا سمِعَهُ ، وتكونُ خديجةُ في انْتِظارِهِ ، فَتَراهُ وَتَحْمدُ اللَّهَ أَنْ عادَ إليها بَعْدَ غيابٍ طَوِيلٍ ، وَتَسْأَلُهُ عَمّا يُفْزِعُهُ وَيُخِيفُهُ ، وَتُدْرِكُ أَنَّها الحقيقةُ التـي انْتَظَرَتْها طويـلاً ، وتَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظْـرَةَ إِكْبارٍ وَإِجْلالٍ ، وَتَبْتَسِمُ فِي وَجْهِهِ ابْتِسامَةَ المُطْمَئِنِّ الواثِقِ قائلةً : (أَبْشِرْ يا بْنَ عَمٍّ ، وَاثْبُتْ ، فَـوالَّذي نَفْسُ خَدِيجَةَ بِيَدِهِ ، إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تكـونَ نَبيَّ هَذِهِ الأُمَّـةِ) .. ما أَحْلاهُ مِـنْ كَلامٍ .. نبيُّ هَـذِهِ الأُمَّةِ يَسْمَعُ مِنْ زَوْجَتِـهِ كَلاماً يعيدُ إِلَيْـهِ هُدوءَهُ ، ويشيعُ في روحِه الراحَةَ والاسْتِبْشارَ .

خَيْرُ البِرِّ عاجِلُهُ

وَسُرْعانَ ما تَنْطَلِقُ خَدِيجَةُ إِلى وَرَقَةَ ابْنِ عمِّها تُحَدِّثُهُ فَيقولُ لَها : (وَالّذي نَفْسُ وَرَقَةَ بِيَدِهِ ، لَئِنْ كُنْتِ صَدَقْتِني يا خَديجَةُ ، لَقَدْ جاءَهُ النّاموسُ الأَكْبَرُ الَّذي كانَ يأْتي مُوسَى ، وَإِنَّهُ لَنَبيُّ هَذِهِ الأُمَّةِ فَقُولِي لَهُ : فَلْيَثْبُتْ) ..

وَتَعُودُ خَدِيجَةُ إِلى زوجِها ، تُعْلِنُ لَهُ الحقيقةَ مِنْ جَديدٍ ، وَتُؤَكِّدُ لَهُ أَنَّ ما رَآهُ وَما سَمِعَ صَوْتَهُ مَلَكٌ مِنَ اللَّهِ ، وأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَرْسَلَهُ حَقّاً لهدايةِ النّاسِ ..

وَخَدِيجَةُ التي عَرفَتِ السِّرَّ عَلَى تَمامِهِ ، وَعاشَرَتْ صاحِبَهُ خَمْسَ عَشْرَةَ سنةً كامِلَةً . أَفَلا تكُونُ السّابِقَةَ إِلى الإِيمانِ وَالتَّصْديقِ ؟

نَعَمْ أَيُّها الأَحْبابُ الصِّغارُ .. خديجَةُ أَوَّلُ مَنْ عَرفَ السِّرَّ، وآمَنَ بالرَّسُولِ العظيمِ بَعْدَ أَنْ حَدَثَ مَا انْتَظَرَتْهُ وَ ما كانَتْ تَتَوَقَّعُهُ .

اقْتَرَبَتْ مِنْ زَوْجِها ثانيةً، تُعْلِنُ إِسْلامَها وَإِيمانَها ، وَيَقينَها ، وَتُؤَكِّدُ لَهُ أَنَّ في نبوَّتِهِ الخَيْرَ كُلَّهُ .. والحمدُ كلُّهُ للَّهِ وَحْدَهُ .

سَلامٌ على المجاهِدةِ

وَيَنْزِلُ جبريلُ ليقولَ : يا محمدُ ، اِقْرأ على خديجةَ السَّلاَمَ، فَيقولُ محمدٌ لخديجةَ : يا خديجةُ هَذا جبريلُ يَقْرَأُ عَلَيْكِ السَّلامَ ، وَتَرُدُّ الزَّوْجَةُ المسلمةُ المؤمنةُ : (اللَّهُ السَّلامُ ، وَمِنْهُ السَّلامُ ، وَعَلَى جبريلَ السَّلامُ) ...

كان هذا سَلامٌ مِن اللَّهِ على لِسانِ جبريلَ ، عَلَى أَوَّلِ مَنْ عَرَفَ قيمةً لرسالَةِ السَّلامِ وَلِرَسُولِ السَّلامِ ولِمعْنَى السَّلام. وَعلى أوّلِ مَنْ آمَنَ وَأَسْلَمَ ، وَلَكِنْ عَلى خديجةَ أَنْ تعْلَمَ أَنَّ رسالةَ السَّلامِ لَنْ تَنْتَشِرَ إلا إذا ساعَدَتْ زَوْجَها رَسُولَ السَّلامِ ، وَأَنَّ النّاس الَّذين لمْ يَعْرِفوا السَّلامَ مِنْ زَمَنٍ بعيدٍ سَوْفَ يُعادونَ زَوْجَهَا ورسالَتَهُ ، وَلْتَعْلَمْ خديجَةُ أَنَّ زَوْجَها سَوْفَ يلاقي صعوباتٍ وعقباتٍ كثيرةً ، لأنَّ النّاسَ وَلَوْ عَرَفوا مُحَمَّداً وَأَمانَتَهُ وَصِدْقَهُ سَوْفَ يجدون صُعُوبَةً في مُفارَقَةِ ضَلالِهِمْ وعِباداتِهِم وَجاهِليَّتِهِمْ ، فكوني يا خديجةُ أَوَّلَ مَنْ سَيدْعُو مَعَ مُحَمَّدٍ إلى السَّلامِ ..

إِتْمَامُ المعْروفِ فَضيلَةٌ

وَإِنَّها لنِعْمَ الدَّاعيةُ يا أحبّـائي ، فَلَقَدْ وَقَفَتْ خَيْرَ ما تَقِفُهُ الزَّوْجَةُ مِـنْ زَوجِها ، وهـيَ التـي قَدْ سَهَّلَـتْ لَـهُ مِنْ قَبْـلُ الطَّريقَ إلى الحقيقةِ ، وهيَ اليومَ لَنْ تَتَخَلَّى عَنْهُ ، وَسَتُشارِكُهُ إحْساسَـهُ وَشُعُورَهُ .. تَقْلَقُ لِقَلَقِـهِ ، وَتُرْشِدُهُ إلى مـا يَفْعَلُهُ ، وتهوِّنُ عَلَيْهِ ما قَد يلاقيهِ ، وَتُطَمْئِنُ لَهُ قَلْبَهُ ، وَتَفْرَحُ لِفَرَحِهِ ، وَتَسْتَمِعُ إلى تعاليم نُبُوَّتِهِ .

الحمدُ للَّهِ الذي أَنْعَمَ عليها بِهَذا الزوجِ العظيمِ والرَّسولِ الكريم ، والحمدُ للَّهِ الذي جَعَلَهـا لزَوْجِها ناصِحَةً : زَوْجَةً وأُخْتاً وَأُمّاً مَعاً ، تَحْنُو عليْهِ وَتَعطِفُ ، وَتَسِيرُ إلى جانِبِهِ حتَّى النهايةِ ، تُعاوِنُهُ وَتُؤازِرُهُ ، وَلَقَدْ رَأَتْ بعينِهـا أَثَرَ مَا تُقَدِّمُهُ لَهُ في تَحَمُّلِهِ وَمُتابَعـةِ العَمَلِ الطَّويلِ ، فها هـي ذِي قَدْ حَبَّبَتِ الإسلامَ إلى بناتِها الصَّغيراتِ ، وَإلى زَيْدٍ وَعَلِيٍّ اللذينِ دَرَجا وَشَبّا في رعايتِها .. وَها هُوَذا الـرَّسولُ الكريمُ يَبْتَسِمُ وَيَحْمَدُ اللَّـهَ أَنْ جَعَلَ بَيْتَـهُ مَنْبَـعَ نُورٍ وَإيمانٍ وَيَسْـأَلُـه المزيدَ مِـن المُسْلِمين .

عَشْرَةُ أَعْوامٍ من التَّضْحِيَةِ

وَظَهَرَ العـداءُ واضِحاً جليّاً مِـنَ المُشْرِكينَ ، وَوَصَلَ الأذى ، وامْتَدَّ إلى بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ . فَكانَتْ خَديجَةُ بَلْسماً شافياً لجراح محمَّدٍ إذا ما نالَهُ منَ الكافرينَ مَا يكْرَهُهُ ، وَلَقَدْ أَصابَ الزَّوْجَةَ مما أَصابَهُ الكثيرُ ، وتحمَّلَتْ مَعَهُ بَذاءَةَ أَبي لَهَبٍ وَأُمِّ جميلٍ حمَّالَةِ الحطـبِ ، وَحَثَّـتْ بَناتِها على الاقْتِـداءِ بها ، وَدَخَلَـتْ مـع آلِ هـاشِـمٍ شِعْـبَ أَبي طـالِبٍ ، وَقـاسَـتْ مِـنْ قَسْـوَةِ الحصـارِ القُرَشيِّ لِزَوْجِهـا وَلأَتْباعِهِ وَأَقْرِبـائِهِ . وَمَعَ ما لاقَتْهُ مِـنْ مَرَضٍ شَديدٍ هنـاكَ في الشِّعْبِ والحصـارِ فَقَـدْ ظَلَّـتْ هي المواسِيَـةَ المشجّعَةَ ، وَبَقِيَ كلامُها الطَّيِّبُ يَنْزِلُ على قَلْبِ زَوْجِها شِفاءً، وَيُخَفِّفُ مِنْ أَلَمِهِ وَحُزْنِهِ ، وَما أَكْرَمَ مَا فَعَلَتْهُ خديجَةُ !!

ولمّا عـادَتْ إلى بيتِها مَـعَ زَوْجِهـا ظَهَرَ المرضُ واضحـاً على خديجَةَ، وَوَهَنَ منها الجِسْمُ ، فَسَهِرَ الرَّسُولُ إلى جانبِها يَرْعاها ويخدمُها وَيَتَـأَلَّمُ لأَلَمِها .. وَلَكِنَّ الموْتَ لَمْ يُمْهِلْهـا طَويـلاً ، بَلْ خَفَّفَ مِنْ آلامِها وَعاجَلَها، فَفَاضَتْ رُوحُها أمامَ زَوْجٍ حبيبٍ، وبَناتٍ تفيضُ عُيُونُهُنَّ بالعبراتِ ، وَغُلامَيْنِ مُؤْمنينِ أَحبّاها أُمّاً كريمةً لهما..

دُمُوعُ الحبِّ لا تَجِفُّ

وبيدِهِ الشَّريفةِ عليهِ الصّلاةُ والسَّلامُ ، تَوَلَّى دَفْنَ الحبيبةِ ، وَسَوَّى عَلَى قَبْرِها التُّرابَ مَعَ دَمْعَتَيْنِ حانِيَتَيْنِ يَمْلَؤُهُما الحزْنُ والحُبُّ مَعاً ، وَكَيْـفَ لا يَحْزَنُ عَلَى فراقِ مَنْ أَحَبَّتْـهُ وَعَطَفَتْ عَلَيْه خَمْسـاً وعشرين سَنَةً كامِلَـةً أَيّامَ عُشْرَةٍ مليئةٍ بـالجهادِ والعَمَلِ ؟ . . وَلَعَلَّـهُ مما زادَ في حُـزنِهِ أَنَّ خَـديجَةَ قَدْ مـاتَتْ وَقَبْلَها قَدْ مـاتَ عَمُّهُ أَبُو طالبٍ في العام نَفْسِـهِ ، وَلَقَدْ كانَ ذَلِكَ العامُ عـامَ حُزْنٍ ، وَأَيُّ عام أَحَقُّ بهذِهِ التسميـةِ مِنْهُ ؟ وَمَع أَنَّ الرَّسُـولَ ﷺ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِزَوْجـاتٍ أُخْرياتٍ صالحاتٍ بَعْـدَ فَقْدِها إلا أَنّـهُ لَمْ يَنْسَ خَديجَةَ ، وَقَلْبَهـا ، بلْ بَقِيَ ذاكـراً وَفاءَهَـا ، يُكْرِم صَـديقاتِها ، وَيَـرى صُورَتَها في بناتِها وبناتِه ، وَمَا أَرْوَعَ كَلامَهُ عِنْدَما قال : (ما أَبْدَلَني اللَّهُ خيراً منها ، آمَنَتْ بي إذْ كَفَـرَ النَّاسُ ، وَصَدَّقَتْني إذْ كَـذَّبَني النَّاسُ ، وَوَاسَتْني بمالِها إذْ حَرَمني النّـاسُ وَرَزَقَنِي اللَّهُ منْها الوَلَدَ دُونَ غَيْرِها مِنَ النساءِ) . سَلامٌ علىٰ خديجَةَ ، السّيدةِ ، خَيْرِ الزَّوْجاتِ ، وَسَيِّدةِ المجاهداتِ . .

سَوْدَة

أرملة المهاجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



دَارُ الهُدَىٰ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيع

الرياض: طريق صلاح الدين الأيوبي - حي الملز - بالقرب من إدارة مكافحة المخدرات
هاتف: ٤٧٧٧٥٤٤ - ٤٧٩٤٥١٧ - ناسوخ: ٤٧٧٦١٣٩ - ص.ب: ٢٥٥٩٠ - الرياض ١١٤٧٦

اللآلئُ يَندُرُ وُجودُها

عَلِمْتُم يا أحبَّتي الأعزاءَ أَنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ فَقَدَ بموْتِ خديجةَ زَوْجَتِهِ دَعامَةً كبيرةً مِنْ دَعائِم نَشْرِ الدَّعْوةِ إلى اللَّهِ ، نَظَراً لما كانَتْ تُقَدِّمُهُ الفقيدَةُ قَبْلَ مَوْتِها مِن أَعظمِ التَّضْحِياتِ في سَبيلِ مُساعَدَتِهِ .

وَلَقَدْ عَاشَ رَسُولُنَا بَعْدَ خَدِيجَةَ وفي بَيْتِ خَدِيجَةَ وَهُوَ يُدْرِكُ أَنَّ مثيلاتِها مَفْقُوداتٌ في عالَمِ النِّساءِ ، وَلَقَدْ بقيَ يَذْكُرُها وَفاءً لَها ، يَذْكُرُ لَهَا قَلْبَها الطّاهِرَ ، وإيْمانَها بِهِ إِذْ كَفَرَ النّاسُ وتَصْدِيقَها لَهُ إِذْ كَذَّبَهُ النَّاسُ ، وَكَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَلْهَمَهُ ذِكْرَهَا لِيَزِيدَ مِنْ مَكَانَتِها وَيُعَظِّمَ مَكانَتَهَا .

وَتَمُرُّ الأَيّامُ .. وَلَمْ يَكُنِ الخالِقُ الكريمُ لِيَنْتَزِعَ خديجةَ مِنْ حَياةِ رَسُولِهِ محمَّدٍ ، دُونَ أَنْ يُعَوِّضَهُ مَنْ يُؤْنِسُ وَحْشَتَهُ .. فَهُنَاكَ وَاحِدَةٌ مِمَّنْ آمنَّ بالرسول على عَهْدِ خديجةَ ، وَاسْمُها (سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ) . وَإِنَّها لجديرةٌ أَنْ يَعْرِفَ المُسلمُ قِصَّةَ حياتِها وَزَوَاجِها مِنْ رسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ وَاكْتِسَابِها اسْمَ أُمِّ المؤمنينَ مثْلَ سابقتِها رَضِيَ اللَّهُ عَنهما .

﴿ . . إلا وأَنْتم مسلمون ﴾

لَقَدْ كَانَ لِسَوْدَةَ المُؤمنةِ زَوْجٌ صَالِحٌ مُؤْمِنٌ مثلُها ، صَدَّقَ مَعَها بمحمدٍ ورسالتِهِ ، وَتَحمَّلَ إلى جانبها كثيراً مِنْ أَذَى المُشْرِكين وَاضطِهَادِهِمْ ، وَعرَفَهُما الرَّسُولُ مُهَاجِرَيْن بَيْنَ مَنْ هَاجَرَ إلى الحَبَشَةِ ، حَيْثُ يُوجَدُ مَلِكٌ لا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ ، وَرَآهُمَا يَعُودَانِ مِنْ هُناكَ إلى جِوَارِ البَيْتِ الحرام ، وَكَأَنَّهُمَا لَمْ يُطِيقا البُعْدَ عَنْ رَسُولِ اللَّه وَأَصْحَابِهِ . بَلْ أَحَبَّا أَنْ يَحْتَمِلا مَا يَحْتَمِلُهُ الرَّسُولُ ﷺ وَالمُسْلِمُونَ البَاقُونَ في مَكَّةَ مِنْ أَذىً وَعَذابٍ . وَأَنْ يَكْتُبَ لَهُما مَعَهُم الأَجْرَ والثَّوَابَ . وَيَأْتي العامُ العاشِرُ للدَّعْوَةِ . وَيَمْرَضُ زَوْجُ سَوْدَةَ بَعْدَ أَن اشْتَدَّ المصابُ عَلَى أَتْبَاعِ المجاهِدِ العظيمِ ، وَيَزْدَادُ المرضُ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ ، وَسَوْدَةُ إلى جانِبِ زَوجِهَا تُوَاسِيهِ وَتُخَفِّفُ عَنْهُ ، وَتَخْدُمُهُ وَتُدَاوِيهِ . وَلكنَّ العُمُرَ مَحْدُودٌ ، ولا مَفَرَّ من الموت.. وَمَا أَحْلَى الموتَ على الإيمان. . وَلِسَوْدَةَ أَنْ تبكي زَوجَها المؤمِنَ ، وَلَها من اللَّهِ العَوْنُ وَحُسْنُ الثَّوابِ على الصَّبْرِ الجميلِ .

ولكنْ هَـا هِي ذِي خَوْلَةُ بنْـتُ حكيم الصحابيـةُ الجليلةُ تَدْخُلُ على رَسُولِ اللَّهِ تُواسِيهِ وَتَقُولُ : يا رسُولَ اللَّهِ : كَأَنِّي أَرَاكَ قَدْ دَخَلَتْكَ خُلَّةٌ لِفَقْدِ خـديجَةَ ، (تُريد أَنْ تعبِّر بذلك عما يحيطُ بهِ مِـنْ فَرَاغ) ، فقال الرسـول ﷺ لها : (أَجَلْ . . كَانَـتْ أُمَّ العيال ، وَرَبَّةَ البيْـتِ) . وَهُنَا قـالت خولَـةُ : يا رسـول اللَّه، لِمَ لا تَتَـزَوَّجُ مَنْ تُعَـوِّضُكَ عَـنْ خَديجَةَ بَعْـضَ حُنُوِّها وَعَطْفِهَا ؟ فَسَأَلها النبي الكريم ﷺ : (وَمَنْ تَعْنين يا بنْـتَ حكيـمٍ .) ؟ وَذَكَرتْ لَـهُ خَـوْلَـةُ اسْمَ (سَـوْدَةَ بنـتِ زَمْعَةَ)، وهـي ترى فيها امـرأةً تستطيعُ القيـامَ بهذِهِ المَهَمَّة .

المجاهِدةُ تَسْتَحِقّ التّكريمَ

وَأَدْرَكَ الرَّسُولُ ﷺ حُسْنَ اخْتِيَارِ خَوْلَةَ لِسَوْدَةَ زَوْجَةً لَهُ ، وَإِنَّهُ لَيَعْرِفُ مَنْ تكُـونُ سَوْدَةُ ؟ إِنَّها التي آمَنَتْ بِـهِ ، واتَّبَعَتْهُ عَلَى مـا قَـالَـهُ ، وَهَـاجَـرَتْ إلى الحَبَشَـةِ تقـاسي المَشَـاقَّ والمصاعِبَ ، وَتَحَمَّلَت البُعْـدَ عَنِ الأَهْلِ والعشيرَةِ في سبيلِ اللَّهِ . حَقّـاً : إنَّ سَوْدَةَ لَتَسْتَحِقُّ الاحْتِرامَ والتَّقْدِيـرَ وَالإكْرَامَ

مِـنْ رَسُولِ اللَّـهِ ﷺ، وَإِنَّهَا لَتَحْمِـلُ صِفَـاتٍ مِنْ صِفَـاتِ خَدِيجَةَ فِي التَّضْحِيَةِ وَالإِيمانِ . وَيُـوَافِقُ الرَّسُولُ الكَـرِيمُ . . وَتَذْهَبُ خَوْلَةُ إلى سَوْدَةَ وأبيهـا تَقُصُّ عَلَيْهِما الأَمْرَ ، فَيُوَافِقُ الأَبُ ، وَتَـرْضَى سَـوْدَةُ بِذَلِـكَ ، وَهِيَ لا تكَـادُ تُصَدِّقُ مَـا يَحْدُثُ ، فَـإِنَّهَا امْــرَأَةٌ لاَ جَمَالَ فِيهـا ، وَقَـدْ جَــاوَزَتْ سِـنَّ الشَّبَاب ، وَثَقُـلَ وَزْنُها ، وَتَرَهَّلَ جِسْمُهـا ، فَكَيْفَ رَضِيَ بِها رَسُـولُ اللَّـهِ الـذي تَتَمنَّى الكثيراتُ مِـنْ فتيـاتِ قـريـشٍ المسلماتِ ذَواتِ الحَسَــبِ والنَّسَــبِ وَالشَّمائِلِ الكَــريمَــةِ والشَّبَاب وَالجمالِ أَنْ يَتَزَوَّجْنَهُ ؟ وَأَيْـنَ هِي مِنْ خديجةَ رضِي اللَّـه عَنها ؟ لَيْـسَ لَهَا عَلَى كُـلِّ حَالٍ إلا الـرِّضا بـالشَّرفِ العَظيم وَلَـــــوْ لَمْ تَجِدْ نَفْسَهَــــــا أَهْــــلاً لَـــــهُ . .

متابعةُ الجهادِ مَكْرُمَةٌ

وَدَخلَـتْ سَوْدَةُ إلى بَيْـتِ الـزَّوْج الحبيـب حَيْثُ كَـانَـتْ تَسْكُنُ الأُخْـتُ الحبيبـةُ (خديجةُ) ، وَإِنَّها لَتَعْلَـمُ أَنَّ فَـرَاغَ خَديجَةَ لَـنْ تَمْلأَهُ سَيِّدَةٌ أُخـرى ، وَتَعْلَمُ مَكَـانَةَ الفقيـدةِ في

نَفْسِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ عَاهَدَتْ نَفْسَها أَنْ تَعْمَلَ مَا تَتَّسِعُ لَهُ نَفْسُها لِكَيْ تَخْدمَ زَوْجَها ، وَتَرْعَى لَهُ بَنَاتِهِ . وَسرْعَانَ مَا وَجَدَتْ في رسولِ اللَّهِ مُقَابِلَ مَا تَبْذُلُهُ أَكْرَمَ زَوْجٍ وَخَير زَوْجٍ ، وقَدْ أَبْدَلَهَا اللَّهُ زَوْجاً أَفْضَلَ مِنْ زَوْجها السَّابِقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه .

وَاطْمَأَنَّ النبيُّ ﷺ إلى سَوْدَةَ ، وَرَأَى فيها زوجةً كفْئاً لهذا البيت وللأولادِ ، تُسَاعِدُهُ في حَمْل الرِّسالَةِ ، وَتمدُّ لَهُ يَدَ المُواساة إذا ما سَمِعَتْهُ يشْكُو مِنْ قُرَيْشٍ ، وَأَذى المشركين .. وإِنَّها اليوم لَتُذَكِّرُهُ بما كَانَتْ عليه خديجةُ مِنْ قَبْلُ ، وَلَقَدْ كَانَ لها جهادٌ مَعَ زوجِها الذي فَقَدَتْهُ ، فَمِنَ الأَوْلى أَنْ تُواصلَ جهادَها مع الحبيبِ محمّدٍ العظيمِ . . وبصورة أرْوى للنَّفْسِ المُؤْمِنَةِ .

مَا أَرْوَعَ الْقَلْبَ الكبيرَ !!

وَهَاجَرَتْ سَوْدَةُ مَعَ المُهاجِرِينَ إلى المدينة ، لِتَسْكُنَ هُنَاك في مَسْكَنٍ ، أَعَدَّهُ الرَّسُول لها جانبَ المَسْجِدِ ، لِيَسْتَمِرَّ حُبُّها

لَهُ وَرَعَايتها لأُسْرَتِهِ ، وَلِتُتَابعَ عَمَلاً كريماً رَضِيَتْ بِهِ، وَتُقَدِّمَ كُلَّ مَا يـريدُهُ الرَّسُولُ الـزَّوْجُ مِنها . . وَإِنَّنا لنراهـا يا أَحِبَّتي تَبْذُلُ مَـا تَسْتَطِيعُهُ لِتَسْهِيلِ ما عَـزَمَ الرَّسُولُ ﷺ عَلَيْـه ، فَقَدْ لَمَسَتْ في قَلْبِهِ مَيْلاً للزَّوَاجِ مِنْ عَـائِشَةَ الصَّبيَّةِ الجميلةِ بِنْتِ أَبي بَكرٍ الصِّدّيْقِ صـاحِبِهِ وَخَلِيلِه ، وَكَانَتْ عِنْـدَ حُسْنِ ظَنِّ زَوْجِها بها .

وَجَاوَرَتْهَا عَائِشَةُ في مَسْكَنٍ آخر ، وَرَحَّبَتْ بِها سَوْدَةُ خَيْرَ تِرْحَابٍ ، وَفتَحَتْ لَها مِنْ قَلْبِها الواسِعِ الحنونِ والكبيرِ .

إِنَّها لَمْ تكُنْ إِلاَّ كما يَرْغَبُ الزَّوْجُ الكريمُ ، تَعْمَلُ دوماً على إِرْضَائِهِ ، وَتَسْعَدُ إِذَا نَفَّذَتْ مَا يَطْلُبُهُ ، لاَ تَبْخَلُ عليه بكلمةٍ حلوةٍ ، وَلا تَضِنُّ بمعونَةٍ تراه في حاجةٍ إليها . .

لا غيرَةَ ولا حَسَدَ

أَتَرَوْنَ يا أحبائي كَمْ هُوَ كبيرٌ هَذَا القلبُ ؟ قَلْبُ سَوْدَةَ أُمِّ المؤمنين قَلْـبٌ طيِّـبٌ وَلا شَـكَّ ، وَرُوحُهَـا رُوحٌ سَمْحَـةٌ ، أَحَبَّـتْ عَائِشَـةَ مَعَ أَنَّهَا ضرَّتُها . وَتَحَرَّتْ مَـرْضَـاتها مرضـاةً

للرَّسـول الحَبِيْبِ ، وَإِنَّها لَم تَشْعُـرْ مَعَ طيبـةِ قَلْبِها وَسَماحَـةِ رُوحِهـا بجُرْحٍ أَوْ غَضـاضَـةٍ مِـنْ أَنْ تُعامِـلَ الضَّرائِرَ بِهٰذِهِ المُعامَلَـةِ الحَسَنَةِ ، وَإِنَّها لتملِكُ المزيـدَ مِنْ الطِّيبَـةِ والحَنَانِ تَبْعَثُهُمَا مِنْ قَلْبِها فَيُرَفرِفانِ عَلَى كُـلِّ مَسَاكِنِ زَوْجَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ولا سيّما مَسْكَن عَائِشَةَ الطَّيّبةِ الجميلةِ .

لَمْ يُصِبْهَا الحَسَدُ ، وَلَمْ تَأْكُلْ قَلْبَهَا الغيرَةُ ، وَإِنَّهَا لَتُدْرِكُ أَنَّها لاَ تَقِفُ أَمَامَ جَمَالِ عَائِشَةَ عَلَى قَدَمَيْنِ ، لذلك لَمْ تُغَيِّرْ عادَتَها مَعَها مِنْ يَـوْمِ عَرَفَتْها ضَرَّةً لها ، بَل كـانت تُسْرِفُ في الحنانِ وَتُـبَالِغ في العطـفِ كُلَّما تَقَدَّمَ بِها العُمـرُ ، وَهِـيَ في هَـذا تُعْطـي الـدَّرْسَ الكبير في مَحَبَّـةِ النِّسَـاءِ الأُخْـرَيَـاتِ مِـنْ الضَّـرائِرِ . وَقَـدْ أَدْرَكَـتْ عَائِشَـةُ وغيرُهـا أَنَّ قَلْـبَ سَـوْدَةَ ليحملُ الكثيرَ مِنْ أَسْمى معاني الحبِّ والحَنَان .

الابتسامةُ بابُ السَّعادةِ

وَمِنْ جَميل الأَمْـرِ أَنَّ زَوْجَاتِ الرَّسولِ بَعْـدَ خديجةَ رحمَها اللهُ قَـدْ جَعَـلَ لَهُنَّ الرَّسـولُ نصيباً عـادِلاً في مُعامَلَتِهِـنَّ ،

وَيُنْفِقُ عَلَيْهِنَّ نَفَقَةً عَادِلَةً مُتَسَاوِيَةً ، وَيَنَامُ عِنْدَ كُلِّ وَاحِدَةٍ لَيْلَةً . إلا أَنَّ مَحَبَّةَ القَلْبِ لَمْ تَكُنْ لِتَتَسَاوى أبداً ، فَالنَّصيبُ الأَكْبَرُ من المحبَّةِ والعواطِفِ كان لِعَائِشَةَ دُونَ شَكٍّ ، والزَّوْجَاتُ الأُخْرَيات يَعْلَمْنَ هذا ، وَتَبْتَسِمُ سَوْدَةُ مِنْ غيرتِهِنَّ ، وَيَتَضَايَقْنَ مِنْ سُكُوتِها ، وَإِنَّها لَتَسَعُ في قَلْبِها وَنَفْسِها كُلَّ هَذِهِ المناظِرِ ، مع أَنَّ لَهَا أَصْغَرَ جَانِبٍ وَأَقَلَّ نَصِيبٍ مِنْ قَلْبِ رسُولِ اللَّه ﷺ وَعَواطِفِه وَمَحَبَّتِهِ .

كَانَتْ تَرَى حَسَدَ الضَّرائِرِ لعائِشَةَ وَغيرتِهِنَّ منها ، لكِنَّها لا تُحِبُّ مِنْهُنَّ التحزُّبَ ضِدَّها ، وَتَعْمَلُ عَلَى إِصْلاحِ قُلُوبِهِنَّ وَتَرْضِيَةِ خَوَاطِرِهِنَّ ، وتُعَلِّمُهُنَّ مِنْ مَوْقِفِها الجميلِ سَبيلاً جميلةً للعَيْش في سَعَادَةٍ وهناء إلى جانب رسُول اللَّه ﷺ .

لا حيلَةَ في الحبِّ العادِلِ

والرَّسُولُ الكريمُ يرَى مَا يَراهُ ، وَيَشْعُرُ أَنَّ سَوْدَةَ تَفيضُ مِنْ قَلْبِها المزيدَ مِنَ الحبِّ والطِّيبةِ ، بَشَرٌ لاَ يَمْلك أَنْ يُوَزِّعَ

حُبَّهُ بالتَّساوي ، وهذا صَعْبٌ على أَيِّ إِنْسانٍ ، وَيَبْدُو مُسْتَحيلاً ، وَإِنَّهُ لَيَعْرِفُ لِسَوْدَةَ حَقَّها ، وَيَتَذَكَّرُ ماضيها المشَرِّفَ وَجِهادَهَا العظيمَ . .

إِنَّ شُعورَهُ إزاءَهَا لَيْسَ هُوَ بالشُّعورِ الذي يُرْضِيهِ ، وَإِنَّهُ يُعَامِلُهَا مُعَامَلَةً رَقِيقةً ، وَقَدْ فكَّرَ في هَذِهِ الحال طَويلاً ، وَبَحَثَ عَنْ حَلٍّ يُرْضِيهِ ، وَيُخَلِّصُهُ مِنْ حيرتِهِ ، إِنَّهُ يُرِيدُ مَخْرَجاً مما أَصَابَهُ مِنْ ضِيقٍ فِي قِسْمَتِهِ لِسَوْدَةَ من الحبِّ .

وَأَحَسَّتْ سَوْدَةُ بما يَشْعُرُ رَسُولُ اللَّهِ بِهِ وبما يُضَايِقُه ، فَرَاحَتْ تَعْرِضُ عَلَيْهِ حَلاًّ يناسب الأَمْرَ ، ويُنْهِي ضِيقَ زَوْجِها .

إِنَّها لاَ تَرْغَبُ فِي فِراقِ زَوْجِها ، وَيَكْفِيها فخراً أَنْ تَبْقَى زَوْجَةً لأَفْضَلِ إِنْسَانٍ وَأَكْرَمِ رَسُولٍ . هَلْ تَدْرُونَ ماذا ارْتأَتْ على الزَّوْجِ الكريم ؟

اِجْعَلْ يومي لِعَائِشَةَ

إِنَّ قَلْبَها لَمْ يَتطَلَّعْ إلى عَوَاطِفِ الرَّسولِ لِتَنالَ مِنْها أَكْثَرَ مما

نَالَتْهُ ، وَإِنَّهَا حِينَ دَخَلَتْ بَيْتَ مُحَمَّدٍ ، كَانَتْ تَعْلَمُ قَدْرَهَا مِنَ الجمالِ وَكِبَرَ سِنِّهَا ، وَإِنَّها الآن لَتُدْرِكُ كَيْفَ تُرْضِي مَشَاعِرَها وَمَشَاعِرَ زَوْجِهَا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ ، وَقَدْ يَكُونُ هُنَاكَ صُعُوبَةٌ وَبَعْضُ الأَلَمِ في حَلٍّ سَتَقُولُه لرسول اللَّهﷺ ، لكنَّها سَتَبْقى مَعَ ذلك زَوْجةً لَهُ . . وَلَها الفَخْرُ فِي هَذَا . .

اقْتَرَبَتْ مِنْهُ وَقَالتْ : (يا رَسولَ اللَّهِ . أُحبُّ أَنْ يَبْعَثَنِي اللَّهُ يَوْمَ القيامَةِ زَوْجاً لَكَ ، يا رَسُولَ اللَّه ، اِجْعَلْ يَوْمي لعائشَةَ) . . مَا أَرْوَعَكِ يا سَوْدَة !! وَمَا أَجْمَلَ هَذَا الكلام !! سَلامٌ عَلَيْك يا صاحبةَ القَلْبِ الكبيرِ ، يا مَنْ رَضِيتِ أَنْ تُعْطي حَقَّكِ مِن اللَّيالي إلى عائِشَةَ ضَرَّتِكِ ، لِتَتَقَرَّبي بذلك مِنْ رسُول اللَّهِ وَمِنْهَا أكثر وأكثر . . وَمَا أَحَسَّ بِهِ مِنْ قَبْلُ إزَاءَ طَيِّبَةِ القَلْبِ (سَوْدَةَ) .

شكراً على المعروف

وَيَبْتَسِمُ رَسُولُ اللَّهِ لَهَا ، وَيَمْنَحُ مِنْ قَلْبِهِ مَا يَردُّ بِهِ عَلَى حُسنِ مَعْرُوفِ زَوْجَتِهِ ، وَكَثيراً مَا كان يُغَازِلها برِقَّتِهِ وَرِفْقِهِ ،

وَيُدَاعِبها وقَدْ أَصَابَهَا كبرُ العمرِ ، فَيَضْحَكُ إذا مَا رآها تَمْشي وَتَتَمَايَلُ ، وإذَا مَا رَأَتْ سَوْدَةُ سُرُورَ الرَّسولِ عملت أَنْ تَجْعَلَهُ في سُرُورٍ دائِمٍ ، فهي لَمْ تَبْخَلْ عَلَيْهِ يَوْماً بروحِها الطَّيِّبةِ السَّمْحَةِ ، وَلَمْ تُوَفِّرْ جُهْداً لإدْخَال السَّعَادةِ إلى قلْبِه .

وَلَقَدْ حَازَتْ بذلك على احْترامِ الرَّسولِ وَتَقْدِيرِهِ المُتَزايِدِ لَهَا ، وَسَطَّرَتْ صَفْحَةً جديدَةً إلى صفحاتِ سيرتِها الطاهرةِ تَتَقرَّب بها إلى اللَّه ، وَتَزيدُ من مكانتِها عنْدَ رسُول اللَّه . . وَمَا أَكْرَمَها مِنْ زَوْجَةٍ عَرَفَتْ كَيْفَ تُعَالِجُ مَا قَدْ يَعْرِضُ من المشْكِلاتِ . ولا سيَّما ما يكونُ بَيْنَ المرْءِ وَزَوْجِهِ عَلَى أَسَاسٍ مِنَ التَّسامحِ الكريم ، وَرِضا النَّفْسِ ، واطمئنانِ القَلْبِ ، ولا تَتَنَازَلُ عَنْ حُقُوقِها مواربةً وَتَمَلُّقاً . وَإنَّما حُبّاً وكَرَامَةً وَطِيبَةً وَحَنَاناً . .

لا سباق إلا للخير

وازْدَادَ ثِقَلُ جِسْمِها ، وَبَطُؤتْ حركَتُها ، وأَعانَها الرَّسولُ في أَكْثرِ أعمالها ، وبرغم مَا أَصابَها فَإنَّها لَمْ تَتَأَخَّرْ عَنْ

وَاجِباتِها ، وَلَمْ تُخَفِّفْ مِنْ عِبادتِها وَتَقَرُّبِها إلى اللَّهِ بالنَّوافِلِ : تُصَلِّي المزيد مِنْ الرَّكَعَاتِ ، وَتَخْرُجُ إلى الحجِّ مَعَ الرَّسُولِ الحبيبِ ، وتَسْبِقُ الجميعَ إلى عَمَلِ الخيْرِ ، وَحَدَثَ أَنْ فَكَّرَتْ بِزَحْمَةِ النَّاسِ التي سَتَحْدُثُ في حجَّةِ الوَدَاعِ أَثْنَاءَ رَمْيِ الجمراتِ فَاسْتَأْذَنَتْ رسُولَ اللَّهِ أَنْ يَسْمَحَ لَهَا بِرَمْيِ الجمرات قَبْلَ النَّاسِ فَأَذِنَ لَهَا مع أَمْثَالها مِمَّنْ يَصْعُبُ عَلَيْهِم الوقوفُ وسْطَ الزِّحامِ .

مَا أَجْمَلَ سَبْقَها إلى العملِ الطَّيِّبِ ، وَمَا أَلْطَفَ حِرْصَهَا عَلَى الخَيْرِ ، وَمَا أَجْزَلَ ثَوَابَها عِنْدَمَا تُصَلِّي خَلْفَ الرَّسُول ﷺ في اللَّيالي العديدة ، وتُطيلُ مَعَهُ الرُّكُوعَ والسُّجُودَ ، وَتَتْبَعُهُ في صَلاَتِهِ وَحَرَكَاتِهِ ، وَيَصْعُبُ عَلَيْها المُتَابَعَةُ فَتَصْبِرُ وَتَسْتَمِرُّ ، فَيَبْتَسِمُ الرَّسولُ لعملِها ، وَتَضْحَكُ ، وَيَسْأَلُ اللَّهَ لَها الأَجْرَ والعَوْنَ وَحُسْنَ الجَزَاءِ .

وَلاَ طَمَعَ إلا بالتَّقْوى

وَيطُولُ بِسَوْدَةَ العُمرُ ، وَيلْحَقُ الرَّسول ﷺ بالرَّفيقِ

الأَعْلَى ، وهــي ما زالــتْ على قَيْـدِ الحيـاةِ ، مع كبر سِنِّهـا ، وَضَعْفِ جِسْمِها ، وَتَحْزَنُ عَلَى فِراقِـهِ وَتَتَألَّمُ لموْتِه ، وَكَيْفَ لاَ وَقَدْ عَاشَتْ مَعَهُ عُمراً طَويلاً بَعْدَ وَفَاةِ خَديجَةَ ؟ . .

وعـاشَتْ أُمُّ المؤمنين بَعْـدَ وَفَـاةِ زَوْجِهَـا سِنِينَ عَديـدَةً ، صَرَفَتْها في العِبَادةِ والصَّلاةِ وَأَعْمَالِ البِرِّ ، وَقَـدْ عَرَفَ لَهَا أَبُو بَكْرٍ وَمِنْ بَعْـدِهِ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عنهما ، قَدْرَهَـا وَمَكانَـتَها ، وَلَمَسَا مِنْها سَعْياً مُتَوَاصِلاً لا يَنْقَطع نَحْوَ الخيرِ والحقِّ .

أَرْسَـلَ إليها عمـرُ بـنُ الخطـاب مَرَّةً دَرَاهِـم وفيرةً ، فَلَمَّا وَصَلَتْها لَمْ تَتَأَخَّرْ عَنْ توزيعها على الفقراءِ والمساكينَ ، فهي والحمدُ للَّهِ لَمْ تَطْمَعْ في دُنْيا ، ولا في مَالٍ بَلْ في عملٍ يزيدُها قُرْباً من اللَّه . . وَعلَى هذا بقيَـتْ سَوْدَةُ حتَّى وافاها الأَجَلُ وَفَارَقَتِ الحياةَ ، رَاضِيَةً مَرضِيَّةً ، تَلْقَى رَبَّها وَتَلْحَقُ بحبيبِها المصْطَفى ، ليبْعَثَها اللَّـهُ مَع الرَّسولِ زَوْجَةً لـه في الجنَّةِ يوم القيامة إِنْ شاءَ اللهُ .

اللَّهمَّ قلباً طيِّباً

هِذِهِ هي قِصَّةُ زَوْجَةِ رسُولِ اللَّه ﷺ (سَوْدَة) .

وإنَّني ما زِلْتُ معكم على مَوْعِدٍ يا أَحِبَّائي حَتَّى نَسْتَكْمِلَ مَعْرِفَةَ سيرةِ بقيَّةِ الزَّوْجَات . . وَأَراكُمْ قَدْ أَحطتُمْ علْماً بمكارمِ أُمِّ المُؤْمنين الثانيةِ التي منحَها اللَّهُ هذا القَلْبَ الطَّيِّبَ ، وَهَذِهِ النَّفْسَ السَّمْحَةَ ، فَاسْأَلوا اللَّهَ أَنْ يَمْنَحَنا قلباً مثل قَلْبِها ، وَنَفْساً مثل نَفْسِها ، وَمَكَانَةً مثْل مكانتِها بَيْنَ المحسنين الصالحين في الدنيا والآخرة . .

مع السَّلامة يا زَوْجةَ رسُولِ اللَّهِ . . يا صاحبةَ الخيرِ والحقِّ . . يا أُمَّ المُؤْمنين ، وَسَلامٌ عليك في إسلامِك ، وفي زواجِكِ ، وفي جِهَادِك ، وسَلامٌ عليكِ يَوْمَ فَارَقْتِ الحياةَ ، وَيَوْمَ سَتُبْعَثِينَ حيَّةً إلى جانب حبيبكِ وحبيبنا محمَّدٍ ﷺ ، وتحِيَّةً لَكِ عَبْرَ السِّنين التي كنت تقضينها في خدمةِ الرّسالةِ العظيمةِ والرَّسولِ الكريمِ ﷺ .

عَائِشَة

الحبيبة العالِمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



دَارُ الهُدَىٰ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيع

الرياض: طريق صلاح الدين الأيوبي - حي الملز - بالقرب من إدارة مكافحة المخدرات
هاتف: ٤٧٧٧٥٤٤ - ٤٧٩٤٥١٧ - ناسوخ: ٤٧٧٦١٣٩ - ص.ب: ٢٥٥٩٠ - الرياض ١١٤٧٦

المَنْبِتُ الصَّالِحُ مَفْخَرَةٌ

اِسْمُها (عائِشَةُ) . . وَهي الزَّوْجَةُ الثَّالِثَةُ التي سَنَعْرِفُ سيرَتَها الجميلةَ ، وَلَقَدْ سَمِعْتُمْ بِاْسْمِ أَبيها كثيراً ، إِنَّهُ صَاحِبُ رسُولِ اللَّهِ وَصَدِيقُهُ الحميمُ: (أَبُو بكر الصِّدِّيقُ)، الذي آمَنَ بمحمَّدٍ في الأَيَّامِ الأُولَى من الدَّعْوَةِ دُونَ تَرَدُّدٍ وَلاَ تَوَانٍ ، ثُمَّ كَانَ لَهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَوْنٌ كبيرٌ عَلَى نَشْرِ رِسالَةِ الإِسْلاَمِ وَصَدِّ أذى مُشْرِكي قريش وَاضْطِهادِهِمْ لأَتْبَاعِ الدَّعْوَةِ الجليلةِ . وَأُمُّ عائِشَة هي (أُمُّ رُومانٍ) بِنْتُ عُمَيْرٍ بْنِ عَامِرٍ . صَحَابِيَّةٌ كريمةٌ ، وَلَقَدْ عَرَفَ الرَّسُول (عَائِشَةَ) مِنْ صِغَرِهَا ، عِنْدَمَا كَانَتْ طِفْلَةً في بَيْتِ أَبيها . وَرَأَى فيها مَا يُدْخِلُ السُّرُورَ إلى قَلْبِهِ مِنْ لُطْفِها وَخِفَّةِ رُوحِها وَذَكَائها وَفِطْنَتِها . وَأُعْجِبَ بها لَمَسَهُ مِنْ تَوَقُّدِ ذِهْنِها. وكثيراً ما كَانَ يَلْحَظُها وَيَرْعَاها ويُوصي بها أُمَّها خيراً ، وَيَحْميها من اشْتِدادِ أَبَوَيْها عَلَيْها أَحْياناً . .

تعالوا الآن يا أحِبَّتي لِنَقْرأَ عَنْها صفحاتٍ حلوةً ومفيدةً إنْ شَاءَ اللَّهُ تعالى .

الزَّوَاجُ مَسْؤُولِيَّةٌ وتَبِعَةٌ

لَقَدْ خَطَبَها رَسُولُ اللَّهِ في مَكَّةَ ، بَعْدَ وَفاةِ خَديجةَ الطَّاهرةِ ، وَرَأى أَنَّ عائشَةَ سيكونُ لها الأثرُ الكبيرُ في حَمْلِ عِبْءِ الدَّعْوةِ مَعَهُ.

وَلَقَدْ وَافَقَ أبُوها على ما طَلَبَهُ رسولُ اللَّهِ مِنْهُ ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَرْفُضَ لَهُ طَلَباً . . وبَقِيتْ عائِشَةُ سَنَواتٍ في دَارِ أَبيها حَتَّى تَكْبَرَ وَتُصْبحَ صَبيَّةً يافِعةً ، وتَتَمَكَّنَ مِنْ فَهْمِ مَسْؤُولِيَّةِ الزَّوَاجِ ، فإنَّها أَيَّامَ الخطوبَةِ لَمْ تكُنْ قَدْ جاوَزَتِ السّابعةَ مِنْ عُمرِها ، بَلْ كَانَتْ في عُمرِ الطُّفُولةِ وَالمرَحِ . وسِنُّ اللَّهو واللَّعِبِ . لاَ تَسْتَطيعُ تَقْديرَ المَسْؤُوليّاتِ وَلا أَنْ تَتَحَمَّلَ التَّبِعَاتِ .

وَلَكُمْ أَنْ تَقُولُوا يا أَحِبَّتي : إنَّ أُسْرَةَ عائشةَ وبيئَتَها لَتَحملانِ ما يُسَاعِدُ عائِشَةَ عَلى تَخَطِّي هذه المرحلةِ بنجاحٍ ، فَمَعَ صِغَرِ سِنِّها اكْتَسَبَتْ مِنْ أَخْلاقِ أبيها جميلَ الصِّفاتِ التي زادَتْ جَمَالَها وَذَكاءَها وَفِطْنَتَها ، وَجَعَلَتْها تَسْمُو فَوْقَ سَفَاسِفِ الطُّفُولَةِ والصِّغَرِ ، وَأُمُورِ اللَّهْوِ واللَّعِبِ .

حَيَاةٌ حافِلَةٌ مُشَرِّفَةٌ

وَعَائِشَةُ يَا أَعِزَّائي قَدْ أَدْرَكَتْ مِنْ صِغَرِها ما كَانَ يُصيبُ رسُولَ اللَّـهِ منَ الأذى، وَمَا كَانَ يَلْقَاهُ أَبُوهَا مِنْ مُحارَبَةِ الكفّارِ في مَكَّة ، وَرَأَتْ دَارَ أَبِيها مُجْمعاً يَجْتَمِعُ فيهِ المؤمنون كَدارِ الأَرْقم لِدِراسَةِ آياتِ اللَّـهِ ، وَمَقْصِداً يَؤُمُّهُ الضُّعَفاءُ مِنَ المُسْلِمين يجدون فيه مَلْجَأً يحميهم مِنْ مُطَارَدَةِ الطَّوَاغيت وَفِتْنَتِهِمْ لَهُمْ في دِينِهِمْ .

وَإِنَّكُمْ لَنْ تَسْتَغْرِبُوا إذا أَدْرَكَتْ عَائِشَةُ هَـذَا كُلَّهُ ، وَرَاحَتْ تَنْظُرُ مَعَ حداثتها نَظْرَةَ إِعْجَابٍ وَتَقْدِيرٍ إلى نَبيِّ اللَّـهِ . وَقَدْ كَانَ لِعَائِشَةَ شَرَفُ إِعْدَادِ زَادِ الهجرةِ لأبيها وصاحِبِهِ رَسُولِ اللَّـه ﷺ ، وَهي مَا يَنْويهِ الكُفَّارُ مِنْ مُلاحقَةِ المهاجِرَيْن الكريمَيْن . . وَلَمْ تَمْكُثْ بَعْدَهُما طويلاً في مكَّةَ، بَلْ هاجَرَتْ مَعَ أُمِّها ، وَوَصَلَتْ إلى المدينة . لِتَجِدَ جَوّاً جديداً لَمْ تَتلاءَمْ مَعَهُ ، فَأَصَابَها المَرَضُ ، وَضَعُفَ جِسْمُها ، وَخَافَ أبواها عَلَى سَلامَتِها ، وَأَخَذَتْ تَتلاءَمُ شَيْئاً فَشَيْئاً مَع بِيئَةِ المدينة والحمدُ للهِ على ذلك .

الرِّضا أَساسُ التَّفاهُمِ

وفي السَّنةِ الثَّانيةِ لِلْهجْرةِ، تَمَّتْ حَفْلَةُ الزَّفافِ بَيْنَ الرَّسُولِ الكريمِ وَعروسِهِ الحُلْوةِ (عائشةَ) في جوٍّ مِنَ البَساطَةِ المُتَناهِيَةِ، وَدَخلَتِ الذَّكيَّةُ الجميلةُ مَسْكَنَها الذي كانَ أَقْرَبَ مساكِنِ رسُولِ اللَّهِ إلى المَسْجِدِ، وَيُطِلُّ على ساحَةِ الصَّلاةِ الجامِعَةِ، وَرَأَتْ عائِشَةُ في بَيْتها الجديدِ تَواضُعاً في الأثاثِ وَبَساطَةً في البناءِ، وَاسْتَقبلَتْها سَوْدَةُ زَوْجَةُ الرَّسُولِ وَضرَّتُها بِتَرْحابٍ وَفَرَحٍ، وَسَهَّلَتْ لَها طَريقَ قُبُولِ هَذا الوَضْعِ، وَيَسَّرَتْ لَها سُبُلَ تَفَهُّمِ مَسْؤُوليَّتِها أَمامَ زَوْجٍ كريمٍ وحبيبٍ، هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وَلَمْ يُضَيِّقِ النَّبيُّ على عائِشَةَ الصَّغِيرةِ، التي كانَتْ لا تَزال يَغْلِبُ عَلَيْها شيءٌ مِنْ رُوحِ الطُّفُولَةِ . . فَلَمْ يَنْهَها عَنْ لَعِبِ لَعِبَتِهِ، أَوْ مَرحِ أَتَتْهُ، بَلْ كانَ يَلْعَبُ مَعَها أَحْياناً وَيَمْرَحُ وَإِيَّاها، وَيُفاكِهُها ويضاحِكُها وَيُسلِّيها، لِكَيْ لا تجدَ في بيئتِها الجديدةِ ما يُثِيرُ غَضَبَها، أَوْ يُنْسيها أَيامَ طُفُولتِها دُون سَابِقِ تَمْهِيدٍ.

لِكُلٍّ مَا يُنَاسِبُهُ

وَمِنْ طَرِيفِ مَا حَدَثَ بَيْنَهُ وَبَيْنَها أَنَّهُ دَخَلَ يَوْماً إلى حجْرَتِها ، فَهبَّتْ رِيحٌ كَشَفَتْ عَنْ جَانِبٍ مِنْ الحجرةِ قَدْ صَفَّتْ فيهِ عَائِشَةُ بَعْضَ الدُّمى ، عَلَى هَيْئَةِ بَنَاتٍ ، يَتَوَسَّطُهُنَّ فَرَسٌ صَغِيرٌ لَهُ جَنَاحَانِ ، فَسَأَلَ الرَّسُولُ : مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ ؟ قَالَتْ : بَنَاتي ، قَالَ : وَمَا هَذَا الذي أَرَى وَسَطَهُنَّ ؟ قَالَتْ : فَرَسٌ . قَالَ : وَمَا هَذَا الذي عَلَيْهِ ؟ قَالَتْ : جَنَاحَانِ . فَاسْتَغْرَبَ ذَلِكَ وَسَأَلَهَا مُسْتَفْهِماً : جَنَاحَانِ ؟ فَأَجَابَتْهُ: أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ لِسُلَيْمَانَ خَيْلاً لَهَا أَجْنِحَةٌ ؟ فَضَحِكَ مِنْ قَوْلِها هَذَا ضَحِكاً كثيراً . وَأَحْيَاناً كَانَ يُسَابِقُها فَتَسْبِقُهُ تَارَةً ، وَيَسْبِقُها أُخرى ، وكثيراً مَا كَانَتْ تَرى في زَوْجِها سَمَاحَةً لا مثيلَ لَها ، وَحَنَاناً لا شَبيه لَهُ .

مَا أَرْوَعَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ زَوْجٍ يَعْرِفُ مَا يُناسِبُ الصَّغيرةَ عائِشَةَ ، وَيَفيضُ عليها مِنْ قَلْبِهِ حُبّاً وَحَنَاناً ، وَيُعَامِلُها أَحْسَنَ مَا تُعَامَلُ بِهِ مَنْ تَرَكَتْ بيْتَ أَبَوَيْها ، وَجَاءَتْ إلى بَيْتٍ فيه الضَّرائِرُ والزَّوْجاتُ الأُخْرَيَاتُ .

لا تَبْخَلْ في المحبَّةِ

وَعَائِشَةُ لا تُنكرُ يا أحبَّائي أنَّها قَدْ أَدْرَكَتْ ما يُكِنُّ لها رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَحَبَّةٍ وَعَطْفٍ وَإِعْجابٍ ، وَبَذَلِ ما يَسْتَطيعه لإِسْعادِهَا وَتَطييبِ خاطِرِهَا دوْماً ، لِذَلك قامَتْ هي مِنْ جانِبِها بِما يُسْعِدُهُ وَيُطَيِّبُ خاطِرَهُ ، وَوَقَفَتْ تُسَرِّي عَنْهُ بِكَلامِها العَذْبِ وَحِكْمَتِها الرائعَةِ ، تَرْعاهُ وَتُحيطُه بِقَلْبِها الصَّغير ، وَتَتَأَلَّمُ حِينَ تَراهُ يَقْسُو عَلَى نَفْسِهِ في التَقَشُّفِ ، فَتُرَفِّهُ عَنْهُ بِرُوحِها المَرِحَةِ ، وَتُعَوِّضُهُ مِنْ نَفْسِها ما يُدْخِلُ السَّعادَةَ إلى قَلْبِهِ ، وَلكنَّها مَعَ ذَلِكَ كانَتْ تَحْمِلُ بَيْنَ جَنْبَيْهَا غيرَةً قَوِيَّةً وَشَدِيدَةً : تَغارُ عَلَى زَوْجِها إِذا ما رَأَتْ سِواها قَدْ شارَكَتْها في حُبِّهِ ، وَتَتَأَلَّمُ إذا ما مَدَحَ الرَّسُولُ وَاحِدَةً مِنْ زَوْجَاتِهِ أَمامَها حَتَّى وَلَوْ ذَكَرَ خَديجَةَ المُتَوفَّاةَ أَوْ صَدِيقاتِها اللواتي بَقي الرَّسولُ يَحْتَرِمُهُنَّ وَيُقَدِّرُ لَهُنَّ صَداقَتَهُنَّ لِلفقيدة الغالية رحمها اللَّه. إنَّ عائشَةَ برغم صِباها وَشَبابِها وَجَمالها وذكائها ، وكُلِّ ما قَدَّمَتْهُ لِزَوْجِها لم تَسْتَطِعْ أَنْ تُنسِيه خديجَةَ لما كانَتْ تَحْتَلُّ رحمها اللَّهُ في نَفْسِ رسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَنْزِلَةٍ رَفيعةٍ عاليةٍ .

غِيرَةٌ لا مَفَرَّ منها

وَلَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَعْفُو عَنْ قَسَاوَةِ غيرتها ، وَيَضْربُ صَفْحاً عَنْ أَفْعَالِها التي تأتيها بِسَبَب الغيرةِ ، وَإِنَّهُ لَيَعْرِفُ كَمْ هُوَ صَعْبٌ تَغْيير هَذَا الأَمْرِ ، وَلَو اسْتَطَاعَتْ عَائِشَةُ مَا فَعَلَتْ ، لَكِنَّها كثيراً مَا تَحَرَّكَتِ الغيرةُ في نَفْسِها وَقلْبِها ، مِمَّا جَعَلَ زَوْجَاتِ الرَّسُولِ الأُخْرَيَاتِ يَغِرْنَ مِنْها وَمِنْ غيرتها ، وَكَانَ هَذَا الصِّراعُ والتَّنافُسُ بغيضاً إلى قَلْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَقَدْ فَعَلَ مَا بوُسْعِهِ لِكَيْ يُرْضِيَ جميع نِسَائِهِ ، وَطَلَبَ مِنْ ضَرَائِرِ عَائِشَةَ أَنْ يُرْضِينَ عائِشَةَ ، وَيُجَامِلْنَ شُعُورَهَا وَغيرتها القاسِيَة ، وَتَعْلَمُونَ يا أَحِبَّائي الصِّغَارَ أَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يُحِبُّ أنْ تَشْتَدَّ المُنَافَسَةُ بَيْنَهُنَّ ، وَأَنَّهُ يُحِبُّ رُؤْيَتَهُنَّ مَسْرُورَاتٍ رَاضِيَاتٍ ، فَكَانَ لذلك يُصْلِحُ الأُمورَ بأُسْلُوبٍ جميلٍ، وَكَلِماتٍ لطيفةٍ ، وَحِكْمَةٍ حُلْوَةٍ ، وَهُوَ خَيْرُ زَوْجٍ يُعْطِي الزَّوْجَةَ حقَّها كَامِلاً ، وَيُدَبِّرُ شُؤُونَها أَحْسَنَ تَدْبير ، وَيَحُلُّ المشكلاتِ مَعَها بِتَسامحٍ كريمٍ ورفقٍ وطيبةٍ ، وَمَا أَكْرَمَ مَا صَنَعَهُ فِي هَذَا الشَّأْنِ !

لا راحَةَ لحاسِدٍ ومُنافِقٍ

وتكبرُ عائشةُ مَعَ كبرِ المجتمعِ الإسلاميِّ وعِظَمِ انْتصاراتِ زَوْجِها ، وتَعْلُو مكانتُها عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لكنَّ أعْداءَ اللَّهِ أبَوْا إلا أَنْ يُنغِّصُوا عَلَيْهَا وَعلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَيْشَهُما ، فَهَا هُم المنافِقون يَحْبكُونَ الدَّسَائِسَ ، ويُشيعُونَ الفِتَنَ حَوْلَ عَائِشَةَ الجميلةِ الشَّابَّةِ ، فَقَدْ حَدَثَ مَرَّةً أَنْ خَرجَتْ مَعَ زَوْجِها الحَبيبِ في غَزْوَةِ بني المُصطَلَقِ ، ولما تَمَّ النَّصْرُ للمُسْلمين اسْتَرَاحُوا قليلاً ثُمَّ قَفَلُوا رَاجِعين نحْوَ المدينَةِ ، وتَأَخَّرَتْ عَائِشَةُ عَنْ الرَّكْبِ بيْنَما كَانَتْ تَبْحَثُ عَنْ عِقْدٍ جَميلٍ أَضاعَتْهُ في مكانِ اسْتراحةِ الجَيْشِ ، وَكَانَ مِنْ عَادَةِ رَسُولِ اللَّهِ أَنْ يُبْقِي وَاحِداً مِنْ جُنُودِهِ بَعْدَ رَحيلِهِ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ يَبْحَثُ فيها عَنْ أَشْيَاءَ وأدواتٍ قَدْ يَنْسَاهَا أَفْرادُ الجَيْشِ ، وَهَذِهِ المَرَّةُ كانت المهمَّةُ مِنْ نَصِيبِ الصَّحابِيِّ (صَفْوَانِ ابنْ المعطَّلِ) الذي فَاجَأهُ وُجودُ عَائِشَةَ مُتأَخِّرَةً ، فَحَملَهَا؛ يُناديه الواجِبُ، عَلَى نَاقَتِهِ ، وَوَصَلَ بِها سَالمةً بِعَوْنِ اللَّهِ تَعالى، فحمِدَ الرَّسُولُ وُصُولَهُما وَشَكَرَهُ ، لكنَّ المنافقين رَأَوْا في هذه الحادِثَةِ سبيلاً سَهْلَةً للطَّعْنِ في شَرَفِ الطَّاهِرةِ، فاتَّهَمُوهَا بما هي بريئَةٌ مِنْهُ كُلَّ البراءَةِ .

الخبرُ الكاذِبُ كارِثَةٌ

وسرْعان ما انْتَشَرَ خَبَرٌ كَاذِبٌ كَهَذا، وَوَصَلَ إلى والِدِ عائِشَةَ وأُمِّها ، وإلى رسُولِ اللَّه ﷺ ، فأحَسَّتْ عَائِشَةُ بالغرابَةِ مِنْ حَوْلها ، وَبِأَنَّ الشّائِعَاتِ قَدْ نالَتْ مِنْها وَمِنْ بَيْتِ زَوْجِها ، فَأَثَّرَ ذَلِكَ عَلَى مُعَامَلَةِ الرَّسُولِ لها ، فما بَالُهُ قَدْ غَيَّرَ الحَنانَ الذي عَوَّدَها إيّاه ؟ لَقَدْ حَزِنَتْ وَتأَلَّمَتْ ، وَأَلَحَّ عَلَيْهَا مَرَضٌ شَديدٌ أضْعَفَها وَأَتْعَبَها ، وَانْتَقَلَتْ إلى دَارِ أَبيها وَالدُّمُوعُ مِلْءُ عَيْنَيْها ، تحكي أَسَاها وحُزْنَهَا.

إنَّها لَتَدْري بَراءَتَهَا ، وَإِنَّ أُمَّها لَتُهَوِّنُ عَلَيْها ، وَإِنَّ زَوْجَها لَيُعَاني مِنْ أَلَمِ النَّفَسِ ، فَهُوَ يَعْرِفُ نَقاءَهَا وَطَهارَتَها ، وَلا يرى مِمَّنْ يَسْأَلُهُمْ عَنْها إلا شَهادَةَ الخيرِ وَالطَّهارَةِ لَها . . فَما الحَلُّ ؟ وما الْعَمَلُ ؟

وَضَجَّتِ المدينةُ لحزْنِ رَسُولِ اللَّه ﷺ ، وَطَلَبَ الصَّحابَةُ الأوْفياءُ أَنْ يحْسِمَ رَسُولُهُم الأَمْرَ فَيأْمُرَ بضَرْبِ أَعْناقِ المُفْترين . وَأَعْلَنَتْ عائِشَةُ أَمَامَ أَهْلِها أَنَّها لَمْ تَقْتَرِفْ إثماً وَلاَ ذَنْباً ، وَاستَعَانَتْ باللَّهِ قائِلَةً : صَبْرٌ جميلٌ . . واللَّهُ المُسْتَعانُ عَلَى ما تَصِفُونَ .

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾

إنَّ اللَّهَ رَحيمٌ . . وَيَنْصُرُ الحَقَّ ، وَلا يَنْسَى مَا نَزَلَ بِعَائِشَةَ مِنَ الحُزْنِ والأَسَى ، وَلا يُحِبُّ أَنْ تَيْأَسَ مِنْ رَحْمَتِهِ ، لِذَلِكَ سَرْعَانَ مَا نَزَلَتْ بَراءَتُها عَلَى لِسَانِ جِبْرِيلَ عليه السلام. وَيَبْتَسِمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِلاً : (أَبْشِري يا عَائِشَةُ فَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ بَراءَتَكِ) . وَعَادَتِ الزَّوْجَةُ الطَّاهِرَةُ إلى دَارِ زَوْجِها فَرِحَةً تَتَمَتَّعُ مِنْ جَديدٍ بِحُبِّ الرَّسُولِ وَحَنَانِهِ وَعَطْفِهِ ، بَلْ وَبِأَكْثَرَ مِمَّا كَانَتْ تَتَمَتَّعُ ، فَقَدْ زَادَتْ مَكَانَتُها فَوْقَ ما كَانَتْ تَتيهُ وَتَفْتَخِرُ بِقَوْلِها : (أَنَا الَّتي أُنْزِلَتْ بَراءَتي مِنَ السَّماءِ) . . وَحَمْداً للَّه .. حَمْداً لَهُ يا عَائِشَةُ ، وَمَا أَحْلى الفَرَجَ بعد الضِّيقِ والصَّبْرِ ! وَمَا أَجْمَلَ التَّبْرِئَةَ مِنْ تُهْمَةٍ شَديدةِ الوَقْعِ على النَّفْسِ ! وَهنيئاً لِمَنْ يُبَرِّئُها رَبُّ السَّماءِ ، وَلْيَعلَمِ المُفْتَرُونَ أَنَّ اللَّهَ رَبَّ السَّماءِ لا يَخْفَى عليه شَيْءٌ في الأَرْضِ ولا في السَّماءِ، وَيَعْلَمُ ما تُحيكُهُ صُدُورُهم ، وما تلوكُهُ أَلْسِنَتُهم من الإِفْكِ والكَذِبِ والاتِّهاماتِ الباطِلَةِ .

﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾

وتمرُّ الأيَّامُ . . وَتحجُّ عائِشَةُ مَعَ زَوْجِها حجَّةَ الوَدَاعِ ، وَهيَ لا تَدْري أَنَّ الرَّسُولَ لَنْ يَعيشَ طَويلاً بَعْدَ هَذِهِ الحِجَّة، وإنَّهِ لا عجب في أَنْ لا تُدرِكَ هَذَا ، وَقَدْ رَأَتْهُ في عرفاتٍ كَعَهْدِها مَوْفُورَ القُوَّةِ ، مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ .

وفي يَوْمٍ صَائِفٍ بَعْدَ شَهْرٍ مِنْ عَوْدَة النَّبيِّ ﷺ إلى المدينة، بَدَأَ الأَلَمُ والصُّدَاعُ ، وَشَكَى الرَّسُول لِعائشةَ أَلَمَهُ وَفُتُورَ جِسْمِهِ ، لكِنَّهُ لَمْ يَفْتُرْ عَنْ مُدَاعبتِها وَمُلاَطفتِها وابْتِسَامَتِهِ لها، وَيَشْتَدُّ الأَلَمُ والمَرَضُ عَلَى رسُولِ اللَّهِ وَتَسْتَجِيبُ الضَّرائِرُ لرغبةِ زَوْجِهنَّ في بَقائِهِ عِنْدَ عَائِشَةَ مُدَّةَ مَرَضِهِ ، تَسْهَرُ عليه وَتَعْتَني بِهِ .

وحانت السَّاعَةُ الأخيرَةُ ، واختار الرَّسُول رِفْقَةَ رَبِّهِ ، وَجَنَّةَ الرِّضْوانِ ، وَدَفَنَهُ المُسلِمونَ في حُجْرَةِ عائِشَةَ حَيْثُ ماتَ ، وَنَالَت عائِشَةُ شَرَفَ تَمريضِها لَهُ وَدَفْنِهِ في بيتِها ، وَسَعِدَتْ بمجاوَرَةِ قَبْرِهِ مَيتاً ، كما سَعِدَتْ بحبِّهِ حيَّاً مِنْ قَبْلُ . . وَسُبْحَانَ مَنْ جَمَعَهُما في مَسْكَنٍ واحِدٍ وحُجرةٍ واحِدَةٍ .

« أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ »

لَقَدْ حَزِنَتْ عَلىٰ فِرَاقِهِ ، وَلَكِنَّها سعيدَةٌ بمجاوَرَةِ قَبْرِهِ ، وبِحظِّها مما أَخَذَتْهُ مِنْ تَعاليم الرَّسُولِ ، ويا لحظِّها الرائعِ ! كَأَنَّهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قَدْ هَيَّأَ عَائِشَةَ لكَيْ تأْخُذَ الكثيرَ، ولكَيْ يأْخُذَ الصَّحَابَةُ منها الكثيرَ الكثيرَ أَيْضاً ، يَسْأَلُونَها عَنْ رَسُول اللَّهِ في حياتِهِ ، فتُجيبُهم أَحْسَنَ جَوابٍ ، وَتَمُدُّهُم بِنَبْعٍ غَزيرٍ لاَ يَنْضَبُ مِنَ التَّعاليم ، لِذَلِكَ غدَتْ أَوَّلَ مَرْجِعٍ يَرْجِعُ إليه المسلمُونَ في كُلِّ ما يَصْعُبُ عليهم فَهْمُهُ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ ، وَلَيْسَ ذلِكَ غريباً عليها ، فهي الذَّكيَّةُ الفَطِنَةُ ، صَاحِبَةُ الذَّاكرة القويَّةِ ، وهِيَ أَهْلٌ لأنْ تحْمِلَ هَدْيَ الإِسْلاَمِ ، وَتَشْتَرِكَ في حَمْلِ مَنَارِ العلم : تَرْوي الأحاديث ، وتَنْشر التَّعاليمَ وَبقِيتْ حَتَّى عَهْدِ معاويةَ بْنِ أبي سفيانَ تَمُدُّ يَدَ العَوْنِ لِمَنْ يَسأَلُها عَنْ عِلْمٍ ، لاَ تَبْخَلُ ولاَ تَضِنُّ ، وَلَقَدْ شَهِدَ الصَّحَابَةُ الأَجلاءُ لَهَا بِصِدْقِ قَوْلها ، وَغَزارَةِ عِلْمِها ، وَمَا أَحْلى مَا أَطْلَقُوهُ عليها مِنْ لَقَب (الصَّادِقَةِ بِنْتِ الصِّدّيق) .

نَعَمْ يَا أَحِبَّتِي . . إِنَّها لَصادِقَةٌ وَصدِّيقةٌ ، وابْنَةٌ للصِّدِّيقِ .

النيَّةُ الحَسَنَةُ لا تكْفي

وَشَارَكَتْ عَائِشَةُ الخلفاءَ الراشدين في الأُمُورِ العِظَامِ ، والتدَّابيرِ السِّياسِيَّةِ والحربيَّةِ ، تَعْجَبُ مِنْ بَعْضِ تَصرُّفَاتِهِمْ ، وَيَسُوؤُها البَعْضُ الآخرُ ، وَتُدْلي بِرَأْيِها إذَا مَا رَأَتْ حَاجَةً لذلك . وَتَغْضَبُ للَّهِ إذا مَا بَدَا في الأُفُقِ خَطَأٌ مِنْ وَالٍ أَوْ حَاكِمٍ . .

نَرَاهَا قَدْ حَزِنَتْ لِمَقْتَلِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ مَظْلُوماً ، وَأَدْخَلَتْ نَفْسَها فِي إِصْلاَحِ أَمْرِ الفِتْنَةِ بَعْدَ حَادِثَةِ القَتْلِ ، وَخَرَجَتْ تَبْتَغي الأَجْرَ ، لكنَّها أَخْطَأَتْ في أَنَّها قَادَتْ جَمْعاً انْزَلَقَ في مُقَاتَلَةِ عليٍّ بْنِ أَبي طَالبِ الخليفةِ الجديدِ ، والذي بَايَعَهُ المسلمون وَنَصَّبُوهُ خَليفَةً، لكنَّها سرْعَانَ ما وَافَقَتْ عَلى التَّوَقُّفِ ، وَقَبُولِ الصُّلْحِ ، وكان الخَيْرُ في قبولها له . وَنَدِمَ طلحةُ والزُّبَيْرُ اللذانِ خَرَجَا مَعَها ، وَتَمَنَّيَا لَوْ لَمْ يَتِمَّ هذا الخروجُ عَلَى عليٍّ . والخليفةُ عليٌّ قَدْ صَفَحَ عَنْ عَائِشَةَ وقَابَلَهَا بالصَّفْحِ الجميل واسْتَغْفَرَ اللَّهَ وحَمِدَهُ عَلَى سَلاَمَتِها. واسْتَغْفَرَتْ عَائِشَةُ رَبَّهَا ، وَتَابَتْ إلى اللَّهِ مِنْ عملِها وَأَمَرَتْ جَيْشَها بالعَوْدَةِ تائباً نادِماً .

الفَضَائِلُ لا تُنْسىٰ

وفي المدينةِ تـابَعَتْ عائِشَةُ نَشْرَ التَّعـاليم الإسلاميـة بَعْدَ عَوْدَتِها ، وَأَكْثَـرَتْ مِـنْ أَعْمالِ البرِّ والخيرِ ، وَأَحَسَّـتْ أخيراً بمَـرَضِ المَوْتِ وَدُنُوِّ الأَجَـلِ ، وَوَاساهـا كِبـارُ الصَّحَابَـةِ ، وَخَفَّفُـوا مِـنْ آلامِهـا بما قَـدَّمُـوه لها مِـنْ حُسْـنِ الاعتراف بالجميل .

وفي الليلةِ السَّـابعة عشرة من رمضـان من السَّنَةِ الثَّـامنةِ والخمسين للهجرة ، مـاتَـتْ أُمُّ المؤمنين عائِشَـةُ ، وانْطَفَأَتْ الرُّوحُ الـزكيَّةُ ، وَحَـزِنَ الناسُ حُـزْناً شَـديداً على وفـاةِ الأُمِّ الكريمةِ، وبـاتُوا يَذْكُرون بَعْـدَ مماتِها ما كان لَها مِـنْ فَضْلٍ كَبيرٍ في تعليمهم وَتَثْقيفِهم وَتَفْقِيهِهم وإِرْشَادِهِمْ .

رحمَ اللَّهُ عَائِشَةَ . . الحبيبةَ العالمةَ والمؤمنةَ الصَّالحةَ. لَقَدْ كَانَـتْ وَمَا تَزَالُ مَشْعـلاً منيراً نَيِّراً يَتَلأْلأُ وَيشـعُّ ، وَسَجَّلَها التاريخُ آيـةً من آياتِ الفخرِ والاعْتزازِ لنـا . والحمدُ للَّهِ أنْ هَيَّأَها للـرَّسولِ زَوْجَةً وللمؤمنينَ أُمّاً ، وللنسـاءِ قُدْوَةً وَأُسْوَةً حَسَنَةً .

حفصة

حافظة المصحف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ



دَارُ الهُدَىٰ لِلنَّشرِ وَالتَّوزِيع

الرياض: طريق صلاح الدين الأيوبي - حي الملز - بالقرب من إدارة مكافحة المخدرات
هاتف: ٤٧٧٧٥٤٤ - ٤٧٩٤٥١٧ - ناسوخ: ٤٧٧٦١٣٩ - ص.ب: ٢٥٥٩٠ - الرياض ١١٤٧٦

الأَبطالُ لا يَنْسَاهُم التَّاريخُ

حَفْصَةُ بِنْتُ عُمر بْنِ الخطَّاب .. هِيَ الزَّوْجَةُ الرَّابِعَةُ مِنْ زَوْجَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَزَوَّجَهَا بَعْدَ أَنْ تُوُفِّيَ زَوْجُهَا (خُنَيْسُ بْنُ حُذَيْفَة) ، ذَلِكَ الصَّحابيُّ الجليلُ الذي عرفَهُ المُسْلِمُونَ مُجاهداً في سبيلِ الإسْلامِ ، وَذَكَرَهُ التَّاريخُ وَاحِداً مِن أَوائِلِ المجاهدين، تَحَمَّلَ أَذَى المُشْرِكِينَ، وَهَاجَرَ إلى الحَبشةِ مَعَ المهاجِرين الأَوَّلين، وَلَمْ تَنْسَهُ أَرْضُ يَثْرِبَ عِنْدَمَا هَاجَرَ إِلَيْهَا بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ أَرَاضِي الملكِ النَّجَاشِيِّ، وَقَدْ وَقَفَ إلى جَانِبِ الرَّسُولِ في بَدْرٍ لِيَبقَى ذِكْرُهُ نَدِيّاً عَلَى أَرْضِ المَعْرَكَةِ حَيْثُ حَدَثَتِ الغَزْوَةُ الكبيرةُ الفاصِلَةُ بَيْنَ أَتْبَاعِ الحقِّ وَأَعْدَائِهِ .

وَهُنَاكَ، شَهِدَتْ لَهُ الملائِكَةُ والسُّيوفُ والرِّماحُ بُطولَتَهُ الرائِعةَ الفَذَّةَ، وَعَلَتْ رُوحُهُ تُرَفْرِفُ نَحْوَ السَّماءِ، تَارِكَةً في المدينةِ حَفْصَةَ أَرْمَلَةَ مُهَاجِرٍ وَمُجَاهِدٍ مِنَ الطِّرازِ الأَوَّلِ الرَّفِيعِ، تَذُوقُ مَرارَةَ الحُزْنِ وتبكيه بَطَلاً شَهيداً .

إِكرامٌ في مكانِه

وَيُكرمُها الـرَّسُولُ عِنْدَمَا يُعْلِـنُ قبولَهُ الزَّواجَ مِنْهـا، وَيُكْرِمُ تِلْكَ الشَّابَّةَ الجميلةَ، ويكرِمُ فيها أَبَاها الفَاروقَ، ورُوحَ زَوْجِها الشَّهيدِ البطلِ رضي الله عنه .

وَتَدْخُلُ العروسُ إلى بَيْتِ رَسُـولِ اللهِ، وَهِيَ لا تَدْ رِي كَيْفَ تَشْكُرُ رَبَّها على نِعْمَةِ زَوَاجِهَا الجديدِ، وَاسْتَقْبَلَها النَّبِيُّ الكريمُ، وَرَأَتْهَا عَـائِشَـةُ وَسَـوْدَةُ زَوْجَتَـاهُ، وَنَظَـرَتِ الضرَّةُ الجديـدَةُ إلى مَسْكَنِهـا، وَلَمَحَتْ في عَيْنَـي عَائِشَةَ شَيْئاً من الغيرةِ، لكنَّهـا جَلَسَتْ رَاضِيَةً، وفي نِيَّتِهـا أَنْ لا تُعادي عَائِشَةَ، وفي تَقْـدِيرِها أَنْ تَعْمَلَ على مَحَبَّتِها، والاسْتِحْوَاذِ عَلَى رِضَاها، وَكَسْبِ مَوَدَّتِها،

أَهْلاً بِـكِ يَا حَفْصَةُ، لَقَدْ جَمَعَتْـكِ الأَيامُ مَعَ ابْنَةِ الصِّدِّيقِ، وَإِنَّكِ وَإِيَّـاهَا لَمِنْ خِيرَةِ بَنَاتِ الصَّحَـابَةِ، وَإِنَّ أَبَاكِ وَأَبَـاهَا لَمِنْ أَقْـرَبِ المُسْلِمِين إلى رَسُولِ الله ﷺ، وَإِنَّـكِ لَتَعْلَمين كَمْ هِـيَ مَكَانَتُهُما عِنْدَ زَوْجِكِ الكريـمِ، فَلا تَعْجَبي إِنْ وَجَدْتِ نَفْسَكِ كَريمةً مُكرَّمَـةً، وَهَنِيئاً لَكِ أَيَّتُها الشَّابَّةُ الجميلـةُ بَيْتَكِ الجديدَ وَزَوْجَكِ الحبيبَ .

هكذا يكون الآباءُ

وَكَمْ هُـوَ جميلٌ يا أَحبَّائي أَنْ تكُـونَ الشَّابَّةُ زَوْجَةً صَـالِحَةً تَقِيَّةً، وَأَنْ تَسْمَعَ نَصيحَـةَ أبيها عُمَرَ بْنِ الخطَّـابِ عِنْدَمَا أَرَادَهـا مُطيعةً لِـرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَعَـلَّ عُمَـرَ بْـنَ الخطَّابِ ذَاكَ المُسْلـم الحازِم، والصَّارِمِ العادِلِ يَعْلَـمُ أَنَّ ابْنَتَهُ جَمِيلَةٌ، وَأَنَّها صَبِيَّةٌ شَـابَّةٌ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُرِدْ مِنْهَا أَنْ تُنَافِسَ عَائِشَةَ أَوْ غَيْرَهَـا مِنْ الضَّرائِرِ، فَرَاحَ يُذَكِّرُهَا بما هي فيه، وَيُعاوِدُ النُّصْحَ لَها بَيْنَ الفَتْرَةِ وَالأُخْرى، وَكَثيراً مَا حَذَّرَهَا غَضَبَ رَسُولِ اللهِ إِنْ هِيَ حَاوَلَتْ إِغْضَابَ عَائِشَةَ، وَكَثيراً مَا نَهَاهَا عَنِ الغيْـرَةِ أَوِ التَّأَفُّفِ لما لذلِكَ مِنْ عَواقِبَ لا تُحْمَدُ، وَإِذا مَا رَآهَا تَتَّفِقُ مَـعَ ابْنَةِ أبي بَكْـرٍ عَلَى أَمْرٍ لاَ يَـرْضَى عَنْـهُ النَّبيُّ ﷺ، نَبَّهَهَـا وَنَهَاهَـا عَنْ تَـدْبيرٍ مِثْلِ هَـذَا ثَـانِيَة، وَإِنَّـهُ لَنِعْمَ الأبُ، يَخَافُ مِـنَ الإِفْرَاطِ والتَّفْريطِ، وَيَرى ابْنَتَـهُ عَنْ كَثَبٍ وَيُرْشِدُهَا إلى العَدْلِ في عَمَلِهَا وَتَصَرُّفَاتِهَا خَشْيَةَ أَنْ يَزيدَ التَّآلُفُ مع الضَّرائِرِ أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ عَنِ الحدِّ المَعْقُولِ ..

هكذا يا أَحبَّائي قَدْ أَكْرَمَهـا اللهُ بِأَبٍ اسْتَحَقَّ الأُبوَّةَ عَنْ جَدارَةٍ بَالِغَةٍ .

وهكذا فلْيكُنِ الأزْواجُ

وَمَعَ كُلِّ هَذَا، فكثيراً ما كانَ الرَّسُولُ الكريمُ ﷺ يَتحَمَّلُ عَرُوسَهُ الشَّابَّةَ، كما تحَمَّلَ وَيتحَمَّلُ عائِشَةَ الصَّبيَّةَ، وإنَّهُ لا يَنْسَى أَنْ يُلاَطِفَ ابْنَةَ عُمَرَ كَما يُلاطِفُ ابْنَةَ أبي بَكْرٍ؛ وَلاَ يُهْمِلُ وَاحِدَةً مِنْ زَوْجَاتِهِ، بَلْ يُعامِلُهُنَّ أفْضَلَ ما تكونُ المُعامَلةُ، وِيُقَدِّرُ لَهُنَّ إِحْسَاسَهُنَّ بالغيرةِ، وَيُسَرِّي عَنْهُنَّ برِفْقِهِ بِهِنَّ.

كَانَ يرَى في حَفْصَةَ زَوْجَةً تقيَّةً، وَرِعَةً، تُحِبُّ الصِّيامَ وَتقُومُ لَيْلَها (تُصلِّي وَتتَهجَّدُ)، وَيَرَى فيها تِلْكَ الزَّوْجَةَ التي تَعْرِفُ وَاجِبَها مَعَ زَوجِها وَضَرَائِرِها، فإذا مَا بَدَا مِنْها مَا يُغضِبُهُ فإنَّها سرْعانَ ما تَنْدَمُ عَلَى مَا فَرَّطَ مِنْها، وَتَتَذَكَّرُ حزْمَ أَبيها وَشِدَّةَ نُصْحِهِ وَمَوْعِظَتِهِ، وَتَعُودُ مِنْ فَوْرِها إلى رُشْدِهَا وَصَوابِها.

إنَّها لَتُدْرِكُ أَنَّ حياتَها مع الضَّرائِرِ مَليئةٌ بالصُّعوبةِ، لَكنَّ عَدْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ كانَ يُخَفِّفُ عَنْهَا هَذَا الإِحْسَاسَ، وَيُهَوِّنُهُ، وَيَجْعَلُها تَرْضَى العَيْشَ مَعَهُ مُطْمَئِنَّةً، فَهُوَ خَيْرُ زَوْجٍ، وَخَيْرُ مَنْ يُطَبِّقُ العَدْلَ وَيَتَسَامَحُ مَعَهُنَّ بِكَرَمٍ وَرِقَّةٍ.

وبالرِّفْقِ فَلْتُحَلَّ مُشْكِلاتُنا

وَحَدَثَ أَنْ عادَتْ حَفْصَةُ مِنْ بَيْتِ أَبيها ذاتَ مَرَّةٍ، وَأَرادَتْ دُخُولَ مَسْكَنِها، فَعَلِمَتْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ يَجْلِسُ داخِلَهُ مَعَ زَوْجَتِهِ (مارِيَةَ) وَهِيَ مِنْ ضَرائِرِها الجميلاتِ، فَعَصَفَتْ في نَفْسِها مَوْجَةٌ شَدِيدَةٌ من الغيرَةِ، وَاغْتاظَتْ مِنَ الأَمْرِ، وَشَعَرَ الرَّسُولُ بِما أَصابَها، فَأَقْبَلَ عَلَيْها مُتَرَفِّقاً بِها، يُطَيِّبُ خاطِرَها وَيُلاطِفُها، وَيُسَرِّي عَنْها، وَطَلَبَ مِنْها آنذاكَ أَنْ تَتَناسَى الحادِثَ، وَتَضْرِبَ صَفْحاً عَمّا كانَ، لَكِنَّها لَمْ تَصْبِرْ عَلَى كِتْمانِ الأَمْرِ، وَسَرْعانَ ما أَذاعَتْهُ لِعائِشَةَ التي أَغاظَها أَيْضاً أَنْ تَرى مَحَبَّةَ زَوْجِها لِضُرَّتِها (مارية)، وَعَلِمَ الرَّسُولُ بِأَنَّ حَفْصَةَ لَمْ تَكْتُمْ ما اتَّفَقا عَلَيْهِ، فَغَضِبَ أَشَدَّ الغَضَبِ، وَكادَ أَنْ يُقْدِمَ عَلَى ما لا تُحِبُّهُ حَفْصَةُ وَضَرائِرُها، لَوْلا أَنْ نَزَلَ جِبريلُ مِنَ السَّماءِ لِيُهَوِّنَ على النبيِّ أَمْرَ حَفْصَةَ وَزَوْجاتِهِ، وَيَطْلُبَ مِنْهُ الرِّفْقَ كَعادَتِهِ، وَأَنْ يُسامِحَهُنَّ وَهُوَ المُسامِحُ الكريمُ عَمّا بَدَرَ مِنْ خَطَأٍ وَسُوءِ تَصَرُّفٍ.

الدنْيا لاَ تَسْتَحِقُّ الطَّمَعَ

وَعُمَرُ الذي يَتَرَقَّبُ أَخْطَاءَ ابْنَتِهِ كَيْ يُحاوِلَ إِصْلاَحَهَا ، تَنَامى إلى سَمْعِهِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمْ يَخْرُجْ يَوْماً للصَّلاةِ بالنَّاسِ كَعَادَتِهِ، فتَسَاءَلَ في نَفْسِهِ عن الخبرِ وَسَببِ ذلك، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عَلى الرَّسُول لِيَسْأَلَهُ، وَلَمَّا دَخَلَ وَجَدَ أبا بكرٍ قَدْ سَبقَهُ في الأَمْرِ نَفْسِهِ، يَجْلِسُ إلى جانِبِ الرَّسُولِ الذي تَبْدُو على وَجْهِهِ أمارات غَضَبٍ وَحُزْنٍ، وَمِنْ حَوْلِهِ نِسَاؤُهُ. وَهُنَا أَدْرَكَ عُمرُ مَا بَيْنَ الرَّسُولِ وَزَوْجَاتِهِ مِنْ خِلافٍ، وَكَبُرَ عَلَيْهِ غَضَبُ النبيِّ الكريمِ، وَأَحبَّ أَنْ يُسَرِّي عَنْ رَسُولنا وَيُضْحِكَهُ، وَحَاوَلَ ذَلِكَ فَضحِكَ النبيُّ وَقَالَ مُشيراً إلى زوجاتِهِ: (هُنَّ حَوْلي يَسْأَلْنني النَّفَقَةَ) .. ثُمَّ قامَ عُمَرُ وَأَبو بكرٍ إلى حَفْصَةَ وَعَائِشَةَ يُؤدِّبَانِهما، فَقَالتا: واللهِ لا نَسْأَلُ رَسُولَ اللهِ شيئاً عِنْدَهُ . وَأَدْرَكَتْ حَفْصَةُ وَضَرائِرُها أَنَّ رَسُول اللهِ لا يَدَّخِرُ عَنْهُنَّ شَيْئاً، وَأَنَّ سُؤَالَهُنَّ لا يُجْدِيهِنَّ نَفْعاً، وَالأَوْلَى أَنْ يَقْنَعْنَ بالعيْشِ مَعَ زَوْجِهِنَّ الذي لاَ يَطْمَعُ في دُنْيا وَزُخْرفٍ، وَلَوْ أَرادَ مُلْكَ الأرْضِ لَكَانَ لَهُ .

لا مَفرَّ مِنَ الخِلافِ

وَكَأَنَّ الخِلافَ بَيْنَ الرَّجُلِ وَزَوْجِهِ لا بُدَّ مِنْهُ وَلا مَفرَّ، فَها هُوَ ذا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْفُو عَنْ خَطَأ زَوْجَاتِهِ، إلا أَنَّهُنَّ يُغْضِبْنَهُ في أُمُورٍ أُخْرى، فَيَرى الرَّسُولُ هَذِهِ المرَّةَ أَنْ يَأْخُذَهُنَّ بالحَزْمِ، ويُعَامِلَهُنَّ بالشِّدَّةِ، وَأَنْ يَهْجُرَهُنَّ شَهْراً، فَلا يَبِيتُ مَعَ وَاحِدةٍ مِنْهُنَّ .. لَعَلَّهُنَّ يَعُدْنَ إلى الصَّوابِ بَعْدَ عِقَابٍ كَهَذا وَإلاَّ فالفراقُ والطَّلاقُ !!

وَبَدَأَ الزَّوْجُ الغَاضِبُ هَجْرَهُ لَهُنَّ، وَحَزِنَ الصَّحَابَةُ عَلى حُزْنِ رَسُولِ اللهِ وَغَضَبِهِ، وَيَقُومُ عُمَرُ مِنْ فَوْرِهِ لِيَدْخُلَ عَلى ابْنَتِهِ حَفْصَةَ، فَيجدُها تبْكي، فَيَسْأَلُها بِحِدَّةٍ وَغضبٍ: لَعَلَّ رَسُولَ اللهِ قَدْ طَلَّقَكِ!؟ قَالَتْ: لا أَدْرِي .

هَدَّدَهَا وَخَرجَ مِنْ مَسْكَنِها، وَتَرَكَ وَرَاءَهُ ابْنَتَهُ التي اشْتَدَّ بُكَاؤُهَا لِهَجْرِ زَوْجِهَا لها، وَلِغَضَبِ أبيها عليها .. وَلكِنْ .. إلى أيْنَ ذَهَبَ أبُوها يا تُرى ؟ وَمَاذا يَنْوي أَنْ يَفعَلَهُ بَعْدَ ما رَأَتْهُ مِنْهُ الآنَ؟.

الغنىٰ غِنىٰ النَّفْسِ

إِنَّ عُمَرَ لَمْ يُطِقْ صَبْراً لِرُؤْيَةِ الرَّسُولِ مُعْتَزِلاً نِسَاءَهُ وَزَوْجَاتِهِ، فَذَهَبَ إِلَيهِ وَهُوَ يُدْرِكُ أَنَّ النبيَّ الكريمَ لا بُدَّ وقَدْ عَانى مِنْهُنَّ مَا عَانَاهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ ابْنَتَهُ حَفْصَةَ قَدْ كَانَ لَهَا أَكْبَرُ سَهْمٍ في إِغْضَابِ رَسُولِ اللهِ هَذِهِ المرَّة . وَوَصَلَ إلى حَيْثُ يَعْتَزِلُ الرَّسُولُ، وَأَذِنَ لَهُ النَّبِيُّ، فَوَجَدَهُ عُمَرُ مُضْطَجِعاً عَلَى حَصِيرٍ قَدْ أَثَّرَ في جَنْبِهِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلامُ، وَمُتَّكِئاً عَلَى وِسَادَةٍ خَشِنَةٍ حَشْوُها لِيفٌ، وَلا تَحْوِي خزَانَتُهُ مِنَ الطَّعامِ سِوَى قَبْضَةِ شعيرٍ وَبَعْضِ أَغْصَانِ الشَّجَرِ، وَلَمْ تَحْتَمِلْ نَفْسُ عُمَرَ، بَكَى لَمَا رَآهُ، فَسَأَلَهُ النَّبِيُّ: مَا يبْكِيكَ يا عُمر ؟ وَأَجَابَ عُمَرُ: وَمَا لِي لا أَبْكِي وَهَذَا الحصيرُ قَدْ أَثَّرَ في جَنْبِكَ، وَهِذِهِ خِزَانَتُكَ لا أرى فيها إلا ما أَرى، وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى في الثمار والأنهار، وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ ؟ فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ: أَلاَ يُرْضِيكَ يَا عُمَرُ أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدنيا، وَلَنا الآخِرةُ ؟ مَا أَجْمَلَهُ مِنْ جَوابٍ ! . وَمَا أَكْرَمَهُ مِنْ رَسُولٍ عَلا بِغِنَى نَفْسِهِ وَرِفْعَةِ خُلُقِهِ !!

الحَذَرُ مطلوبٌ

وَيَصْعُبُ عَلَى عُمَرَ أَنْ يَبْقَى رَسُولُ اللهِ حزيناً، وَيَتَذَكَّرُ مَا شَاعَ بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ طَلَّقَ زَوْجَاتِهِ، ها هُوذَا يُقْبِلُ على النَّبِيِّ، وَيَجْلِسُ إلى جَانِبِهِ لِيُخَفِّفَ عَنْهُ مَا بِنَفْسِهِ مِنْ كَرْبٍ وَيَمْحُوَ مَا أَصَابَهُ مِنْ ضِيقٍ، وَيَسْمَعُ الرَّسُولُ كَلَامَ عُمَرَ لَهُ: (يا رَسُولَ اللهِ، إِنْ كُنْتَ طَلَّقْتَهُنَّ فَإِنَّ اللهَ مَعَكَ وَمَلَائِكَتَهُ، وَأَنَا وأبو بكرٍ والمؤمنون مَعَكَ)، وَيَقُولُ النَّبِيُّ: لا .. فَتَمْتَلِئُ نَفْسُ عُمَرَ بالبِشْرِ، وَيَخْرُجُ لِيَزُفَّ إلى المُسْلِمِينَ مَا سَمِعَ بَعْدَ إِذْنٍ مِنَ الرَّسُولِ بذلك، فَتَبْتَهِجُ القُلُوبُ وَيَعُمُّ الفَرَحُ والبِشْرُ نُفوسَ الجميع ..

وَأَمَّا عَنْ زَوْجَاتِ الرَّسُول، فَقَدْ أُثْلِجَتْ صُدُورُهُنَّ، وَفَرِحْنَ أَشَدَّ ما يكونُ الفَرَحُ وَاطْمَأَنَّتْ نُفُوسُهُنَّ عِنْدَمَا عَادَ الرَّسُولُ إِليهنَّ وَهُنَّ مُسْلِمات مُؤْمِنات تَائِبَات نَادِمَات عَلَى مَا فرط منهنَّ في حَقِّ الزَّوْجِ الحبيبِ، وَكَانَتْ حَفْصَةُ أَشَدَّهُنَّ حَذَراً بَعْدَ يَوْمِها ذاك، وَأَكْثَرَهُنَّ ندماً على خطَئِها، وَباتَتْ تَخَافُ مِنْ زَلَّةٍ أُخْرَى تُؤْذِيها في عيشَتِها .

لا تنافُسَ إلا في خَيْرٍ

وَهكَذا بقيتْ حفْصَةُ بقيَّة أيَّامِها مَعَ رَسُولِ اللهِ بعيدةً عَنْ إغْضَابِهِ وَإزْعَاجِهِ، وَعَاشَتْ مَعَهُ بِما رَسَمَ اللهُ وَرَسُولُه لها، تَبْتَغي مَرْضَاةَ اللهِ وَمَرْضَاةَ زَوْجِها، وَلَمْ تَعُدْ إلى ما كَانَ قَبْلَ اعْتِزالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِنسَائِهِ وَزَوْجَاتِهِ .

وَانْتَقَلَ النَّبيُّ إلى جِوارِ رَبِّهِ وهُوَ عَنْهَا رَاضٍ، وَكَانَتْ مِنْ بَعْدِهِ أُمّاً للمؤمنين، لا يَعْرِفُونَ عَنْهَا إلا التُّقى وَالْوَرَعَ، صَوَّامةً قوَّامةً، يَنقُلُونَ عَنْهَا مَا تَرْوِيه مِن أَحَادِيثِ زَوْجِها عليه الصلاة والسلام، واشْتَرَكَتْ في هذا الجانِبِ مَعَ عَائِشَةَ، تُبَيِّنُ تَعاليمَ الإسْلاَم وإرشاداتِ النَّبيِّ العظيم .

وَلقَدْ شَهِدَ لَها الخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ الأَرْبَعَةُ أَنَّها مِنْ أكْرَمِ النِّساءِ اللَّواتي أَدَّيْنَ لِلإسْلامِ وَلِلْمُسْلِمينَ خَدَماتٍ جَليلةً، مِمَّا زَادَ مِنْ مَكانَتِها في نُفُوسِ المُسْلِمين، وَكَفَاهَا فَخراً أَنَّها زَوْجَةٌ مِنْ زَوْجَاتِ الرَّسُول ﷺ، وَابْنَةٌ لعمر بن الخَطَّاب، وَأُمٌّ للمؤمنين ، رضي الله عنها، وجَزَاهَا عنا الخيرَ كُلَّهُ .

العَمَلُ الصَّالِحُ خالِدٌ

وَحَفْصَةُ يا أحبَّائي كَانَتْ إلى جَانِبِ تُقَاهَا وعِبادتِها، تَعْرِفُ القِراءَةَ والكتابةَ دُونَ نِساءِ النبيِّ، وَقدْ امْتَازَتْ بِذَلِكَ، وَرشَّحَها لأنْ تَحْفَظَ نُسْخَةَ القرآنِ المكتوبِ عِنْدَها بَعْدَ وَفاةِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، وَبَقي عِنْدَهَا حَتَّى أشَار بَعْضُ الصَّحَابَةِ عَلَى عُثْمَانَ ابْنِ عَفَّانَ خَليفةِ المُسْلِمين بكتابَةِ عِدَّةِ نُسَخٍ مِنَ القُرآنِ تُوَزَّعُ على وِلاياتِ المُسْلِمين، فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إلى حَفْصَةَ أنْ أرسلي إلينا صُحُفَ القُرآن نَنْسَخْها في مَصَاحِفَ، ثُمَّ نَرُدُّهَا إليكِ، فَأَرْسَلَتْ حَفْصَةُ صُحُفَ القُرآنِ إلى عُثْمَانَ، فَأَمَرَ بِنَسْخِها، وَوَزَّعَ النُّسَخَ إلى الوِلاياتِ والأَمْصَارِ، ثُمَّ رَدَّ الأَصْلَ إلى حَفْصَةَ، فَظَلَّ عِنْدَهَا حَتَّى آخِرِ أَيَّامِهَا.

لَقَدْ كَانَ لَهَا الذِّكْرُ العظيمُ في تَارِيخ بَقَاءِ القُرآنِ، وَلَقَدْ أَعَدَّ اللهُ لَهَا أجْراً عظيماً، وَكَتَبَ لها حَظَّاً في نعمةِ حِفْظِ كِتابِ اللهِ وَعَدَمِ ضَيَاعِهِ، فَحَفِظَتْهُ لِتَبْقَى حَيَّةً في نُفُوسِ قُرَّاءِ القُرآنِ الكريم حَتَّى يَوْمِ القِيامة.

لا بقاءَ على الخطأ

وَلَعَلَّكُم يا أحبَّـائي تَسْأَلُونني عَـنْ مَوْقِفِ حَفْصَةَ مِـنْ عَائِشَةَ بَعْدَ أَنْ أقْـدَمَتِ الأَخيرَةُ على الاشْتِرَاكِ في أُمُـورِ السِّياسَـةِ وَالحُكْمِ بَعْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ رضي اللهُ عنه، وَإِلَيْكُمُ الجوَّاب:

لقَـدْ بقِيَتْ حَفْصَـةُ عَلَى مَودَّتِها لِعَـائِشَةَ وَأزْوَاجِ النَّبِـيِّ تَذْهَـبُ مَعَهُـنَّ إلى مكَّةَ لِحَجِّ بَيْـتِ اللهِ وَتُصَاحِبُهُـنَّ في بَعضِ أُمُورِهِـنَّ، وَعِنْدَمَا طَلَبَتْ مِنها عَائِشَةُ الخُروجَ مَعَهَا أيَّامَ المُطالَبَةِ بدَمِ عُثْمانَ، وَافقَتْ أَوَّلَ الأمْرِ، وَأَخَذَتْ تُجَهِّزُ نفْسَهَـا لمُصاحَبَتِها، لَوْلاَ أَنْ جَاءَ أخُوها (عَبْدُ اللهِ بْـنُ عُمر) فَأفْهَمها الصَّوابَ بِرِفْـقٍ، فَأَرْسَلَتْ إلى عائِشَـةَ تَعْتَذِرُ عَـنْ الخُروجِ نَظَراً لاقْتِنـاعِها بَـرأْيِ أخِيها عَبدِاللهِ الذي بَيَّنَ لها خَطَـأَ عَمَلِ عَـائِشَةَ، وَعَـدَمَ وجودِ مُبَرِّرٍ صَحيحٍ لِما قَامَتْ بِهِ .

وَلَقَدِ اعْتَرَفَـتْ عَائِشَةُ بِهذا لمَّا عادَتْ نـادِمَةً تائِبَةً، وانْتَهَـتْ عَنِ القِيـامِ بأعْمالٍ والخَوْضِ في أمـورٍ كـانَ لِعليٍّ الحقُّ فيهـا أكْثَرَ مِـنْ غيرِه. وَنَحْنُ أيْضاً يا أحبَّتي، لا عَيْبَ إنْ تَرَاجَعْنا عَنْ خطأ أتَيْناهُ، والعاقِلُ هُوَ الذي لا يَبْقَى على خَطَئِهِ إذَا اسْتَبَانَ لَهُ الخَطَأُ .

وموتُ المؤمنِ حقٌّ

وَتَنْتَهي خلافَةُ عليٍّ، وَتُوشِكُ حَفْصَةُ أُمُّ المؤمنينَ أنْ تُفارِقَ هذِهِ الحياةَ، فَقَدْ بَدَتْ لَها دلائِلُ الموتِ وَلاحَتْ، فَأَوْصَتْ لأخيها عَبْدِ اللهِ بِكُلِّ ما تركَهُ لَهَا أبُوهَا في عهْدَتِها، وَعَهدَتْ إليه بمالٍ يَتَصَدَّقُ بِهِ .

وَمَاتَتْ حَفْصَةُ بالمَدينة زَمَنَ مُعَاوِيَةَ، وَدُفِنَتْ بالبقيع، وَعُمرُها إذْ ذاكَ ستُّون سَنَةً .. رحمها اللهُ، وَرَضِيَ عنْهَا، وَغَفَرَ لهَا وَلَنا، وَرَحِمَ زَوْجَها الأوَّلَ الصحابيَّ المجاهِدَ والمهاجِرَ (خُنَيْساً)، وَصَلَّى وَسَلَّمَ وبارَكَ عَلَى زَوْجِها الثاني سَيِّدِ المرسَلِينَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ . لَقَدْ كانَتْ مِنْ خِيرةِ فَتَياتِ وَشَابَّاتِ المدينة المُنَوَّرةِ، وَعَاشَتْ زَوْجَةً كريمةً لأكْرَمِ رجُلٍ وَأَكْرَمِ نبيٍّ، ومَاتَتْ أُمَّاً كريمةً لنا وللمؤْمنين أجمعين .

اللَّهُمَّ جَمِّلْنا بأَجْمَلِ صِفاتها في العِلْمِ والتُّقى والصَّلاحِ، واجْعَلنا مِن المؤمنينَ الصالحينَ نَبْتَغِي مَرْضَاتِكَ وَمَرْضَاةِ رَسُولِكَ العظيم يا رَبَّ العالمين.

أَحَبُّ الأعْمالِ أَدْوَمُها

أُوَدِّعكم الآنَ يا أعزَّائي .

وَسَأَلْتَقي بكُمْ في العَـدَدِ القَادِمِ مـع اثنتين مِن زَوْجاتِ الـرَّسولِ الكريماتِ أُوْلاهما كانـت تُكَنَّى بأمِّ المساكين .

وثانيتهما كـانت بنتـاً لرجـلٍ مِن أجْـوَدِ كُرمـاء العرب، اشتَهرَ بينَ النَّاس بِاسْمِ (زَادِ الرَّكْبِ) ..

سنَعرِف عَـنْ كُلِّ هـذا ما يُـرضِينا ويُسْعِـدنا، وإِذا مـا تابعنـا قِـراءَةَ سِلسِلةِ أمَّهـات المؤمنين، فـإننـا سَنَمْلِـكُ كَنْـزاً كبيراً مِــنْ كُنـوزِ تـاريخنـا العظيم..

أسـأَلُ اللهَ أنْ يجْعَلنـي وإِيَّاكُـمْ ممَّـنْ يَسْتَمِعـونَ القولَ فَيَتَّبِعونَ أحْسَنَـهُ، والحمْدُ للهِ ربِّ العالمين، والسَّلامُ عليكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَركاته .

أمّ المساكين رضي الله عنها

وَبنتُ زَادِ الرّكْب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ



دَارُ الهُدَىٰ لِلنَّشْرِ وَالتَّوزِيع

الرياض: طريق صلاح الدين الأيوبي - حي الملز - بالقرب من إدارة مكافحة المخدرات
هاتف: ٤٧٧٧٥٤٤ - ٤٧٩٤٥١٧ - ناسوخ: ٤٧٧٦١٣٩ - ص.ب: ٢٥٥٩٠ - الرياض ١١٤٧٦

أم المساكين
طُوبى لزوجة الشهيد

صَحابيٌ جليلٌ اسْمُهُ (عُبَيْـدَةُ بْنُ الحارِثِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ) مِنْ أَوْلادِ أَعْمامِ الرَّسُولِ الكريم، كَانَ من المجاهِدين الأَبطالِ، تَرَبَّى على الشَّجَاعَةِ والإِقْدام، وهَاجَرَ مَعَ المُؤْمِنِين مِنْ مكَّةَ إلى المدينة، وَسارَ مَعَ الرَّسُول إلى بَـدْرٍ لِقتال المُشْرِكين، فَأَكْرَمَهُ اللهُ بالشَّهادَةِ في سَبيلِهِ بَعْدَ أَنْ أَبْدى مِنْ صَفحَاتِ البُطولَةِ ما يَرْفَعُ شَأْنَهُ وَيُعلي مَكَـانَتَـهُ، وَكَانَ وَاحِـداً مِـن سَبْعَةَ عَشَرَ شَهيـداً خَلَّفَتْهُمُ الغَـزْوَةُ المبارَكَـةُ، وَتَركَ عُبَيْـدَةُ بَعْدَ اسْتِشْهَـادِهِ زَوْجَتَهُ (زَيْنَبَ بِنْـتَ خُزَيْمَةَ) التي عُـرِفَتْ بِأُمِّ المَسَاكِينِ لِشِـدَّةِ حُبِّها لأَعْمالِ البرِّ وَالإِحْسانِ .

بكَتْ زَيْنَبُ زَوْجَهـا الشَّهيدَ، وَحَزِنَتْ لِفِرَاقِـهِ، وَسَأَلَتْ رَبَّها أَنْ يَبْعَثَها مَعَهُ يَوْمَ القيامة فَهُوَ نعم الزَّوْجُ، وَجاءَهَا الجوابُ مِنَ السَّماءِ بِأَنَّ اللهَ قَدْ خَبَّأَ لَكِ زَوْجاً خَيْراً مِنْهُ، فكَما نَعِمْتِ بزواجِكِ مِـن الشَّهيـد البطَـلِ، فَـإِنَّكِ سَتَنْعمين بـزواجِـكِ مِـنْ مُـرَبِّي الشُّهداء وَبَطَلِ الأَبطالَ ، فَهنيئاً لك يا زَيْنَبُ .

ما أكرمَ هذهِ النفس !!

لَقَدْ أَكْرَمَهَا اللهُ بزوجٍ مِنْ خَيرِ الأزواجِ، إِنَّهُ رسولُ اللهِ ﷺ الذي تزوَّجَهَا، وَأَعزَّ فيها زَوْجَةَ شهيدٍ قريبٍ مِنْ بني هاشمٍ، وَأَدْخَلَهَا مَسَاكِنَهُ ليفيضَ قَلْبُهَا بالحنانِ والرحْمةِ، ولتسْتمِرَّ هُناكَ في أَعْمالِ البرِّ والخَيرِ والحبِّ، وإِنَّها لنعْمَ الزَّوْجَةُ عِنْدَ أَكْرمِ الأَبطَالِ والرِّجَالِ، ولَقَدْ حمَلَتْ في دُخُولها رِسَالَةَ المحبَّةِ وَالرَّأْفَةِ وَالعَطْفِ والرِّقَّةِ، وَعَاشَتْ مَعَ عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ وَسَوْدَةَ، فلَمْ يَثْقُلْ عليهنَّ دُخُولُها، وَلَمْ يَسْتَشْعِرْنَ مِنْ مقامِها بينهُنَّ ضِيقاً، لكنها لم تكُنْ لتمكُثَ أَكْثَرَ مِنْ فَتْرَةٍ محدودةٍ لا تزيدُ عَنْ شُهورٍ قليلةٍ فإنَّها ما زَالَتْ تحِنُّ إلى جِوارِ زَوْجِها الشَّهيدِ .

وَكَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحبَّ أنْ يُواسيَها ويهوِّنَ عليها الفراقَ، فأَكْرمَها بما أَكْرمَهَا بِهِ، ثُم اسْتَرَدَّ أَمانتَهُ، فماتَتْ وَخلَّفتْ ضَرائِرَها، وَلَيْسَ في نُفُوسِهِنَّ لها غَيرُ ذِكْرى طَيِّبَةٍ حَسَنَةٍ، وَتَرَكَتْ حجرتَها مُهيَّأَةً لعروسٍ جديدةٍ تحلُّ محلَّهَا .

إِنَّهُ لَشَبَهُ كَرِيمٌ

تَرَكَتْ زينبُ غُرْفَتَها لأُمِّ سَلَمَةَ الوافدةِ الجديدةِ واسْمُها (هندُ بِنْتُ أبي أميَّة) . وَأُمُّ سَلَمَةَ يا أَحِبَّتي تُشْبِهُ الزّوْجاتِ الثّلاث (سَوْدَةَ، وَحفْصَةَ وَزَيْنَبَ بِنْتَ خُزَيْمَةَ) في أَنَّها مِثْلُهُنَّ قَدْ تُوفِّي عَنها زَوْجُهَا قَبْلَ زَوَاجِهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ، وَتُشْبِهُ سابِقَتها زَيْنَب في أنَّ زَوْجَها الشَّهِيْدَ قَريبٌ لِرَسُولِ اللهِ، فَكَما أَنَّ زَوجَ زَيْنَبَ الأَوّلَ هُوَ ابْنُ أَعْمام الرَّسُول، كَذَلِكَ زَوْجُ أُمِّ سَلمَةَ قَبْلَ رَسُولِ اللهِ كَانَ ابْنَ عَمَّةِ النَّبيِّ الكريمِ، وَأَخاً لَهُ في الرَّضَاعَةِ أَيْضاً .

وَتَمْتَازُ أُمُّ سَلَمَةَ عَنْ ضَرائِرِها بأَنَّها ابْنَةُ رجُلٍ مِنْ أَجْوادِ العَرَبِ الذين اشْتَهَرُوا بالكرمِ والجودِ، وَزَادَ على ذلك أَنَّهُ كَانَ إِذَا خَرَجَ في سَفَرٍ أَوْ صَحِبَ رَكْباً لَمْ يَدَعْ أَحَداً يَحْمِل طَعاماً أَوْ يَتَزَوَّدُ بزادٍ، بَلْ يُطْعِمُ الرَّكْبَ مِنْ طَعامِهِ، ويكفيهم مَؤُونَةَ الزَّادِ، فَسَمّاهُ الجميعُ (زَادَ الرَّكْبِ)، وَاشْتُهِرت ابنَتُهُ (بابْنَةِ زادِ الرَّكْبِ)..

فتعالَوْا نتعَرَّف عَلَى قِصَّةِ زاوَجها وَحيَاتِها مع الرسُول الكريم ﷺ .

في سِجِلِّ الخالدين

كَانَ عَبْـدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الأَسَـدِ زَوْجاً لَهَا، آمَـنَ مَعَهَا في بَدْءِ الدَّعوةِ الإِسلاميةِ، وَسجَّلَهُما التَّاريخُ مِنْ أَوَائِلِ الملبِّين المؤمنين على يَدِ أبي بَكْرٍ الصِّدّيـقِ، وَكَتَبهُمَا على صفحاتِهِ مِنَ المُسلمين الأوائِلِ الذينَ بارَكَتْهُمُ الحَبَشَةُ مهاجـرين إليها فراراً ممَّا قاسُوهُ مِن اضْطِهَادِ قُرَيْشٍ، وَأذى المُشْركين، وَهُنَاكَ في أَرْضِ الصِّدْقِ وَلَدَتْ هِنْدٌ لِـزَوْجِها ابْنَهُمَا (سَلَمَةَ)، وَمِنْ ذَلـك الحين عُرِفَتْ بأمِّ سَلَمَةَ، وَعُرِفَ عَبْدُ اللهِ بأبي سَلمَـةَ، وَلَقَدْ عَادَ الزَّوْجَان مع ابْنِهِما إلى مكَّةَ بَعْدَ فَتْرَةٍ ليكونا إلى جَانِبِ رَسُولِ اللهِ مِنْ جَديد في سَبيـلِ نَشْرِ الرِّسَـالَةِ، ولتهيئـةِ المجتمـعِ الجديدِ المنتظَرِ في المدينـة، وإِنَّهُما لَنِعْـمَ المجاهدانِ الصَّـابِـران المهـاجِـران إلى يثرب..وَقِصَّةُ هجـرة هِنْدٍ إلى المدينة، تَسْتَحِقُّ الوقـوف عندها ولو قليلاً، لنرى مـا قَاسَتْهُ أُمُّ سلمَةَ بَطَلَةُ الهِجرتَيْنِ، فَلْنُتَـابعْ يا أَحبَّتي قصَّةَ هَذِهِ البطلةِ الكريمةِ سائِلينَ اللهَ أَنْ يُكْرِمَنا بِأَرْوَعِ معاني البطولةِ والفِداءِ .

آيةٌ في الجهادِ

خَرجَتْ مِنْ مَكَّةَ بِصُحْبَةِ زَوْجِها وَمَعَهُمَا وَلَدُهُما (سَلَمَةُ)، وسرعَانَ ما لحق أَهْلُها وعشيرتُها بالـزَّوْجَيْنِ يقُولون لأبي سَلمَةَ: (أَتْرُكُ صَاحبتنا هَذِهِ في البلاد، أَنْتَ حُرٌّ في نَفْسِكَ، أَمَّا قريبتنا فمِنْ حَقِّنَا أَنْ نحميَها مِنْك، وَمِنْ وَاجِبنَا أَنْ نَمْنَعَها مِنَ الهِجرةِ مَعَكَ، ويكفيها هِجرتُها مِنْ قَبْلُ إلى الحبشَةِ)، ثُمَّ أَخَذُوهَا مِنْهُ وَعَادتْ بِولَدِها، فغَضِبَ أَهْلُ زَوْجِها لمَّا عَلِمُوا الخَبَرَ، وَجَاؤُوا يُطَالِبون بالصَّغير قَائِلين: (لا وَاللهِ لَنْ نَتْرُكَ ابْنَنا عِنْدَها إذْ نَزَعْتُمُوهَا مِنْ صَاحِبِنا)، وَتجاذَبَ الطَّرَفَانِ الطِّفْلَ الصَّغيرَ بَيْنَهُمْ حَتَّى خَلَعُوا يَدَهُ، وانْطَلَقَ بِهِ أَهْلُ أبي سَلمَةَ، وبقي كُلٌّ مِنَ الأبِ والأُمِّ والصَّغيرِ في مَكَانٍ بعيداً عن الآخَرِيْن، وَقَاسَتِ الأُمُّ مِنْ بُعْدِ زَوْجِها وَوَلَدِهَا مدَّةَ سَنَةٍ، حَتَّى هَيَّأَ اللهُ لهَا قلوباً رحيمةً أَصْلحَتِ الأَمْرَ، فَحملتْ وَلَدَهـا إلى المدينـة، وَالْتَـأمَ الشَّمْلُ، وَعَاشَتْ بالقرب مِنْ زَوْجِها، وَكَانَتْ أَوّلَ الزَّوْجَاتِ المهاجِراتِ وَأَنْجبتْ لزَوْجِها أَوْلادَهُما (عُمَرَ، وَدُرَّةَ، وزَيْنبَ)، وَوَاصلَتْ مَعَهُ جِهادَهُما في سبيلِ الحقِّ والخيرِ.

وللصَّابِرِين أَجْرُهُمْ

وشهد أبو سَلَمَةَ مَعَ الرَّسول مَوْقِعَةَ بَدْرٍ، ثُمَّ مَوْقِعَةَ أُحُدٍ حَيْثُ جُرِحَ فيها جُرْحاً بليغاً، اِلْتَأَمَ سَطْحُهُ، فَعَادَ أَبُو سلمة إلى الجهادِ، وَحَارَبَ بني أَسَدٍ وَعَادَ مُنْتَصِراً ظَافِراً، إلا أَنَّ جُرْحَ غَزْوَةِ أُحُدٍ آلَمَهُ مِنْ جديدٍ، وَأَلْزَمَهُ الفراشَ، حتَّى نَزَلَ بِهِ قَضَاءُ اللهِ، فَلَفَظَ أَنْفَاسَهُ والنبيُّ إلى جَانِبِهِ يَدْعُو لَهُ بخيْرٍ، فَأَسْبَلَ الرَّسُولُ عيني الفقيدِ، وَبَكَاهُ مَعَ المُسْلِمِينَ، وَبَكَتْهُ أُمُّ سلمَةَ وَجَزِعَتْ عَلَيْهِ أَشَدَّ الجَزَعِ لِوفاتِهِ، وَتَعَزَّتْ بِدُعَاءِ الرَّسُولِ الذي تَعَلَّمَتْهُ مِنْ زَوْجِها: (إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون، اللَّهُمَّ اجْرْني في مُصيبتي، وَأَعْقِبْني خَيْراً مِنْها).

وَدَعَا لها المُسْلِمُون وَرَسُولُهُمْ بخيرٍ، وَسَأَلُوا اللهَ لَهَا جَبْرَ مُصيبتها، وَانْصَرَفَتْ أُمُّ سَلَمَةَ إلى أَوْلادِها تُرَبِّيهِمْ وَتَرْعَاهُمْ، وَانْفَتَحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَنَزَلَتِ الرَّحْمَةُ مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَقَدْ آنَ الأَوَانُ لأَنْ تُكَافَأَ أُمُّ سَلَمَةَ عَلَى صَبْرِها وجهادِها وَحُسْنِ إيمانها، وَحَانَ الوَقْتُ لأَنْ تَنَال البطلَةُ ثَوابها في الدُّنيا بَعْدَما أَصَابها مِنَ البلاءِ والفِراقِ.

يا لغيرةِ ابْنَةِ الصِّدِّيق

هـا هُوَ ذَا رَسُولُ اللهِ يُـرْسِلُ إليها مَـنْ يَخطبها لَهُ، وهـي الأَرْمَلَةُ، وَالبَطَلَةُ المجاهِدَةُ، ذَاتُ المجدِ العظيم، والتي مَنَحَها اللهُ قُـوَّةَ الشَّخْصِيَّـةِ، وَأَنْعَـمَ عَلَيْها بِجانِـبٍ وَفِيرٍ مِـنَ الجمالِ والذَّكاءِ، وَتقْبَـلُ أُمُّ سَلَمةَ برسُولِ اللهِ زَوْجاً، وَتَعْلَـمُ الزَّوْجَاتُ الأُخْريـاتُ (سَوْدَةُ وَعائشـةُ وَحَفْصَةُ) بـزواجِها، وَيرَيْـنَ فيها جمالاً وعِزَّةً وَشَرَفاً وَشخصيةً أَخَّاذَةً، ويا للطَّـرافة!! لَقَدْ قَابَلَتْ أُولاهُنَّ الأَمْرَ كعادتها بالرِّضا والتسليـم، أما عائشَةُ فسرعانَ ما شكَتْ إلى حَفْصَةَ مـا شَعَرَتْ بِهِ، فَهوَّنَتْ عليْهـا حَفْصَةُ خَطَرَ جَمالِ أُمِّ سَلَمَةَ .. لكن عَـائِشَةَ لَمَسَتْ أَنَّ العروسَ الجديـدةَ قَدْ نَزَلَـتْ مِنْ نَفْسِ رَسُـولِ اللهِ منزلاً طيِّبـاً، وحظِيَتْ لديـهِ بحظٍّ وافِرٍ، وَشغَلتْ مِنْ قَلْبِهِ مَكَاناً رفيعاً .

وَزادَ أَمْـرَ الغيرةِ أنَّ اللهَ قَدْ أَنْـزَلَ الوَحْـيَ عَلَى رَسُـولِهِ وَهُـوَ عندَها فِي مَسْكَنِها، فَجَعَلتْ أُمُّ سَلَمَةَ تَفْخَرُ بذلك، وَتُحِسُّ أَنَّها شَارَكَـتْ عَائِشَـةَ في هذا الأمـر ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ بنـتُ أبي بكرٍ تَفْخَرُ على سائِرِ ضرائِرِهَا وَتَتَشَرَّفُ بنزول الوَحْيِ في مَسْكَنِها .

ويا لجرأةِ أمِّ سَلَمَة

وَقَدْ رَأَتِ الضَّرائِرُ في أُمِّ سَلَمَةَ ما أَعْجَبَهُنَّ مِنْ دِفاعٍ قويٍّ عَنْهُنَّ أَمامَ مَنْ أَرادَ التَّدَخّلَ في شُؤُونِهِنَّ، فها هي ذي هِنْدٌ بجرأتها أَمامَ عمرَ الفاروقِ والِدِ حَفْصَةَ، وأبي بكرٍ الصدِّيق والِدِ عائِشَةَ عندما أَرادَ نُصْحَها بالتَّخْفيفِ عَنْ رَسُولِ اللهِ في أُمُورِ النَّفَقَةِ، لَقَدْ قالَتْ لَهُما: ما لكُما ولما ها هُنا، رَسُولُ اللهِ أَعْلى بأمْرِنا عَيْناً، وَلَوْ أَرادَ أَنْ يَنْهانا لَنهانا، فَمَنْ نَسْأَلُ إِنْ لَمْ نَسْأَل رَسُولَ اللهِ؟ فتَركاها وانْصَرَفا .

وَحَمِدتْ لها الزَّوْجاتُ الأُخْرياتُ مَوْقِفَها، وَقُلْنَ لَها: جَزاكِ اللهُ خيراً حِينَ فعَلْتِ، ما قَدِرْنا أنْ نَرُدَّ عَلَيْهِما شَيْئاً .

حقّاً إنَّ لَها مِنْ قُوَّةِ الشَّخْصِيَّةِ ما لَمْ نَرَهُ عِنْدَ غيرِها مِنْ ضَرائِرِها، وَإِنَّ ما فَعَلَتْهُ ليَدُلُّ على مكانتِها، وَقُدْرَتِها عَلى أَنْ تَقِفَ مِثْلَ هذا الموقف، وَلَوْ مَعَ أَمْثالِ عُمرَ الشهيرِ بالحزْمِ والشِّدَّةِ في نَصائِحِهِ، وَقَدْ رَأَيْتُمْ مَنْ هُوَ عُمَرُ مِنْ قَبْلُ مَعَ ابْنَتِهِ حَفْصَةَ إِحدى ضَرائِرِ أُمِّ سَلَمَةَ .

الصُّلْحُ خَيْرٌ

وَلَعَلَّ أَجْمَلَ قصصِ حياتِها تلكَ القِصَّةُ التي جرَتْ حوادثُها أَيَّامَ صُلْحِ الحديْبِيةِ، وَتَعْلَمُونَ يا أَحِبَّائِي أَنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ كانَ يَصْحَبُ إِحْدى زَوْجَاتِهِ إِذا مَا خرَجَ بَعيداً في سَفَرٍ أَوْ غَزْوَةٍ، وَقَدْ صَحِبَ أُمَّ سَلَمَةَ حين خَرَجَ بالمُسلمين من المدينةِ إلى مكَّةَ بُغْيَةَ الحجِّ لبيتِ اللهِ، وَذلِكَ بَعْدَ الهجرة بِستِّ سنين، وَلَمَّا وَصَلُوا إلى مَكانٍ قُرْبَ مَكَّةَ اسْمُهُ الحُديْبِيةِ، تَمَّ عَقْدُ مُعاهَدةٍ بيْنَ المسلمين والمشركين، تَعَهَّدَ فيها الرَّسُولُ محمدٌ لقريشٍ أنْ يَعُودَ مَعَ أَتْباعِهِ مِنْ حَيْثُ أَتَوْا، عَلَى أَنْ يَحُجُّوا إلى بَيْت اللهِ في العامِ القادمِ.

وَلَمْ يُدْرِكْ أَكْثَرُ الصَّحابةِ آنذاكَ الحكمةَ مِنْ هَذا الصُّلْحِ وَعَلى هَذِهِ الكَيْفِيَّة، وَلَمْ يَرْضُوا عَنْ هَذَا العَهْدِ، وَبقُوا واجِمين لا يَدْرُونَ مَا يَفْعَلُون، وفي هَذِهِ الأَثْنَاءِ دَعاهُمُ الرَّسُولُ إلى نَحْرِ الإِبلِ وَحَلْقِ الرُّؤُوسِ كما يَفْعَلُ الحاجُّ والمعتمرُ إلى بَيْتِ اللهِ الحرامِ، فَلَمْ يجدِ النبيُّ ﷺ منهم تَلْبيةً لِدَعْوَتِهِ!!؟.

لا تَلُمْهُمْ يا رسُولَ اللهِ

وَكرَّرَ النبيُّ ﷺ دَعْوتَه لَهُمْ، وَصَعُبَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَباطَأَ صَحابَتُهُ في تلبيةِ الدَّعْوَةِ، وَهُنا يَبْرُزُ ذَكاءُ أُمِّ سَلَمَةَ رضي اللهُ عَنْها، وَيَظْهَرُ جَميلُ تَصَرُّفِها وَيَبْدو حُسْنُ سياسَتِها، وإِليكم صورةَ ذلك يا أحبَّتي:

إِنَّها شعَرَتْ بما أَصابَ زَوْجَها من ضِيقٍ وكَدَرٍ، ففكَّرَتْ في أَمْرٍ تَصْرِفُ بِهِ زَوْجَهَا عَنْ هَذَا الضِّيق، وَتَجْعَلُ المُسلمين يَعودون إلى رَشَادِهِمْ، وَتُذْهِبُ ما كَانَ يَجُولُ في خَاطِرِهِمْ مِنَ الغَمِّ والهَمِّ، وَتُريهمُ الحقَّ إلى جَانِبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ..

هَا هُوذَا الرَّسُولُ يَدْخُلُ عَلَيْها وَعلى وَجْهِهِ آثارُ االغَضَبِ، وَيُخْبِرُها بما كانَ، وهي قَدْ أَدْرَكَتْ مِنْ رُؤْيةِ الغَضَبِ عَلَيهِ، أَنَّ تَدارُكَ الأَمْرِ ضروريٌّ خَشْيَةَ وقوعِ فِتْنَةٍ وَفِرْقَةٍ وَتَنَازُعٍ خطِرٍ، لِذلكَ قَامَتْ تُهَوِّنُ عَلَى زَوْجِها وَتُخَفِّفُ عَنْهُ قَائِلةً: يا رَسُولَ اللهِ، لا تَلُمْهُمْ، فَإِنَّهمْ قَدْ دَخَلهُمْ أَمْرٌ عظيمٌ، ممّا أَدْخَلْتَ عَلى نَفْسِكَ مِنْ المَشَقَّةِ في أَمْرِ الصُّلْح، وَقَدْ صَعُبَ عليهم أَمْرُ الرُّجوعِ دُونَ زِيَارَةِ البيتِ الحرامِ هَذَا العام.

مَشُورَةٌ في مكانِها

وَبَعْدَ ذلِكَ أَشَارَتْ أُمُّ سَلَمَةَ عَلَى زَوْجِهَا بعملٍ جليلٍ كان مفْتَاحَ الحَلِّ، والخروجِ مِنَ المأْزِقِ بِسَلامٍ ..

لَقَدْ طَلَبَتْ مِنْهُ أَنْ يَخْرُجَ، وَيَقِفَ عَلَى مَرْأًى مِنَ الصَّحَابَةِ والمسلمين، وَيقُومَ أمامَهُمْ بنَحْرِ هَدْيِهِ (مَا خَصَّصَهُ للذَّبْحِ والتَّقَرُّبِ إلى اللهِ)، وَحَلْقِ رَأْسِهِ، دُونَ أنْ يُكَلِّمَ أَحَداً مِنْ صَحَابَتِهِ . وَأَدْرَكَ النبيُّ الكريمُ صَوابَ رَأْيِها، فَخَرَجَ مِنْ فَوْرِهِ لِيَفْعَلَ مَا أَشَارَتْ بِهِ أُمُّ سَلَمَةَ، فَوَقَفَ في مَكَانٍ يَراهُ فيه الجميعُ، وَنَحَرَ هَدْيَهُ، رَافِعاً صَوْتَهُ: (باسْمِ اللهِ، واللهُ أَكْبَرُ)، ثُمَّ حَلَقَ رَأْسَهُ .

وَلَقَدْ رَآهُ الجميعُ، فَشَعَرُوا بتَقْصِيرِهِمْ، وَنَدِمُوا عَلَى تَبَاطُئِهِمْ، فَقَامُوا إلى هَدْيِهِمْ يَنْحَرُونَهَا، وَسَارَعُوا يَحْلِقُ بَعْضُهُمْ لبعْضٍ حَتَّى نَفَّذُوا ما أمَرَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ على أكْملِ وَجْهٍ وَأَحْسَنِهِ، وهكذا أَنْقَذَتْ مَشُورةُ أُمِّ سَلَمَةَ المُسْلمينَ مِنْ عِصْيَانٍ كَادَ أَنْ يَجْلِبَ السُّوءَ والفِتْنَةَ إلى الصُّفُوفِ .

الإسلامُ يَجُبُّ ما قَبْلَهُ

وَمَرَّةً أُخرى، بَدَا صَوابُ رَأيِها عِنْدَما سَعَتْ في الوَساطةِ بَيْنَ الرسولِ ﷺ وَبَيْنَ بعضِ أقربائِهِ مِن المشركين حين خرجَ الرَّسُولُ العظيم لِفَتْحِ مَكَّةَ، فَقَدْ حَدَثَ أَنْ جاءَ أَبُو سُفْيانَ بْنُ الحارثِ ابْنُ عمِّ النبيِّ، وعَبْدُ اللهِ بنُ أَبي أميَّةَ ابنُ عمَّةِ الرَّسُولِ وَشقيقُ هِندٍ أُمِّ سَلَمَةَ، جاءَا يَعْرِضانِ إِسْلامَهُمَا، فَاسْتَأْذَنَا على الرَّسُولِ للدُّخولِ عَلَيْهِ فَلَمْ يَأْذَنْ لَهُمَا، فَقَدْ لاقى مِنْهُمَا قَبْلَ هِجرتِهِ مِنْ مَكَّةَ ما لا يُحِبُّهُ، وَهُنَا حَاوَلَتْ أُمُّ سَلَمَةَ أَنْ تُعَطِّفَ قَلْبَ زَوجِها عَلَى ذَويه وذَويها، فَرَقَّ قَلْبُ الرَّسُولِ الكريمِ، وَأَذِنَ لَهُمَا، فَدَخَلا عَلَيْهِ وَأَسْلَمَا.

جَزَاكِ اللهُ الخَيْرَ كُلَّهُ يا أُمَّ سَلَمَةَ، كُنْتِ بحقٍّ حامِلَةَ السَّلامِ، وَصانِعَةَ السَّلامِ، تُشيرين بما هُوَ صَوابٌ، وَتَرَيْنَ ما يُصْلِحُ الأُمُورَ، وَيُبْعِدُ الشِّقاقَ وَالنِّزاعَ، وَكُلُّ هَذا يا أحبتي يُبْرِزُ لنا أيضاً قُوَّةَ هَذِهِ الأُمِّ الكريمةِ، وَحُسْنَ اسْتِخْدامها لذكائِها في حَلِّ المُشْكِلاتِ، وَفَتْحِ بَابِ الخيرِ والصَّلاحِ.

لا بدَّ من الصَّوابِ

وَعَاشَتْ أُمُّ سَلَمَةَ بقيَّةَ حياتها وهي ما تَزال ذَاتَ شَخْصِيَّةٍ قَوِيَّـةٍ، تَسْمُو بحكمتِها، وَتَعْلُو بـإرادتِها فَوْقَ ما جُبِلَـتْ عَلَيْه النِّساء، وَقَدْ وَقَفَتْ مَوْقِفاً مُشَرِّفـاً أَيَّامَ الفِتْنَةِ بَعْدَ مَقْتَلِ الخَلِيْفَةِ عُثْمَانَ بْـنِ عفَّـانَ، حَيْـثُ كَـانَتْ عَـائِشَـةُ أُمُّ المُؤمنين تَـدْعُـو ضَرائرَها للخروج معها ومُؤازرتها فيما رَأَتْهُ، وَكَانَ أَنْ أَسْدَتْ أُمُّ سَلَمَةَ إليهـا النُّصْحَ والإِرْشادَ تُبيِّنُ لَها خَطَأَ الخروجِ والمتـابعةِ، وَقَدَّمَتْ لَهَا مَا تَسْتَدِلُّ بِهِ علَى رَأْيِها بما عُـرِفَتْ عَنْهُ مِنَ الحكْمَةِ والرَّوِيَّةِ، وَحَاوَلَتْ أَنْ تَبْذُل كَلَّ ما في وُسْعِها لِرأْبِ الصَّدْعِ بَيْنَ عَائِشَةَ وَعليٍّ رَضي اللهُ عَنْهُما و عَنْ صَحابةِ رَسُولِ اللهِ أجمعين .

وَشَهِدَتْ لها الأَيّـامُ بِصِحَّةِ كَلامِها، وَحُسْـنِ مَوْقِفِها،عِنْدَما عَادَتْ عَـائِشَةُ نادِمَـةً عَلَى مَا خَرَجَـتْ إليه، مُقْتَنِعَةً بِـأَنَّ حُبَّ الإِصْلاحِ، والمطالبةَ بِدَمِ عثمانَ لَنْ يَكُونـا إلا عَنْ طَرِيقٍ صَائِبَةٍ صحيحـةٍ، وَأَنَّهُ لا تكفـي نِيَّتُنَـا الحَسَنَـةُ في أعمالنا بَـلْ يُشْتَرطُ لقبولها عندَ اللهِ أَنْ تكونَ هـذه الأعمالُ صحيحةً وَلَها دليلٌ على صِحَتِها أيضاً .

المؤْمنُ خالدٌ بذِكْرِه

وَمِـنْ مَفَاخِـرِ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّها رَوَتِ الأحَـادِيثَ عَـنْ رَسُـولِ اللهِ ﷺ، وَعَنْ زَوْجِهـا الأوَّلِ أبي سَلَمَةَ، وَعَـنْ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ ابْنَةِ النَّبيِّ ﷺ ، وَلَقَدْ رَوَى عَنْها أَوْلادُها وكَثيرٌ مِن الصَّحابَةِ .

وَمَـاتَتْ بَعْـدَ مَوْتِ جميعِ نِسَاءِ النبي الأُخْريـات، وَدُفِنَتْ إلى جانِبِهِنَّ في البقيـع، وَسَجَّلَتْ بموتِها خُلُودَ ذِكْرَاها وَقِصَّةَ حياتِها .

رَحِمَها اللهُ مِـنْ أُمٍّ كريمـةٍ، وَزَوْجَةٍ طـاهرةٍ، وسيِّـدَةٍ عظيمةٍ .

رَحِمَهـا اللهُ بطلةً للهجـرتَيْن، ومجاهدةً في سبيـل اللهِ ورسولِهِ وديـنِ الإسلام، ورَحِـمَ فيها إقْـدَامَها وجُرْأَتَها وصوابَ رَأْيِها .

إلى اللقاء يا أحبَّتي في حلقة قادمـةٍ، مع زوجةٍ أُخرى من زوجاتِ رسُولِ اللهِ العظيم محمَّدٍ ﷺ .

زينب عليها السلام

الشّريفة الحسناء

بسم الله الرحمن الرحيم



دَارُ الهُدَىٰ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيع

الرياض: طريق صلاح الدين الأيوبي - حي الملز - بالقرب من إدارة مكافحة المخدرات
هاتف: ٤٧٧٧٥٤٤ - ٤٧٩٤٥١٧ - ناسوخ: ٤٧٧٦١٣٩ - ص.ب: ٢٥٥٩٠ - الرياض ١١٤٧٦

صفاتٌ يحبُّها القَلْبُ

(زَيْنَبُ) اسمٌ جميـلٌ لمؤمنةٍ جميلةٍ، هي ابنةُ عَمَّـةِ الرَّسولِ ﷺ التـي وَهَبَهـا اللهُ حَظّـاً وَافِراً مِـنْ حُسْـنِ الخِلْقَـةِ وَبَهاءِ الطَّلْعَةِ، وَجَـدُّ هَذِهِ المُؤْمِنةِ هُـوَ عَبْدُ المُطَّلب، وَتَنْتَسِبُ إلى بني أَسَـدٍ، وَهَذَا كُلُّهُ جَعَلَهـا أَهْلاً لأَنْ تَكُـونَ مَحَطَّ الأَنْظَارِ بَيْنَ الجميلاتِ ذَوَاتِ النَّسَـبِ، وَقَدْ تَطَلَّعَـتْ إليها بيـوتَاتُ مَكَّةَ أَنْ تَحْظى بعروسٍ جميلةٍ وشريفةٍ .

وَلَعَلَّ مما زَادَ في رِفْعَتِها وَمَكَانَتِهـا أَنَّها مِنَ اللَّواتي أَسْلَمْنَ في الأَيَّـامِ الأُولى لِدَعْـوَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَتَحَمَّلَـتْ وَأُسْرَتُها مَعَ المُسْلمين كثيراً من صُنُوفِ الأذى القـرشيِّ، ثُمَّ أَنْعَمَ اللهُ عليهـا بالهجـرة إلى المدينـةِ، ورأَتْ زَوَاجَ أُخْتَيْها (حَمْنَـةَ وَأُمِّ حَبِيبٍ) مِـنْ (مُصْعَب بْنِ عُمَير، وعَبْـدِ الرحمن بـن عَوْفٍ) أقـربِ الصَّحابـة إلى رسـولِ اللهِ . وَكِـلاهُما مِنَ السَّـابِقين الأوَّلين وَمِـنْ أشْرَافِ قُـرَيْشٍ . وَبَقِيَـتْ زَيْنَـبُ الشريفَـةُ، تَنْتَظِرُ زَوْجاً يَتَساوى مَعَ إِسْلامِها وَشَرَفِهَا وَمَكَانَتِها .

تَرْضَوْنَ دِينَهُ وخُلُقَهُ

وَانْتِظَارُهَا للمُسْلِمِ المُؤْمِنِ حَقٌّ لها، أَمَّا أَنْ تكُونَ القَاعِدَةُ هي اشْتِراطُ النَّسَبِ العريقِ والأصلِ الشَّريفِ فَهَذا مما لَمْ يَطْلُبْهُ الإِسْلامُ زيادةً على متانةِ العقيدةِ، وَلِهَذَا أَرادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَمْحُوَ الفُرُوقَ بَيْنَ طَبَقاتِ الأُسَرِ، وَأَنْ يُزِيلَ مَا كَانَ يُقِيمُهُ العَرَبُ مِنْ فَواصِلَ بَيْنَ الأَشْرافِ وَمَنْ هُمْ دُونَ ذَلِكَ، أَوْ بَيْنَ الأَغْنِياءِ وَالفُقَراءِ، وَأَنْ يَجْعَلَ جَميعَ النَّاسِ في الإِسلامِ سواسيةً، لا فَرْقَ بَيْنَ شريفٍ وَمَوْلًى، وَلا بَيْنَ غنيٍّ وفقيرٍ، وَلا بَيْنَ عربيٍّ وعجميٍّ إلا بالتَّقْوَى.

وَأَحبَّ الرَّسُولُ الكريمُ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ أُسْرَتِهِ العريقةِ في النَّسَبِ، وَمِنْ أقْرَبِ أقربائِهِ إِلَيْهِ مِثالاً يُحْتَذَى، وَيَسْبِقُ بِهِ الآخرين، لِيُشَجِّعَهُمْ، وَلَوْ كان في ذَلِكَ صُعُوبَةٌ وَمَشَقَّةٌ، فَهَلْ تَدْرُونَ مَنِ اخْتارَ النبيُّ أيُّها الأحبَّةُ الصِّغارُ لهذا الأمرِ؟.

اختيارٌ نبويٌّ

سَتقُولون لي: لَقَدِ اخْتار ابْنَـةَ عَمَّتِهِ الجميلةَ الشَّرِيفَةَ (زَيْنَب) . وَجَـوَابُكُمْ صَحيحٌ، وَإِنَّ رَسُـولَ اللهِ تَخَيَّرَهَا لتكُونَ المِثَال الذي تَحْتَذِيهِ بَنَاتُ العربِ والمسلمينَ في تَزْويج الشَّرِيفَاتِ ممَنْ هُمْ دُون حَسَبِهِنَّ وَنَسَبِهِنَّ .

وَلكنْ مَـنِ اخْتَارَ لابْنَـةِ عَمَّتِهِ زَوْجـاً؟ إِنَّهُ (زَيْـدُ بْنُ حارثة) ذلك الشَّابُّ الذي كَـانَ في مكَّةَ غُلاماً يعيش في بَيْتِ خـديجةَ . وَرَبَّاهُ الـرَّسُول مُنْذُ صِغَرِهِ بَعْـدَ أَنْ رَأَى في وَجْهِـهِ عُنْصُرَ الكَـرَم ، وَفي مَـلامِحِهِ مَخَايـلَ الذَّكاءِ . وَزَيْدٌ هَـذَا فَقيرٌ ، وَلا يُنْظَرُ إليهِ بَيْنَ الأشْرَافِ ذَوي المكانَةِ فَهلْ سَيتِمُّ الزَّواجُ بَيْنَهُ وَبيْنَ زَيْنَب ؟

كَـادَ أَهْلُ زَيْنَـب لا يُصَدِّقُـون!!؟ هَلْ صَحيـحٌ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ ابْنَتَهُمْ زَيْنَبَ لـزيدِ بْنِ حارثةَ؟ وَأَيْنَ هَذَا الزَّوَاجُ مِنْ زَواجِ أُخْتَيْها حَمْنَةَ وَأُمِّ حَبِيبٍ؟

لا يأْمُرُ إلا بخيرٍ

وَينْزِلُ قَوْلُ اللهِ تعالى ليحْسِمَ الأمْرَ، وَيُبيِّنَ صواب رأْيِ الرَّسُولِ الكريم ﷺ : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إذا قضى اللهُ وَرَسُولُهُ أمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَمَنْ يَعْصِ اللهَ ورسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبيناً﴾. الأمْرُ للهِ، وَللرَّسُولِ، فَلا مَفَرَّ إذاً، وَالمُسْلِمُ لا يرى فيما يَأْمُرُ بِهِ القرآن خطأً ولا انْحرافاً عَنِ الصَّوابِ، وَيتمُّ للرسولِ ﷺ ما أرادَ مِنْ تحطيمِ الفَوارِقِ بَيْنَ الطَّبقَاتِ، وَإِعلاءِ كلمةِ الإِسْلامِ، لا كَلمةِ القبيلةِ والنَّسَبِ.

وَقَدْ تَقُولُونَ مُؤَكِّدينَ: إنَّ أمرَ رَسُولِ اللهِ صحيحٌ، وَعَلَيْنا أَنْ نَقْبَلَهُ، لأَنَّه يَأْمُرُ بِأَمْرِ اللهِ، واللهُ لا يَأْمُرُ إلا بخيرٍ.

كلامُكُمْ جميلٌ يا أحبَّتي، ولكنْ عَلَيْنَا أَنْ لا نَنْسى صُعُوبَةَ تحمُّلِ وتَقَبُّلِ الحقِّ بَعْدَ سنين طويلةٍ من البقاءِ على عَادَةِ احْترام النَّسَبِ والشَّرَفِ والأصلِ، وَهَذَا ما حَدَثَ عِنْدَما تَمَّ الزَّواجُ بَيْنَ زَيْنَبَ وَزَيْدٍ.

الدَّوَاءُ مُرٌّ في أَوَّلِه

لَقَدْ أَذْعَنَتْ زَيْنَبُ وَأَهْلُها حَقّاً لِقَضاءِ اللهِ وَإِرادَةِ رَسُولِه، وَلَقَدِ اعْتَذَرَتْ وَأَهْلُها مِمَّا بَدَرَ مِنْهُمْ بادِىءَ الأَمْرِ مِنْ تَرَدُّدٍ وَعَلاماتِ رَفْضٍ، وَلكنَّ حَياةَ الزَّوْجَيْنِ لَمْ تَصْفُ لهما، فَلَمْ تَسْتَطِعْ زَيْنَبُ أَنْ تَنْسَى حَسَبَهَا وَنَسَبَها، وَأَنَّها سَليلَةُ أَشْرافِ قُرَيْشٍ، وَلَمْ تَتَمكَّنْ مِن اسْتِساغَةِ زَوْجٍ لا يُكافِئُها في أَصالَتِها وأُسْرَتِها .

وَلَمْ يَسْتَطِعْ زَيْدٌ أَنْ يَجِدَ مِنْ زَيْنَبَ ما يَنْتَظِرُ كُلُّ رَجُلٍ أَنْ يجِدَه في امْرَأَتِهِ وَلا ما يُحِبُّ الزَّوْجُ أَنْ يَنالَهُ مِنْ زَوْجَتِهِ .

وَمَرَّتِ الأَيَّامُ.. لا إِلْفَة وَلا تَعاطُفَ، وَشَكا زَيْدٌ إِلى رَسُولِ اللهِ ﷺ ما يَلْقاهُ مِنْ زَيْنَبَ، فَنَصَحَهُ الرَّسُولُ ﷺ بِالصَّبْرِ ، وَهَوَّنَ عَلَيْهِ الأَمْرَ ، وَطَلَبَ إِليه أَنْ يَتَحَمَّلَ زَيْنَبَ، وَيُقَدِّرَ صُعُوبَةَ مَوْقِفِها، فَهِيَ الأُولى التي تَفْتَحُ بِزَواجِها باباً أَرادَ الإِسْلامُ فَتْحَهُ: بابَ المساواةِ وإِزالَةِ الفروقِ بَيْنَ الطبقات .

المحبَّةُ لا تُباعُ

و لكنَّ زَيْدَاً لا يحبُّ أَنْ يَحْرِمَ زَوْجَتَهُ مِنَ السَّعَادةِ والهناءِ، فَلَقَدْ رآها تُـوافِقُ عَلَى الزَّوَاجِ مِنْهُ ائتماراً بِأَمْـرِ اللهِ والرَّسُولِ، وَهَذا جميـلٌ منها، إلا أَنَّهُ لا يَسْتَطيـع أَنْ يُكافئَهـا علىٰ هَذا الإِقْدَامِ الجريءِ، فمنْ أينَ ياتْي لها بـا لمحبَّةِ يَزْرَعُها في قَلْبِها حَتَّى تَسْعَـدَ مَعَهُ في هَـذِه الحياةِ وَيَـرُدَّ لها المعروفَ على أتمِّهِ وَيَعْتَرِفَ لها بِحُسْنِ جميلهـا؟ ذَهَبَ مِنْ جَـديدٍ إلى الـرَّسُول يَعْرِضُ عليه الرَّأْيَ ، وَهُوَ لا يَـزال يَحْتَرِمُ زَيْنَبَ وَيُعِزُّ قَبُوها لَهُ زَوْجاً، وَلَمْ يَجِدْ عِنْدَ الرَّسُول إلا أمراً وتأكيداً مِنْ جديدٍ بأنْ يُمْسِـكَ عَلَيْهِ زَوْجَتَـهُ وَيَصْبِرَ وَيَتَحَمَّـلَ، فَيَخْـرُجُ مُذْعِنـاً، ليجـرِّبَ التحمُّلَ مـرةً أُخرى، بَـلْ مَرَّةً أخيرةً، نَفَـدَ بَعْدَهـا الصَّبْرُ ، فَفَارَقَ زَوْجَتَهُ زَيْنَبَ، وَكَـانَ الطَّلاقُ أَمْراً لا مَهْرَبَ مِنهُ وَلا مَفَرَّ ، وَمع كلِّ مَا حَدَثَ فَإِنَّ زيداً قَدْ شَهِدَ لِزَوْجَتِهِ بـالخير ، وَلَمْ يُزعجْـهُ منها شَيْءٌ، وكثيراً مـا رأَتْ مِنْهُ تـوقيراً، واحْتراماً لها شَـدِيدَيْن، ولم يكُـنْ أمامهما حَلٌّ آخَرُ على كُلِّ حالٍ .

أَبْشِري يا عَروسَ الرَّسولِ

وَيَعْلَمُ الرَّسُولُ ﷺ بالأَمْرِ، فَيُحَاوِلُ أَنْ يَجْبُرَ خاطِرَها المكْسُورَ، وَيَأْتِيهِ الوَحْيُ من السَّماءِ يَأْمُرُهُ بالزَّواجِ مِنْ زَيْنَبَ المُطَلَّقَةِ، ولَعلَّ في هَذَا تأكيداً لوجوبِ تكريمِ زَيْنَبَ، وَحَسْماً للّحظاتِ التي تَمُرُّ مِنَ الحيرة والتَّساؤلِ بَعْدَ طَلاقِ زَيْنَبَ مِنْ زَيْدٍ، وَيَشْعُرُ بها رَسُولُ اللهِ ﷺ.

إِنَّهُ أَمْرٌ مِنْ السَّماءِ كما نَزَلَ في زَوَاجِها مِنْ زَيْدٍ قَبْلَ ذلك، وَهُوَ حَقّاً يَحْمِلُ آياتِ التكْريم للشَّريفَةِ الحَسْناء ابْنَةِ عمَّةِ الرَّسُولِ والسَّابِقَةِ إلى الإِسْلامِ، والرَّاضيةِ بأمْرِ اللهِ ورسولِه في شَأْنِ زَيْدٍ، وهي اليومَ سَتُصْبحُ أُمّاً للمؤمنين، بَلْ قَدْ أَصْبَحَتْ، وَأَدْرَكَتْ أَنَّ ذلك مكافأةٌ لها على إذْعانِها ورضاها أيّامَ الأمْرِ السماويِّ الأوّلِ.

والحمدُ للهِ.. إِنَّها لنِعْمَ المكافأةُ، ونِعمَ الجَبْرُ لخاطِرِها المكسورِ، فأَبْشِري يا ابْنَةَ العمَّةِ، وَجَهِّزي نَفْسَكِ لِيوْمِ الزِّفافِ.

لَهَا أَنْ تَفْخَرَ

وَزُفَّتْ زَيْنَبُ إِلى رسُولِ اللهِ ﷺ ، وَأَوْلَمَ الرَّسُولُ وليمةً كبيرةً، تَوَافَدَ عَلَيها النَّاسُ يَطْعَمُونَ، وَدَخلَتِ العروسُ إلى بَيْتِ زَوْجِها مُعززةً مُكرَّمَةً تَتِيهُ وَتَفْخَرُ على ضَرائِرِها بأنَّ اللهَ زَوَّجَها مَرَّتَيْنِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَماوَاتٍ، وَأَنْزَلَ في زَوَاجِها قُرآناً يَقرؤُهُ المُسْلمون لا يُبدَّلُ وَلا يُغيَّرُ .

وَمِنَ الدَّقيقة الأُولى نَزَلَ فيها الأمْرُ الجديدُ، شَعَرَتْ زَوْجَاتُ الرسُولِ اللواتي سَبَقْنَ زَيْنَبَ إلى مَسَاكِنِ زَوْجِهِنَّ بغيرةٍ شديدةٍ لما لِزَيْنَبَ مِنْ مكانةٍ أوْلاها إيَّاها اللهُ وَشَمَلَها بها الرَّسُول ﷺ ، وَشَعَرْنَ أيضاً بحبِّ الرَّسُولِ لها وَقَدْ رَأَيْنَها ـ وَهي على عِلْمِهِنَّ شَرِيفَةٌ وجميلَةٌ وَحَسْناءُ ـ تَنَالُ مِنْ رضا رَسُولِ اللهِ وَتَحُوزُ على إِعْجَابِهِ، ولكنْ أَلَيْسَ مَعَها الحقُّ في أنْ تَفْخَرَ عليهنَّ بما فَخرتْ بِهِ؟ أَلَيْسَ لها الحقُّ في أنْ تَنْعَمَ بالمكافأةِ التي أكرمها اللهُ بها، وَتَزْهُوَ أنْ جَعلَها أُمّاً للمُؤْمنين؟

وَعَلَيْها أَنْ تَشْكُرَ

نَعَمْ أَيُّها الأحْبابُ، لَها الحَقُّ وَمَعَها، وَلا لَوْمَ عليها إنْ قامَتْ تُصلِّي وَتَسْجُدُ للهِ شُكْراً، أَوْ وَقَفَتْ أمامَ ضَرائِرِها مَسْرُورَةً فَرِحَةً مَزْهُوَّةً.. لَقَدِ احْتَلَّتْ مِنْ مَكانَةٍ في قَلْبِ رَسُولِ اللهِ قارَبَتْ مَكانَةَ عائِشَةَ، وَلَقَدْ أَحَسَّتْ عائِشَةُ بِذلِكَ، فَكانَتْ تَقُولُ: (لَمْ تَكُنْ واحِدَةٌ مِنْ نِساءِ النَّبيِّ تُناصبني غيرَ زَيْنَبَ) أيْ تُنافسني في مكانتي عِنْدَ رسُول اللهِ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ أنْ تَكْتُمَ ما بنفْسِها مُنْ غيرةٍ، أَوْ تَسْكُتَ وَتَصْبِرَ على ذلك، وفي المقابِلِ لم تكُنْ زَيْنَبُ لِتَسْكُتَ وتكتمَ غيرتَها مِنْ شِدَّةِ تَعَلُّقِ النبيِّ بعائِشَةَ، وَتَشْهَدُ لها ضَرائِرُها أَنَّها كَانَتْ سَفيرَتَهنَّ إلى الرَّسولِ، تقوم بالوَساطَةِ، وَتَطْلُبُ مِنْهُ مساواتَهنَّ في الحبِّ مع عائِشَةَ، وإنَّ زَيْنَبَ قَدْ فَعَلَتْ ذلك وهي تَعْلَمُ حَقَّ العِلْمِ مَكانتَها عِنْدَ الرسُولِ وَتُحِسُّ بمقدرَتِها على مُواجَهَةِ عائِشَةَ الحبيبةِ المقرَّبةِ إلى قَلْبِ الزَّوْجِ الحبيبِ.

ولكنْ هَلْ وَصَلَ بِهما الأَمْرُ في الغيرة إلى ما لا تُحْمَدُ عُقْباهُ؟

عِصْمَةٌ تُحْسَدُ عَلَيْها

والجوابُ: لا، والحمدُ للهِ، فَإنَّ زَيْنَبَ برغم فخرِها وزهوِّها ومكانتِها وَما كانتْ تَتَّصِفُ بِهِ مِنْ غيرةٍ إلا أنَّ ورعَها وتقْواها وَصَلاحَها، كُلُّ هَذا كَانَ يَمنعُها مِنْ أَنْ تُؤْذِيَ وَاحِدَةً مِنْ ضَرائرِها ولا سيّما عائشة الحبيبة إلى قَلْبِ الرسول، أَوْ تَنالَ منها غيبَةً.. وَقَدْ سَجَّلَتْ أَيَّامَ حَادِثَةِ الإِفْكِ مَوْقِفاً رائِعاً لا تَنْسَاهُ لها عائِشَةُ، فحينما اتَّهَمَ المنافقون ابْنَةَ أبي بكر في شرفِها وَطَهارتِها، شَهِدَتْ زَيْنَبُ، حِينَ سُئِلَتْ عَمّا تَعْلَمُ مِنْ أمرِ عَائِشَةَ فقالَتْ: (أحْمي سَمْعي وبصري ، واللهِ ما عَلِمْتُ إلا خَيْراً)، وَإِنَّهُ لموقفٌ قَلَّ أَنْ يَصدرَ مِنْ زَوْجةٍ لضرَّتِها، ولكنَّهُ الوَرَعُ والتَّقْوى يَفعلان أَكْثَرَ مَنْ ذَلك، فَهنيئاً لزينبَ مكانَتَها وَتَقْواها وَحُسْنَ مواقِفِها، وَقَدْ أَكْبَرَتْ عائشةُ في زينبَ هذا الموقفَ الشَّريفَ الذي زادها شَرفاً فقالت عنها: (.. فأمَّا زَيْنَبُ، فَعَصَمَهَا اللهُ تعالى بدينِها، فَلَمْ تَقُلْ إلا خَيْراً)، وَمَا أَحْلاه مَنْ كَلام!. اللَّهُمَّ اعْصمْنا بدينِنا، وأَلْهِمْنا قَوْلَ الخَيْرِ والحقِّ .

المؤْمِنُ يَعْمَلُ ما بِوِسْعِهِ

وَكَانَتْ زَيْنَبُ إلى جانِبِ صلاحِها وَتَقْواهَا امْرَأَةً نَشِيطَةً عامِلَةً، تَدْبغُ، وتخرزُ، تَعْمَلُ بيدَيْها ما تُحْسِنُهُ، ثُمَّ تَتَصدَّقَ بما تعملُ في سبيلِ اللهِ على الفُقَراءِ والمساكين، وَكَانَتْ صادِقَةَ النيَّةِ فيما تَجُودُ بِهِ مِنْ عَمَلٍ وَصَدَقَةٍ . وتَقُولُ عَنْها عائِشَةُ في ذلك: (ولَمْ أَرَ امْرَأَةً قَطُّ خَيْراً في الدِّينِ مِنْ زَيْنَبَ) ثُمَّ تَصِفُها بِأَنَّها (أَتْقَى للهِ، وَأَصْدَقُ حَدِيثاً وَأَوْصَلُ للرَّحمِ، وَأَعْظَمُ صَدَقَةً، وَأَشدُّ ابْتذالاً لِنَفْسِها في العمل الذي يُتَصَدَّقُ بِهِ، وَيُتَقَرَّبُ بِهِ إلى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ)، إذَنْ.. فَزَيْنَبُ يا أَحبَّائي تقيَّةٌ كريمةٌ خَيِّرَةٌ، لَمْ تَنْسَ كَرَمَ اللهِ وَفَضْلَهُ عليها، بَلْ شَكَرَتْهُ، وَراحَتْ تَتَصدَّقُ بِنِعَمِهِ عليها في سبيلِه إذَا ما رأَتْ مُحْتَاجاً أَوْ مسكيناً.. ولَمْ تَبْخَلْ عَلَينا أُمُّ سَلَمة بمدْحٍ جميلٍ تقولُ فيهِ عَنْ زَيْنَبَ: (كَانَتْ لِرسولِ اللهِ مُعْجِبَةً، وَكَانَتْ صَالِحَةً قَوَّامَةً تعملُ بيدَيْها، وَتَتَصَدَّقُ بذلك كُلِّهِ).. إِنَّها لَنِعْمَ منْ يَعْتَرِفُ بالجميلِ، وَيَشْكُرُ صانِعَ المَعْرُوفِ.

القَناعَةُ كَنْزٌ لا يَفْنىٰ

وهكذا بقيتْ أيْضاً بعْدَ وَفاةِ النَّبيِّ، فَقَدْ ظَلَّتْ عَلى ما هِي عَلَيْهِ مِنْ صَلاحِهَا وَبرِّها للفقراءِ، وَبَلَغ مِنْ إِحْسَانِها أَنَّهُ حِينما أَرْسَلَ عُمرُ بنُ الخَطَّابِ إِلى أُمَّهاتِ المُؤمِنينِ بعطائِهِنَّ ، كانَ عَطاءُ زَيْنَبَ اثْنَيْ عَشرَ أَلْفاً، وَمَا أنْ وَصلَ المالُ إليها حتَّى أَلْقَتْ عَلَيهِ ثَوْباً تَسْتَتِرُ مِنْهُ، ثُمَّ طَلَبَتْ أَنْ يُقَسَّمَ في أَهْلِ الحاجَةِ، وَدَعَتْ رَبَّها أنْ لا ترَى فِتْنَةً في المالِ، وَعَلِمَ عُمَرُ بالخبرِ ، فَبَعَثَ إليها بألْفٍ أُخرى تَسْتَبْقيها لنَفْسِها، فَفَعَلَتْ بها ما فَعَلَتْهُ بالذي أرْسَلَ إليها مِنْ قَبْلُ، وَقَالَ عُمَرُ بَعْدَ أَنْ أَعظَمَتْ نَفْسُهُ هَذَا العملَ الكريمَ: (هَذِهِ امْرَأَةٌ يُرادُ بِها الخيرُ)، وَحَقّاً يا أعزَّائي، فإنَّ نَفْساً لا تَطْمَعُ في مالٍ هي نَفْسٌ يُرادُ بِها الخَيْرُ ، اسأَلُوا اللهَ أنْ لا يَفْتِنَنا في دُنيا ولا في مالٍ، وَأَنْ يُلْهِمَنا القَناعَةَ والرِّضا، وَلَوْ لمْ نملِكْ ثَرواتٍ وكنوزاً، وَلَئِنْ رضينا بالقليلِ مِنَ المالِ خَيْرٌ مِنْ أنْ يفتننا الكثيرُ مِنْهُ .

الصَّدَقَةُ مِفْتاحُ التَّكافل

وَتتَذَكَّرُ زَوْجاتُ الرَّسُولِ بَعْدَ مَوْتِهِ أَنَّ زَوْجَهُنَّ قَدْ قَالَ لَهُنَّ يَوْماً: (أَسْرَعُكُنَّ لحاقاً بي أَطْوَلُكُنَّ يداً)، وَلَمْ تكُنْ طويلةُ اليدِ إلا زَيْنَب، فَلَقَدْ تُوُفِّيَتْ في عَهْدِ عُمَرَ بن الخطَّابِ، ولمَّا تَسْبِقْها واحِدَةٌ مِنْ ضرائرها اللواتي حَضَرْنَ وَفَاةَ الرَّسُولِ ، ولكنْ قَدْ تَسْأَلُونني: ما معنى قَوْل الرسول؟ وماذا يُقْصَدُ بطويلة اليَدِ؟..

إِنَّهُ قَدْ بَيَّنَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في ذلك أنَّ الزَّوْجَةَ التي سَتمُوتُ بَعْدَهُ قَبْلَ غَيْرِهَا هي الزَّوْجَةُ التي تَتَّصِفُ بالكَرَمِ والجُودِ والعَطَاءِ، وَيَدُها أطْوَلُ الأيدي بالصَّدَقَةِ، أَيْ أَسْرَعُهُنَّ وَأَجْوَدُهُنَّ في التَّصَدُّقِ والبَذْلِ .

وَلَقَدْ كَانَ ذلك مِنْ نَصِيبِ زَيْنَب، فَلَقَدْ تُوفِّيَتْ قَبْل غيرها مِنَ الضَّرائِرِ، وَمَاتَتْ وجميع ضَرائِرِهَا إلى جَنْبِها يَذْكُرْنَ لها أَنَّها كَانَتْ زَوْجَةً حبيبةً للرَّسُولِ وَأُمَّاً رحيمةً للمؤْمنين، وَامْرَأَةً عابدةً قانِتَةً لِرَبِّ العالمين .

وَلَنا أَنْ نَبْكي

وَحَزِنَ الجميعُ على زَيْنَبَ وَبَكَتْهَا العُيُونُ والقُلُوبُ بُكَاءً مُرّاً، وَبكَتْها عَائِشَةُ وَقالَتْ تَنْعيها: (ذَهَبَتْ حميدَةً نقيَّةً)..

اللّهُمَّ ارْحَمْها، وَابْعَثْها مَعَ رَسُولِكَ يَوْمَ القيامَةِ حميدَةً نَقيَّةً كما ذَهَبَتْ، وكما كانَتْ، وكما عاشَتْ، وارْحَمْنا معها يا ربُّ، وارْضَ عَنَّا، وَأَحْسِنْ خُلُقَنَا، وَاجْعَلْنا مِنْ ذَوي القُلُوبِ النَّقِيَّةِ والنُّفُوسِ الحميدَةِ.

إلى لقاءٍ آخر يا قرَّاءَ هذهِ السلسلةِ الطيِّبةِ.

وأشْكرُكُم في نهاية هذِهِ الحلقةِ أنْ صَبَرْتُمْ عَلَى تَحْصيل هَذِهِ المعرفةِ، وَاحْفَظُوا أنَّنا قَدْ عَرَفْنا حتى الآن حياةَ سَبْعِ أُمَّهاتٍ كريماتٍ من زَوْجَاتِ الرَّسُولِ الكريم، وهُنَّ:

(خديجةُ الطاهرةُ، وَسَوْدَةُ التي خَلَفَتْها، وَعَائِشَةُ الحبيبةُ، وَحَفْصَةُ حَافِظَةُ المصْحَف، وأُمُّ المساكينِ، وَأُمُّ سَلَمَةَ بنْتُ زاد الركْبِ، وَزَيْنَبُ ابْنَةُ العمَّةِ..).

ريحانة بني قريظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ



دَارُ الهُدَىٰ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيع

الرياض: طريق صلاح الدين الأيوبي - حي الملز - بالقرب من إدارة مكافحة المخدرات
هاتف: ٤٧٧٧٥٤٤ - ٤٧٩٤٥١٧ - ناسوخ: ٤٧٧٦١٣٩ - ص.ب: ٢٥٥٩٠ - الرياض ١١٤٧٦

﴿وَأَعِدُّوا لهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ..﴾

تَعْلَمُون يـا أَحبَّتي الصِّغـار أَنَّ الرَّسُـول ﷺ قَدْ هَاجَـرَ مِنْ مَكَّةَ المُكـرَّمةِ إلى المدينةِ المنـوَّرةِ مِنْ أَجْـلِ تأْمينِ جَوٍّ مُنَـاسِبٍ وَوَسَطٍ مُلائِمٍ لِنَشْرِ دَعْوَتِهِ وَإِقَامَةِ مُجْتَمعٍ إِسْلاميٍّ لَهُ شَخْصِيَّتُهُ وَكيانُهُ ومُمَيِّزَاتُهُ الخاصَّةُ بَيْنَ مجتمعـاتِ العالم . وَلَوْ سَأَلْتُكُمْ عَنْ العَوَامِـلِ التي تَحْفَـظُ على مجتمعٍ كهـذا شَخْصِيَّتَهُ وَاسْتِقْـلالَهُ لَقُلْتُمْ: إِنَّ تطهيرَ المجتمـعِ مِنَ العـاصِين والمنافقين، والـدِّفاعَ عَنْهُ مِنْ غَزْوَاتِ الأَعْدَاءِ لهما العاملان اللَّذانِ يحفظان مِثْلَ هذا المجتمعِ الناشِىء في مدينة يثرب .

وَعِنْدَمَـا وَصَلَ النَّبيُّ إلى مـدينتِهِ، واسْتَقْبَلَهُ الأَنْصَـارُ ، قامَ آنذاكَ بِبَذْلِ كُلِّ ما في وسْعِهِ مِـنْ عَطَاءٍ في تَشْييدِ هذا المجتمعِ الذي يَنْشُدُهُ .

وَسَـاعَدَهُ المُسْلِمُـونَ مِـنْ مهاجـريـن وأَنْصَار ، وَأَيَّـدَهُ رَبُّ العالمين في التمكينِ مـن هَذِهِ الغايةِ الكـريمةِ، وَما أَحْـلاهُ مِنْ بِنَاءٍ مُتَمَاسِكٍ مَتينٍ تَحْتَ قيادَةِ نبـيٍّ عظيمٍ، وفي حمايةِ رَبٍّ قَويٍّ عَزيزٍ .

لا أمانَ لِكافرٍ

وَلَعَلَّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ وَاجَهَ أَثْنَاءَ عَمَلِهِ صُعُوبَاتٍ كثيرةٍ كان مِنْ أَهَمِّهَا وُجُودُ اليهودِ في المدينةِ عَلَى قُرْبٍ مِنْ هَذَا المجتمعِ الجديدِ .

واليهودُ الذين كانوا موجودينَ وَقْتَذَاكَ هُمْ: (بَنُو النَّضيرِ، وبنو قَيْنُقَاعٍ، وَبَنُو قُرَيْظَةَ)، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ تاريخٌ مُشَرِّفٌ في ذلك المكانِ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُمْ أَهْلُ يَثْرِبَ مِنَ الأَوْسِ والخَزْرَجِ إلَّا سُوءَ الجِوارِ، وَحُبَّ الفِتْنَةِ، وَالطَّمَعَ في المالِ، والتَّكالُبَ على الدُّنْيا، وَالعُلُوَّ في الأَرْضِ والفَسَادَ ، والتهديدَ فيما إذا ظَهَرَ نبيٌّ جديدٌ مِنَ العربِ أنْ يَقْتُلُوهُ، وهَاهُوَذَا قَدْ ظَهَرَ وَسَكَنَ قريباً مِنْهُمْ، وَهُوَ يُدْرِكُ نِيَّةَ الشَّرِّ وَعَمَلَ السُّوءِ في تاريخهم .

لَقَدْ أظْهَرُوا لَهُ أَوَّلَ الأَمْرِ وَجْهاً جميلاً، وَابْتِسَامَةً مُصْطَنَعَةً، وَاسْتَقْبَلُوهُ بِالفَرَحِ والتَّرْحِيبِ، طَامِعينَ أنْ يَضُمُّوهُ إلى صُفُوفِهِمْ، لِينفِّذُوا مَآرِبَهُمْ وَسُوءَ مُرَادِهِمْ، وَيَصِلُوا إلى مَطَامِعِهِمْ في البَقَاءِ عَلَى تَارِيخِهم القَذِرِ، ولكنْ أَنَّى لَهُمْ ذَلِكَ مع الرسُولِ الكريمِ ؟

ولا سُكُوتَ عن الهدْم

إِنَّ محمَّداً قائدُ المجتمعِ الجديدِ قَدْ سَلَكَ مَعَهُمْ مَسْلَكاً سَليماً، وَأَحَبَّ أَنْ يَضَعَهُمْ عَلَى مرأى مِنَ العُيُون حَتَّى لا يَتَمَكَّنُوا مِنَ القيام بِشَرٍّ ضِدَّ دَعْوَتِهِ .

لَقَدْ وَادَعَهُمْ وَعَاهَدَهُمْ وَأَمَّنَهُمْ عَلَى دِيْنِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَكَتَبَ لَهُمُ المحالفَاتِ والمعاهدَاتِ، وَلكنَّهُمْ مَا لهذا كَانُوا يَسْعَوْنَ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدُهُمْ لِيَرْضَى عَنْ ذَلِكَ!! إِنَّهُمْ رَأَوْا في محمَّدٍ رَسُولاً صَادِقاً بَشَّرَتْ بِهِ تَوْرَاتُهُمْ، وَحَدَّثَ عَنْهُ أَحْبَارُهُمْ، وَشَعَرُوا بالضِّيقِ ولَمْ يُطيقُوا صَبْراً، وَخَافُوا عَلَى سُلطَانِ محمَّدٍ أَنْ يَذْهَبَ بِسُلْطَانِهِمْ، وَخَشُوا مِنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ المؤمنين أَكْثَرَ مما كانوا يَخْشَوْنَهُ قَبْلَ حَادثَةِ الهجرةِ، وابْتَدؤوا أخيراً يكْشِفُون قِنَاعَهمْ، وَيَخْلَعُونَ حجابَ الرِّيَاءِ، هَا هُمْ أُولاءِ قَدْ نَاوَشُوا محمَّداً، وَسَفَّهُوا رَأْيَهُ، ثُمَّ كَذَّبُوهُ، وَأَنْكَرُوا صِدْقَ نُبُوَّتِهِ، وَجَحَدُوا رِسَالَتَهُ، فَهَلْ سَيَسْكُتُ عَنْهُمْ محمَّدٌ ﷺ؟

طَبْعاً : لا .. وَلَنْ يسْكُتَ عَنْ عَامِلِ الهَدْمِ والخرابِ بَعْدَ بِناءِ المجتمعِ المَنْشُودِ .

بِيَدِهِمْ يَبْنُونَ قُبُورَهُمْ

رآهُمُ الرَّسُولُ الكريمُ ﷺ يَسيرون بَيْنَ أتْبَاعِهِ بالأكَاذِيبِ والدَّسَائِسِ، وَيَخْلُقُونَ المُشْكِلاتِ وَيُثِيرُونَ الفِتَنَ، وَلَعَلَّ بني قَيْنُقَاعَ لَمْ يُطِيقُوا الصَّمْتَ والعملَ في الخَفَاءِ، فكَانُوا أَوَّلَ مَنْ بَدَأَ العِصْيَانَ مِنَ اليهودِ عَلَى أَتَمِّهِ جهارَةً، وَنَقَضُوا عَهْدَهُمْ مَعَ الرَّسُولِ، فَحَقَّ بذلِكَ للرَّسُولِ قتالُهُمْ، فَحاصَرَهُمْ حَتَّى اسْتَسْلَمُوا، وَقَضَى فيهمْ أَنْ يُغَادِرُوا المدينَةَ في مُدَّةٍ أقْصاها ثَلاثَةُ أَيَّام فَغَادَرُوها تَارِكِينَ وَرَاءَهُمْ يَهُودَ بني النَّضِيرِ وَبني قُرَيْظَةَ، وَرَأَى اليَهُودُ الباقُون مَا حَلَّ ببني قَيْنُقَاعٍ . وَمِنْ هَؤُلاءِ الباقين كانَتْ (رَيْحَانَةُ) التي قَرَأْتُمُ اسْمَهَا عَلَى صَفْحَةِ الغلافِ، وَرَيْحَانَةُ هَذِهِ يَا أَحِبَّائِي هي مَوْضُوعُ قِصَّتِنا، وهي التي حَظِيَتْ برَسُولِ اللهِ ﷺ، وَعَاشَتْ في كَنَفِهِ، وَلكنَّ لهذِهِ الحَظْوَةِ سَبَباً عَلَينا أَنْ نعْرِفَهُ.. لِنَعْلَمِ الآنَ أَنَّ رَيْحَانَةَ مِنَ اليهود، وَأَبُوها زَيْدُ بْنُ عَمْرو أحَدُ أَشْرافِ بني النَّضِيرِ الذين اشتهروا بمكانتهم ونُفُوذِهِمْ، وَيَتَمَنَّى شبابُ اليهودِ التقرُّبَ مِنْهُ لِيَحْصُلُوا على ابْنَتِهِ الجميلةِ الشَّابَّةِ .

وبِيَدِهِمْ وَاصَلوا العَداوَةَ

وَلَقَدْ كَانَتْ رَيْحانَةُ مِنْ نَصِيبِ رَجُلٍ اسْمُهُ (الحَكَمُ) مِنْ بني قُرَيْظَةَ، بَعْدَ أَنْ خطَبَهَا مِنْ أَبيها، وَاسْتطاعَ أَنْ يَحْصُلَ علىٰ مُوَافَقَتِهِ، وَعَاشَتِ الفَتَاةُ الوسيمةُ في بَيْتِها مَعَ زَوْجٍ يُعِزُّها كُلَّ الإِعْزازِ، وَيَعْمَلُ عَلَى مَرْضاتِها، وَيُعْلي مِنْ مَكَانتِها، وَإِنَّها لعيشَةٌ رضيَّةٌ هانِئَةٌ، لكنَّ يهودَ بني النضيرِ خَلفُوا بني قَيْنُقَاعٍ في نقْضِهِم المعاهَدَةَ مَعَ الرَّسولِ، وَرَآهُمُ الرَّسُولُ وَهُمْ يُذْكون رُوحَ الفِتْنَةِ والشَّرِّ مِنْ جَديدٍ ، فَحكَمَ فيهِمْ حُكْمَهُ الذي يَقْضي عَلَيْهِم بمغادَرَةِ المدينةِ، فَغَادَروها تاركينَ رَيْحَانَةَ في بني قريظةَ إلى جانِبِ زَوْجِها . وَتَمُرُّ الأَيَّامُ وَرَيْحَانَةُ على حالِها، تُبْدِي الوُدَّ مع الباقين ، وَتَعِيشُ مَعَ أَهْلِ الحَكَمِ، تَصِلُها أخْبارُ أَهْلِها، وَتَعْلَمُ مَا يَنْوِيهِ المَطْرُودُونَ مِنْ سُوءٍ وَفَسَادٍ ، وما يعملونه لَيْلَ نَهارَ مِنْ أَجْلِ العَوْدَةِ والقضاءِ على مُحَمَّدٍ وأتْبَاعِهِ .

سَمِعَتْ رَيْحانَةُ أَخْبَاراً مُتَوَاتِرَةً عَنْ ذَلِكَ، وَلَمْ تكُنْ لِتَسْتَكْشِفَ الغيبَ فماذا سَيَحْصُلُ يا تُرىٰ؟

وبِيدِهِمْ أتوا بالمَوْتِ

وَإِنَّ رَيْحانَةَ الآن لمعدودَةٌ بَيْنَ بَني قُريظة الذين لمَّا يَنْكُثُوا عَهْدَهُمْ مع المُسْلِمين، ولكنَّهُمْ يا للأَسَفِ.. لَقَدْ رَأَتْهُمْ وَهُمْ يَتَراجَعُونَ عَنْ مَوْقِفِهِمْ وَعَهْدِهِمْ، فَقُبَيْلَ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ، جَاءَ المُسْلِمُونَ إلى بني قُرَيْظَةَ يَطْلُبُونَ مِنْهُمُ العَوْنَ، فَأَعَانُوهُمْ وَانْتَظَرُوا لمَنْ سَيَكُونُ النَّصْرُ ، أَلِلْمُسْلِمينَ؟ أَمْ لِلأَحْزَابِ المحيطَةِ بالمدينَةِ؟ وَفي هَذِهِ الأَثْنَاءِ جاءَهُمْ (حُيَيّ بْنُ أَخْطَب) الزعيمُ اليهوديُّ الماكرُ يؤلِّبُهم على رَسُولِ اللهِ حَتَّى مَال برئيسهم (كَعْبِ بن أسَدٍ) إلى الغَدْرِ، وهُنَا ظَهَرَتْ الخيانَةُ وَصَاحُوا: (لا عَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ ولا عَقْدَ)، وَبِذَلِكَ حقَّ لمُحَمَّدٍ مُحَارَبَتهم والاقتصاص مِنْهُمْ . وَحَكَمَ الرَّسُولُ ﷺ عَلَيْهِمْ بالمَوْتِ عقاباً شديداً يناسِبُهم، وَلَيْسَ بالطَّرْدِ والمغادَرَةِ كَمَنْ سَبَقَهُمْ، وَسمعَتْ رَيْحَانَةُ هَذَا الحُكْمَ، وَيَا للْعَجَبِ!! إِنَّهُ الموتُ . ولكنْ لا تعجبي يَا رَيْحَانَةُ ، فالذين لا يَرْضَون لمحمَّدٍ وأصحابِهِ إلا القَتْلَ والمَوْتَ، لا حُكْمَ عليهم إلا بما يَرضَونَهُ لغَيرِهِمْ، وإِنَّهُمْ فَتَحُوا بابَهُ بأيْدِيهِمْ . وَلا غَرابَةَ في هذا القِصَاصِ .

فإلىٰ الجزاءِ العَادِلِ

والمَوتُ هُنَا يَا أحِبَّائي لا يُطَبَّـق إلا على الرِّجال ، أمَّا النِّسَاءُ والأطْفَالُ ومنهمْ رَيْحَانَةُ، فَهُمْ فِي عِدَادِ السَّبَايا، وَهَذَا مِنْ تَقَاليد الحُروبِ ولا مَنَاصَ مِنْهُ مَعَ مَنْ يَنوُون نِيَّةَ الغَدْر ضِدَّ أَصْحَابِ الحقِّ والعَدَالَةِ..

وَبَدَأَ تَنْفِيـذُ الحكْمِ، وَأُعْدِمَ الرِّجَـال جَزَاءً وِفاقاً، وَتَـمَّ سَبْيُ النِّسَاءِ والأَطْفَالِ، وَوُزِّعَتِ الغنائمُ بـالعَدْلِ والقِسْطَاسِ، وَجَاءَ دَوْرُ تَقْسِيم السَّبْـيِ، وَوَقَفَتْ رَيحانَةُ بنْـتُ زَيْدٍ، تبكـي وَتَنْدُبُ زَوْجَهَا (الحكَم) وهي تَقُول وَتُرَدِّدُ: (لا أَسْتَخْلِفُ بَعدَهُ أبداً)..

إنَّـهُ لَمَوْقِفٌ صَعْـبٌ، أَنْ تَرَى وَهـي وَاقِفةٌ حَـاضِرَةٌ تَنْظُرُ وتَـرَى مَصْرَعَ الـرِّجَالِ وَبَيْنَهُـمْ زَوْجُها، وَمِـنْ حَوْلِها النِّسَـاءُ مِنْ بنـي قُرَيظَة يبْكِينَ وَيَنْدُبْنَ، وكُلُّ واحدةٍ منهنَّ لا تَدْري أَيْنَ سيكونُ حظُّهـا؟ وَمَـعَ مَنْ سَتَعيـشُ بقيَّـةَ عمـرها..؟ إنَّ رَيْحَانَـةَ مِـنَ السَّبَايَـا، وَسَوْفَ تَنْظُـرُ ما تَجْهَلُـهُ مِنَ الغَيْـبِ، والجميعُ يَـرَوْنَها حزينة كئيبةً، يأْكُلها الهمُّ وتعتصرها الدُّمُوعُ .

قَدْ يُذْهِلُ الخبرُ !!

ويا لَـهُ مِنْ نَصيبٍ لم تكُنْ لِتَتَـوَقَّعَهُ، أَوْ لِيَتَوقَّعهُ أَحَـدٌ !! لَقَدْ كَـانَتْ رَيْحَانَـةُ مِنْ نصيـبِ رسُـولِ اللهِ ، وَنَزَلَ الخَبَرُ عَلَيْهـا في ذُهُولٍ، أَأَكُونُ مِنْ نصيبِ النّبيِّ محمَّدٍ حقّاً؟ وَهَلْ هَذا صحيحٌ أَوَ أَسْتَحِقُّ هَذا كُلَّهُ؟

وَدارَتْ بِها الأَرْضُ وهـي لا تكَـادُ تُصَـدِّقُ!! وفي دقـائق سَيَنْتَهِي الأَمْـرُ !! زَوْجُها لاقى حَتْفَـهُ وَأَهْلُها قَدْ وَلَّـوُا الأَدْبارَ، وَلَمْ يَبْـقَ في المدينة يَهُودِيٌّ وَلا يَهوديَّـةٌ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّـونَ الذِّكْـرَ. وَإِنَّها لا تَمْلِكُ من الأَمْرِ شيئاً، وَلَيْسَ لِسَبايا الحروبِ أنْ يُفَكِّرْنَ طويلاً في مَصِيرِهِنَّ..

هَيَّا يـا رَيْحانَةُ ، هَيَّا إلى رسُولِ اللهِ ﷺ ، وَلَـنْ تَجِدي عِنْدَهُ إلا الخَيْرَ، وتذكَّـرَتْ قولَها منذ قليـل: (لا أَسْتَخْلِفُ بَعْـدَهُ أحداً)، فَماذا سيكـونُ مَوْقِفُهـا الآنَ من رسـولِ اللهِ؟ إِنَّها سمعتْ عَـنْ أَخْلاقِـهِ الكثيرَ ، وَقَدْ لا يُجْدي الآنَ عِنـادُها، وَلا تِـرْدَادُها مَـا قَالَتْهُ قَبْلَ سَماعِ الخبرِ الجديدِ .

لِكُلِّ بابٍ مِفْتاحٌ

ورأى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا أَصَابَ رَيْحَانَةَ مِنْ هَمٍّ وَحُزْنٍ، فكيْفَ لَهُ بمنْ يواسيها ويخفِّفُ عَنْها ؟ إِنَّهُ رسولُ اللهِ، وَهُوَ الكريمُ.. ولا يحبُّ أنْ تَبْقَى رَيْحَانَةُ في هَمِّهَا وَحُزْنِها، ولا بُدَّ مِنَ القيامِ بما يُنْسيها ما هي فيه .

تعالي يا أُمَّ المنذِر، فأنْتِ أهْلٌ لهذا المعْروفِ، وَادْخُلي يا رَيْحَانَةُ دَارَ أُمِّ المنْذِرِ لتجدي قَلْباً كبيراً يُسَكِّنُ مِنْ رَوْعِكِ، وَيُخَفِّفُ مَا نَزَلَ بِكِ .

وَبقِيَتْ رَيْحَانَةُ أَيَّاماً بمنْزِلِ أُمِّ المُنْذِرِ الصَّحابيَّةِ الجليلةِ، تَحْتَ رِعَايَةٍ كبيرةٍ، وَوَسْطَ عِنَايَةٍ لايُنْكِرُهَا أَحَدٌ، وَيَا لِلْقَلْبِ الكبيرِ حَقّاً !! وَسَلِمَتْ يَدَاكِ يا بِنْتَ قَيْسٍ، لَقَدْ كُنْتِ عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ رسُولِ اللهِ ﷺ بكِ، إذْ قدَّمَ إليكِ سَرِيَّتَهُ رَيْحَانَةَ لتعتني بها، وتُهَدِّئي رُوحَهَا وتُطَمْئِني قَلْبَها، وَها هي ذِي رَيْحَانَةُ تَشْعُرُ بالسَّكِينَةِ والهدوءِ وَتَنْسَى الموقِفَ الصَّعْبَ شَيْئاً فَشَيْئاً، وَتَسْتَعِدُّ لِتَنْظُرَ إلى عَيْني رسُولِ الله الذي لا بُدَّ وَسيأْتِي لأَخْذِها بعدَ الفراغِ مِنْ أُمُورِ الحربِ وإعادةِ الأمْنِ .

الحَياءُ صِفةٌ جميلةٌ

وَيطْرُقُ رسولُ اللهِ ﷺ البابَ عَلَى أُمِّ المنذِرِ، وَيَستأْذِنُ ليزورَ رَيْحانتَهُ الجميلةَ، وَتَنْظُرُ ريحانَةُ في هذا النَّبيِّ الكريمِ، ولم تتمالَكْ أَنْ أَطرَقَتْ رَأْسَها حَياءً وَأيَّ حَياءٍ !! لَقدْ رَأَتِ الوَقارَ والعِزَّةَ والنَّفْسَ الرَّفيعةَ الغنيَّةَ، وَرَأَتِ الذي يملكها الآن بِجلالِهِ وَهَيْبَتِهِ وَسُمُوِّ طَلْعَتِهِ، فَاسْتَحْيَتْ مِنْ صَاحِبِ القَلْبِ الكبيرِ، وَلجأَتْ إلى ناحيةٍ مِنَ الدَّارِ تَسْتَتِرُ فيها، فَاسْتَدْعَاها رَسُولُ اللهِ، فتَقَدَّمتْ مِنْهُ بخطواتٍ مُتَثَاقِلَةٍ لا تَدْري ما تَصْنَعُ؟ فَلَمَّا حَضَرَتْ بيْنَ يَدَيْهِ لاطَفَها، وَسَكَّنَ رَوْعَها.

نَظَرَتْ إليهِ مِنْ جديدٍ، وَعَقَدَ لِسانَها الحياءُ مَرَّةً أُخْرى، وَكَادَتْ أَنْ تَهْرُبَ إلى الزّاويةِ ثانيةً، ولكنْ !! إلى متى وفيمَ هَذَا التَّرَدُّد؟

أَقْبلي يا رَيْحانَةُ، وَانْظُري نَظْرَةً حانِيةً، وَافتحي قَلْبَكِ إلى حاضرٍ هُوَ خَيْرٌ لكِ من ماضيكِ، وانْتَظِري كُلَّ السَّعادَةِ مِنْ رَسُولِ اللهِ، وَغداً سَتُثْبِتُ لَكِ الأيامُ صِدْقَ هذا، فَلا يَأْخُذَنَّكِ الحَياءُ، وَابْتَسِمي للحياةِ الجديدةِ.

الإِسلامُ طريقُ السلامِ

وَمِنْ جمَيلِ المعـاملةِ النَّبويَّةِ وَحُسْنِها، أَنَّ رَسُـولَ اللهِ قَدْ قَدَّرَ لها مـاضيها، وَرَأَى أنْ يُسَهِّـلَ لها الـواقـعَ الجديدَ لِتَرْضَـى بـهِ وَيَسْكُنَ قَلْبُها إلى الأبَدِ.

اقْتَرَبَ مِنْها وهي اليهـوديَّةُ وَعَرَضَ عَليها الإِسْـلامَ، أَتَدْرُونَ لماذا يا أحِبَّتي؟ سَوْفَ تَعلمون وَتُدْرِكُون الجوابَ إذا فَهِمْتُمْ أَنَّ الإِسْلامَ يَفْتَحُ القُلُوبَ، وَيَشْرَحُ الصُّـدُورَ، وَيُخَفِّفُ عَنِ النَّفْسِ كُلَّ المتاعِبِ وَالمَصَاعِبِ.

وَلَعلَّ الـرَّسُول ﷺ بهذا أَرَادَ أنْ تَعِيشَ مَعَـهُ بِسَلامٍ في دَائِرَةِ المُسْلِمين. وَمَا كَـانَ لِيَنْتَظِرَ مِنْها الـرَّفْضَ!! نَعَمْ، لَقَـدْ أَبَتْ أَنْ تُسْلِمَ يَـا أَحبَّتي، وَأَصَرَّتْ عَلَى يهوديَّتها، فَغَـادَرَهَا النبـيُّ، وَقَدْ تَأَلَّمَ لهذا السُّلوكِ مِنْ فَتَاةٍ عـاقِلَةٍ لا يَشْفَعُ لها إلا أَنَّها قَدْ تَرَاءَتْ أَمَامَها صُورَةُ الماضي حَيْثُ العزَّةُ والعَـظَمَةُ مَعَ زَوْجِها الحكَم، وَأَصَالَـةُ النَّسَبِ والحَسَبِ، وَلَيْـسَ مِنَ السَّهْلِ أَنْ تَنْسَـى ذَلْكَ بسهـولَةٍ، وَإِنَّ الشَّيْطَـانَ جاهِـزٌ دَوماً ليـذكِّـرَها بكـلِّ أَيَّامِهـا السابقةِ عندَ أبيها وَزَوْجِها.

الرَّسُولُ صورةٌ محبَّةٌ

ولا بُدَّ للعَقْلِ مِنْ أَنْ يُثْبِتَ سُلْطَانَهُ أَمَامَ الشَّيْطَان.

مَالَكِ يا ريحانةُ؟ مَالَكِ تبْعُدين عَنْهُ وَتَصدِّينَ عَنْ قبولِ دَعْوَتِهِ؟ أَلَمْ تُشَاهِدِي منه ما يَدْعُوكِ إلى الإِيمان بِهِ؟ ما لهذا يَنتَظِرُكِ المُسْتَقْبَلُ، هَيَّا فاطْرُدي عِنادَكِ وكِبرياءَكِ وإِصْرَارَكِ على الكُفْرِ، وَافتَحي قَلْبَكِ للرَّسُولِ وللإِسْلامِ، وَأَسْلِمي يُكْرِمْكِ اللهُ وَرَسُولُهُ، وتكوني أُمّاً للمؤمنين أَمْثَالَ عَائِشَةَ وَزَيْنَبَ وَحَفْصَةَ، هَيَّا يا رَيْحَانَةُ، وَلا تَجْعَلِي فِي نَفْسِ رَسُولِ اللهِ كُرْهاً لَكِ.

وَمَالَ القَلْبُ أخيراً، وَتَفَتَّحَتِ الرَّيْحَانَةُ على دينٍ جديدٍ، وَاسْتَجَابَتْ نَفْسُها لما دُعِيَتْ إلَيْهِ، وَنَطَقَتْ بكلمةِ التَّوْحِيدِ، وَشَهَادَةِ الحقِّ وَالصِّدْقِ فَزَادَتْ مِنْ جمالها، وعِطرِها، وَمَكانتِها. ومَرْحَباً بها، إذْ سَيَفْرَحُ الرَّسُولُ وَأيُّ فَرَحٍ!! يا رَسُولَ اللهِ، قَدْ أَسْلَمَتْ رَيْحَانَةُ وَآمَنَتْ بِكَ..

الحَمْدُ للهِ وَهَنيئاً لها إيمانها وكمالها في الدِّين والدُّنيا معاً..

بُعْدٌ عَن الغيْرَةِ

وَيُرِيدُ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يُكْمِلَ مَعْرُوفَهُ مَعَ رَيْحَانَةَ إِذْ أَسْلَمَتْ، وَهَا هُوَذَا يَعْرِضُ عَلَيْهَا أَنْ يُعْتِقَهَا وَيَتَزَوَّجَهَا، فَأَبَتْ، وَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، بَلْ تَتْرُكُنِي فِي مُلْكِكَ، فَهُوَ أَخَفُّ عَلَيَّ وَعَلَيْكَ.

وبقيت في مُلْكِهِ رَيْحَانَةً جَمِيلَةً تفيضُ بالحبِّ والعطاءِ لِمَنْ أَكْرَمَهَا وَأَحْسَنَ إليها، وَنَزَلَتْ مِنْ نَفْسِ الرَّسُولِ أَحْسَنَ مَنْزِلَةٍ، تَقُومُ بكلِّ ما يُرْضِي رَسُولَ اللهِ وَمَا يُقَرِّبُها مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وتعالى..

لَقَدْ رَأَتْ نَفْسَهَا فِي مُلْكِ الرَّسُولِ أَخَفَّ مِنْ أَنْ تُصْبِحَ كَسَائِرِ زَوْجَاتِهِ، وَخَافَتْ أَنْ تَأْكُلَهَا الغيرَةُ أَوْ تَأْكُلُهُنَّ، ففيها كُلُّ دَوَاعِي هذا الأمرِ، وَلا يَخْفَى ذَلْكَ عليهنَّ: (وجمالُها واضحٌ، ومكانتُها معروفَةٌ، وتكريمها عظيمٌ)..

أَحْسَنْتِ يا رَيْحَانَةُ وَسَتَبْقَين رَيْحَانَةً في تاريخ السِّيرةِ العطرة إذا ما ذُكِرَت أُمَّهات المؤمنين، وبارَكَ اللهُ لَكِ رَأْيَكِ الذي رَأَيْتِهِ.

رَيحانَةُ الإِسلامِ لا تَذْبُلُ

وَلَمْ تَطُلِ الأَيَّـامُ بالمُسْلِمَةِ الكريمة رَيْحانَة..

لَقَدْ عاشَتْ عِنْدَ رسُـول الله سنواتٍ قلائل، وَخَتمتْ حَياتها على مَرأى من الـزَّوْجِ الحبيبِ، فَلَقَدْ ماتَتْ عَقِبَ رُجُوعِهِ مِنْ حجَّةِ الوَداعِ بقليـلٍ، وَكَأَنَّها وَدَّعَتْهُ قَبْلَ أَنْ يُوَدِّعَ أُمَّتَـهُ، وَبكاها رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَدَفَنَهـا إلى جوارِ الزَّوْجَةِ (أُمِّ المسـاكين) التي تذكرون قِصَّتها واسْمُها (زَيْنَبُ بنْتُ خُزَيْمَة).

رَحِمَ اللهُ رَيْحانَةَ، وَرَضِي عنها، وَسَلامٌ عليها مُؤْمنةً طاهرةً.

وإِنْ هِي مَاتَـتْ فـإِنَّها لم تكن لِتَذْبُـلَ رَيْحانَـةُ مِنْ تاريخ المُسْلمين والمُسْلِماتِ، وَلَقَدْ بقيتْ مُتَفَتِّحةً تَفِيضُ مِنْ عِطْرِهَا بِمِثْلِ ما فَاضَتْ بِهِ قَبْلَ وَفاتِها.

هَذِهِ هي حكـايةُ رَيْحانَةَ، جَعَلَكُمْ اللهُ رَيـاحين هَذا الكوْنِ، وَأَيَّدَكُمْ بعَونٍ مِنْهُ حَتَّى تُقدِّمُوا عِطْرَكم وأريجكُمْ إلى الآخرين، وَأَنْتُمْ فَخُورون بذلك.

والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

جويرية

سيدة بني المصطلق

بسم الله الرحمن الرحيم



دَارُ الهُدَىٰ لِلنَّشرِ وَالتَّوزيع

الرياض: طريق صلاح الدين الأيوبي - حي الملز - بالقرب من إدارة مكافحة المخدرات
هاتف: ٤٧٧٧٥٤٤ - ٤٧٩٤٥١٧ - ناسوخ: ٤٧٧٦١٣٩ - ص.ب: ٢٥٥٩٠ - الرياض ١١٤٧٦

العِلمُ لا يَنتَهِي

في هَـذِهِ الحَلَقَةُ يـا أحبَّـائي سَنَعِيـشُ مَعاً قِصَّـةً حُلْوَةً عَـنْ (جُوَيْرِيَةَ) ..

اسْمٌ جَميلٌ بلا شَكٍّ. ولصَاحِبَتِهِ حكايةٌ تَسْتَحِقُّ المَعْرِفَةَ ، لما فيها مِنْ عِبْرَةٍ وَحِكْمَةٍ، وَإِنَّ زَوَاجَ جُوَيْـرِيَةَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَدْ كَانَ لَهُ أَثَرٌ كَبيرٌ في الدَّعْوَةِ يا إِخوتي الصِّغَار ، لذلك تعالوا نَعْرِف مَـنْ هِيَ جُوَيْـرِيَةُ؟ وَمِـنْ أَيَّةِ أُسْرَةٍ؟ وَمَاذَا جَعَـلَ الإِسْلامُ مِنْهـا؟ وَلا تَنْسَوا أَنَّـنـا الآن قَدْ وَصَلْنـا إِلى سيرة الأُمِّ التَّـاسِعَةِ مِـنْ أُمَّهَـاتِ المُؤْمِنين، بَعْدَ أَنْ عَـرَفْنَـا ثمانيةً مِنْهُـنَّ. أَرَاكُـمْ تَتَذَكَّـرُونَ أَسْمَاءَهُنَّ: إِنَّهنَّ (خديجةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَسَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ، وَعَائِشَةُ بِنْـتُ أبي بَكْرٍ ، وَحَفْصَـةُ بِنْتُ عُمَـرَ بْن الخطَّـاب، وَزَيْنَبُ بِنْـتُ خُزَيْمَةَ أُمُّ المسـاكينِ، وَأُمُّ سَلَمَةَ هِنْدُ بِنْتُ أُمَيَّةَ، وَزَيْنَـبُ ابْنَةُ عَمَّةِ رسُولِ اللهِ ، وَرَيْحَانَةُ بِنْتُ زَيْدِ بْنِ عَمْرو). وَإِنَّنا لَنْ نَنْسى تَاريخَهُنَّ إِنْ شَاءَ اللهُ، جَعَلني اللهُ وَإِيَّاكُمْ مِنَ الذيـن يَدْرُسُونَ تاريخَ أُمَّتِهِمْ دِرَاسَةً تَحْمِلُ الخَيْرَ وَالفائِدَةَ وَحُسْنَ الفَهْمِ، وَكَـمْ هُوَ جَميلٌ عندما يَنْشَأ المؤمِنُ الصَّغيرُ عَلَى حُبِّ المعرِفةِ والفَهْمِ والدِّراسَةِ.

الحقُّ لا يَخْفىٰ[١]

جُوَيْرِيَةُ هَذِهِ لَمْ يَكُنْ اسْمها كَذلك، كَانُوا يُسَمُّونَها (بَرَّةَ)، وهي مِنْ بنـي المُصْطَلِق، وَقَدْ حَبـاها اللهُ بِمكَـانَةٍ رَفيعةٍ جَعَلَتْها سَيِّدَةَ القَوْمِ، زيادَةً على أَنَّها ابْنَةُ سَيِّدِهِم (الحارث بْنِ أبي ضِرارٍ).

وَتَمْتازُ بَـرَّةُ بأَنَّها فَتَاةٌ حباهـا اللهُ بوافرِ جمالٍ، وَنَعِمَـتْ بَيْنَ أَتْرابِها بحيَاةِ التَّرَفِ والـرَّفَاهية، وَحَسَـدَتْها الفتياتُ مِنْ قَـوْمِها ولا سِيَّما بَعْدَ أَنْ تَـزَوَّجَها ابْـنُ عَمٍّ لَها اسْمُـهُ (مُسَافِعُ بْنُ صَفْـوَانَ) حَيْث زَادَتْ شَرَفاً وَعِزَّةً وَسِيَادَةً.

وَقَـدْ سَمِعَتْ بَـرَّةُ مَعَ منْ حَـوْلها أَخْبَـارَ انْتِصَـارَاتِ الرَّسُـولِ الكريـمِ عَلَى أَعْدَائِهِ في غَـزْوَةِ الخَنْدَقِ، وَأَنَّـهُ قَدْ اسْتَـأْصَلَ شَـأفَةَ اليهودِ الذيـن غَدَرُوا بِهِ وَنَقَضُوا العَهْـدَ مَعَهُ، ثُمَّ هُوَ الآن يُـرْسِلُ جُيُوشَهُ لتَأْدِيـب العُصَاةِ من القبائل الذين حَالَفُـوهُ ثُمَّ غَدَرُوا بِهِ، وَيَبْعَـثُ بِرُسُلِـهِ إلى أنْحَـاء عـديدَةٍ يَـدْعُـو الآخَـرين إلى المحبَّـةِ والتآلُفِ.

سَمِعَتْ بَرَّةُ هَذَا، وَسَمِعَهُ أَبُوها الحارِثُ سَيِّدُ القَوْمِ، وَيا لها مِنْ أَخْبَار شَديدَةِ الوَقْعِ.

التَّجْرِبَةُ أَكْبَرُ بُرْهَانٍ

وَخَشِي والدُ الفتاةِ، إذْ رَأَى أَنَّ الإِسْلام لا بُدَّ وَسَيَمْتَدُّ إلى قَبِيلَتِهِ وَعَلى أَمْثَالها مِنَ القبائِلِ المشْرِكَةِ، وَساءَ بِهِ التَّفكيرُ إلى أَنْ يَسْعَى لتحريضِ قبائِلِ العَرَبِ وَجَمْعِ جُمُوعِهِمْ، لِيَخْرُجَ بهمْ إلى مُحَارَبَةِ محمَّدٍ على حين غرَّةٍ عَسَى أَنْ يَنَال مِنْهُ مَنَالاً .

وَبَلَغَ النَّبيُّ العظيمُ أَنَّ بني المُصْطَلِقِ يَعدُّونَ العدَّةَ وَيُبَيِّتُونَ نيَّةَ الغدْرِ ، فَخَرَجَ عَلَى عَجَلٍ بجيْشِ المُسْلمين وَلَمَّا يَسْترحْ مَعَ صَحَابَتِهِ بَعْدُ مِنْ أعْمالٍ مُرْهِقَةٍ وجهادٍ طويلٍ، وسُرْعَانَ مَا وَصَلَ الرَّسُولُ قَبْلَ أنْ يُتمَّ العدُوُّ استعدادَه، وَانْتَصَرَ عَلَيْهِمْ وَوَقَعَ بَيْنَ المُشركين الكثيرُ مِنَ القَتْلَى وَتَمَّ أَسْرُ العديد مِنْهُمْ عَلَى يَدِ المُسْلِمين، وَكَانَ مِنْ بَيْنِ القَتْلَى (مُسَافِعُ بْنُ صَفْوانَ) زَوْجُ بَرَّةَ، وَكَانَتْ هي مِنْ بَيْنِ السَّبَايا والأَسْرَى .

وَعَادَ الجَيْشُ المُسْلِمُ المنتصِرُ بَعْدَ أنْ فرَّقَ جُموعَ الكُفَّارِ، وَلَقَّنَهُمْ دَرْساً لَنْ يَنْسَوْهُ، وَلَمْ ينسوه حقّاً، وكَانَ في ذلك أكْبَرُ نَصيبٍ من الفائدَةِ .

لا نعلَمُ الغَيْبَ

هَـا هيَ ذي بَـرَّةُ تَسيرُ نَحْـوَ المدينة مَـعَ الأسِيرات اللَّواتي تَـمَّ أسْرُهُنَّ ، وَمَـنْ يَنْظُرْ إليهـا يرَ عَلَى وَجْهِهـا آثارَ حُـزْنٍ كبيرٍ ، وَهَمٍّ عظيمٍ لما تَتَوَقَّعُهُ مِنْ ذُلِّ الأَسْرِ ، وَتَـرْكِ الأهْلِ، وَمِنْ مَصيرٍ مَجْهولٍ يَنْتَظِرُهَا .

هي سَيِّـدَةُ القَوْمِ، وَابْنَةُ سَيِّـدِ القَوْمِ، وَزَوْجَةُ عظيـمٍ مِنْ عُظَمَاءِ القَـوْمِ !! أمّـا الآن: فهـي أسِيرَةٌ، وَأَيُّ أسْرٍ!! وَأَبُـوهَـا بعيـدٌ بَيْنَ الهارِبين، وَزَوْجُها قتيلٌ بَيْنَ جُثَثِ القَتْلَى الذين خَلَّفتهم المعركَةُ.. يا لَلْواقع الجديدِ!! أَيْنَ هي اليوم مِنْ مَكَانَةٍ لَمْ تَزَلْ تَتَراءَى صُورَتُها مَارَّةً أمَامَهـا؟ لَقَدْ كَانَتْ تَسْمَعُ عَنِ انْتِصَـارَاتِ مُحَمَّدٍ ، وَقَدْ رَأَتْ وَاحِـداً مِنْها، وَوَقَعَـتْ أسِيْرَةً نتيجةَ النَّصْرِ الـذي حَقَّقَهُ محمـدٌ في قِتَالِهِ ضِدَّ قَوْمِها وَأبيها .

مَـاذَا تَفْعَلُ؟ ومـاذا سَيَكُـون مصيرُها؟ هَـلْ سَيَفْتَـدِيها أبُوهـا الهارِبُ بـالمالِ؟ هَلْ سَيُكْـرِمُهـا المُسْلمـونَ رَيْثما يتمُّ الفـداءُ؟ أمْ يُعْتِقُونَها قَبْلَ ذَلك؟ .

الإِسلامُ لا يَعْشَقُ الرِّقَّ

وَتَعْلَـمُ بَـرَّةُ هَـذِهِ الأسِيرَةُ الحسْنَـاءُ أَنَّ الإِسْـلامَ قَـدْ سَمَحَ للأَسْرَى بِـإِعْتَاقِ أَنْفُسِهِمْ لِقَاءَ مَبْلَـغٍ من المال يُعْطِيهِ الـواحِدُ مِنْهُمْ لِمَنْ يملكُهُ، وَيُكاتِبُهُ فيه عَلى نَفْسِهِ، وَبذلك يُصْبِحُ حُرّاً، وَإِنَّ هَـذَا لَمِنْ كَـرَم الإِسْـلامِ وَشَرِيعـة السَّماءِ في فَـكِّ القُيُـودِ، والتَّخْفِيـفِ مِـنْ حَـالاتِ الـرِّقِّ والأَسْرِ النَّـاتِجة عـن الحروب والمعارِكِ .

مَا عَلَيْكِ يَـا بَرَّةُ إِذَنْ إِلا أنْ تُكاتبي (ثَابِتَ بْـنَ قَيْسٍ) الذي وَقَعْتِ في مُلْكِهِ، وَلكنْ يا للْمُفَاجأةِ!! إِنَّهُ يَطْلُبُ مِنْهَا مَبْلغاً لا طَاقَةَ لها بِهِ، وَلَقَدْ أَغْلى عَليها الفِدَاءَ، وَبَالَغَ فِيهِ مُبالغَةً شديدةً، فرأتْ وهي العاقِلَةُ أنْ تَلْجأَ إلى رَسُولِ المُسْلمين وَقَدْ عَرَفَتْ فيهِ الكَرَمَ وسُمُوَّ الخُلُقِ..

وَحقّاً.. فَلَيْـسَ لَهَا إلا بَيْتُ الـرَّسُولِ ﷺ ، وَإذا مَـا ذَهَبَتْ إلَيْهِ، فَإِنَّها سَتَجِـدُ هُنَاكَ بريقَ الأمـلِ وَسَيُفَرِّجُ الرَّسُول كُـرْبَتَها وَيُزِيل غَمَّها، وَمَا تَشْعُرُ بِهِ مِنْ مَهَانَةِ السَّبْيِ وَذُلِّ الأَمْرِ .

الكَرِيْمُ لا يَنْقَطِعُ جُوْدُهُ

ويَسْمَعُ الرَّسُولُ ﷺ صَوْتَ أُنْثَى تَسْتَأْذِنُ في لقائِهِ، إِنَّها تبكي، وَإِنَّ القَلْبَ لَيَتَأَثَّرُ لحُزْنِها وَبُكَائِها، دَخَلَتْ عَلَيْهِ بَرَّةُ يَرْتَجِفُ قَلْبُها، وَيَبْدُو انْفِعَالُها وَاضِحاً، وَنَظَرَ إِليها رَسُولُ اللهِ، فَرَأَتْ بَرَّةُ في عَيْنَيْهِ إِذْناً لَهَا في الكَلامِ ،فَأَخَذَتْ تَسْتَنْجِدُ بِهِ مما أَلَمَّ بها، وَتَسْتَعِينُهُ عَلَى أَمْرِها مَعَ ثَابِتٍ:

(يَا رَسُول اللهِ ، أَنَا بِنْتُ الحارِثِ بْنِ أبي ضِرَارٍ، سَيِّدِ قَوْمِهِ، وَقَدْ أَصَابني من البلاء مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْكَ ، فَوَقَعْتُ في السَّهْمِ لثابِتٍ بْنِ قَيْسٍ ، فَكَاتَبْتُهُ عَلَى نَفْسِي، فَجِئْتُكَ أَسْتَعِينُكَ عَلَى أمْري..)

وَفكَّرَ الرَّسُولُ الرحيم بِقَلْبِهِ الكريمِ، وَتَحَرَّكَ في نَفْسِهِ مَا عُرِفَ عَنْهُ من النَّجْدَةِ والنَّخْوةِ والكَرَمِ ، وَرَأَى أَنْ يَفْتَحَ عَلَيْها وَعَلَى قَوْمِها بابَ خَيْرٍ لا يُنْسى وَلا يُغْلَقُ .

لَقَدْ رَقَّ قَلْبُهُ لمَنْ جَاءَتْهُ، فَوَجَدَتْ بَرَّةُ عِنْدَهُ ذَلِكَ الخَيْطَ من الرَّجَاءِ، تَتَمسَّكُ بِهِ في مِحْنتها، لِيَعْصِمَهَا مِنَ الذُّلِّ والأَسْرِ والانْهيارِ.

نَعَمْ يا رسولَ اللهِ

قالَ لَها الرَّسُولُ الرَّحيمُ: فَهَلْ لَكِ في خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ؟

سَأَلَتْهُ في لَهْفَةٍ وَحيرَةٍ؟ وَمَا هُوَ يا رَسُولَ اللهِ؟

أَجابَها عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسلامُ: (أَقْضِي عَنْكِ كِتابَتَكِ، وَأَتَزَوَّجُكِ..)

جَوابٌ جَميلٌ لم تكُنْ لتَتَوَقَّعهُ بهذا الفَيْضِ مِنَ الكَرَمِ، سَوْفَ يُسَاعِدُها في الفِداءِ وَتَخْلِيصِ نَفْسِها مِنَ الأَسْرِ، ثُمَّ يزيدُ على ذلك بأكْرَمِ ما تَتَوَقَّعُهُ فَتاةٌ في مِثْلِ عمرِها وسِنِّها ومكانتِها، بأنْ عَرَضَ عَلَيْهَا الزّوَاجَ منها.. يالله!! حُرِّيَةٌ وَزَوَاجٌ وَشَرَفٌ؟..

تَأَلَّقَ وَجْهُها الجميلُ بفَرْحَةٍ عامِرَةٍ، وَهَتَفَتْ وهي لا تكَادُ تُصَدِّقُ: (نعم يا رَسُولَ اللهِ)، وَهُنا قَالَ النبيُّ ﷺ: (قَدْ فَعَلْتُ).

وَانْصَرَفَتْ بَرَّةٌ به بِنَفْسٍ راضيةٍ مطمئِنَّةٍ، ويا سُبْحانَ اللهِ! مَنْ كانَ يَدْري أنَّ مغالاةَ ثابتٍ في الفِداءِ سَتَكُونُ مِفْتَاحَ بابِ هَذا الخيرِ كُلِّهِ؟

لا مَجالَ للتَّكْذيبِ

وَمَهْمَا سَعَى أهْلُهـا في الخَيْرِ لها ولفِكاكِهـا مِنَ الأسْرِ ، فَلَـنْ يَصِلُوا إلى كَرَمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَهَـا هُوَ ذَا الحارِثُ سَيِّدُ القَوْمِ يعْمَلُ على اسْتِرْدَادِ ابْنَتِـهِ وَفِدَائِها بأَسْرَعِ ما تُمَكِّنُـهُ ظُرُوفُـهُ مِنْ ذَلِـكَ ، وَسَارَ بِـالإِبِـلِ يَفْـدي بِها بَرَّةَ ، وَدُهِـشَ الحارِثُ أَشَـدَّ الدَّهْشَـةِ لما رآهُ مِنَ الرَّسُـولِ الكريم، وَلَمْ يَسْتَطِعْ إلا أَنْ يَهْتِفَ مُسْلِماً: (أشْهَـدُ أَنْ لا إلـه إلا الله، وَأَنَّــكَ مُحَمَّـدٌ رَسُـولُ اللهِ)، وَتَحَوَّلَ القَلْبُ إلى مَنْبَعٍ للخَيْرِ ، وَسَأَلَـهُ الرَّسُـولُ أنْ يُخَيِّرَ ابْنَتَهُ بَرَّةَ، فَأَجَابَهُ الحارِثُ إلى ذَلِكَ، وَسُئِلَتْ بَرَّةُ فيما تَخْتارُ ، فقَالَتْ: (اخْتَرْتُ رَسُولَ اللهِ)، وَرَفَضـتِ العوْدَةَ مَـعَ أبيها.. وَأَسْلَمَـتْ بَـرَّةُ، وَأَعْتَقَهـا رَسُـولُ اللهِ، وَسَمَّاهَــا اسْماً آخـر جميـلاً، أراكـم حَفِظْتُمُوه منْ أَوَّل الحديث،وَهُوَ (جُوَيْرِيَةُ)..

الحمـدُ للهِ الـذِي يَهْدي القُلـوبَ إلى أحْسَنِ الأعمالِ ونُـورِ الإِسلام .

ما أكرمَ الإيمانَ!!

وَلَمْ يَقفِ الأمْرُ عِنْدَ إيمانِ جُوَيْرِيَةَ وَوَالِدِهَا فَحَسْبُ، بَلْ كَثُرَ المُسْلِمُون مِنْ بني المُصْطَلق، ولا سيما بَعْدَما أَعْتَقَ الصَّحابَةُ أسْراهُمْ مِنْ قَوْمِ الحارِثِ إكْراماً للمُصاهَرَة التي حَدَثَتْ بَيْنَ الرَّسُول ﷺ وبني المُصْطلقِ، وَبِهَذا كَانَ زَوَاجُ جُوَيْرِيَةَ مُباركاً في ذَاتِهِ وآثارِهِ ونتائِجِهِ، حَتَّى إنَّ عَائِشَةَ ضرَّةَ جُوَيْرِيَةَ قَالَتْ في ذلك: (لا أعْلَمُ امْرَأَةً أعْظَمَ بركَةً على قَوْمِها مِنْها).

ما أَكرمَكِ يا جُوَيْرِيَةُ!! وَمَا أَكْرَمَ زوْجَكِ الكريمَ!! وما أعْظَمَ ما أدْخَلْتِهِ على قَوْمِكِ مِنَ الخيْرِ والنِّعْمَةِ والبركَةِ، فَلَقَدْ نَالَ أهْلُك وَقَوْمُك الحريَّة بَعْدَ ذُلِّ الأسْرِ وَنَالُوا شَرَفَ المُصاهَرَةِ لِرَسُولِ اللهِ، وَنَالُوا فَوْقَ كُلِّ ذَلِكَ نعمةَ الإِسْلامِ، وَبِذَلِكَ حَظُوا بالدنيا والآخرة معاً، والحمدُ للهِ على كُلِّ هَذِهِ النِّعَمِ.

هكذا يا أحبَّتي اسْتَعَادَتْ جُوَيْرِيَةُ مَكَانَتَهَا وزيادة، وَسَادَتْ قَوْمَها قَبْلَ الإِسلام وبَعْدَهُ، وأعزَّها المُسْلمونَ في المدينةِ حَيْثُ اسْتَبْشروا بها خَيْراً عظيماً.

مَصْيدَةُ الغيرةِ مُحْكَمَةٌ

وَمَا أَنْ دَخلَتْ جُـوَيْرِيَةُ إلى مَسَاكِـنِ أُمَّهات المُؤْمنين حَتَّى رأَتْ عَائِشَـةَ وَسَطَ غيرةٍ شديدةٍ، وَتَـذَكَّرَتْ يَوْمَ قَابَلَـتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَسْتَنْجِدُهُ في أمْرِ ثَابِتٍ بْنِ قَيْـسٍ ، حَيْثُ كَانَتْ عائِشَةُ أوَّلَ مَنْ رآها مِـنْ زَوْجَاتِ الرَّسُول، ولعلَّها نَظَرَتْ إلى جُـوَيْرِيَةَ نَظْرَةَ مَنْ تَوَدُّ مَنْعَهَا مِن الدُّخُولِ ، أو حَالَتْ بَيْنها وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ، ثُمَّ سَمَحَتْ لَها كَارِهَةً بَعْدَ أنْ أذِنَ الرَّسُولُ ﷺ بذلك..

ما لِعَائِشَةَ وَقْتَذَاكَ وَقَدْ رَأَتْ فيها امْـرأَةً جميلةً مَلاَّحَةً ، تَأْخُذُ بمجـامِعِ القَلْـبِ، وَتَشْرَحُ الصَّـدْرَ وَتُبْهِـجُ النَّفْـسَ في نَحْـوِ العِشْرِين مِنْ عُمُرِهَا ؟

إِنَّها الغيرةُ وَلا شَكَّ لَتَظْهَـرُ اليَوْمَ بوُضُوحٍ بَعْـدَ أَنْ أصْبَحَتِ الأَسِيرَةُ الحَسْنَاءُ حُـرَّةً مُسْلِمَةً مِـنْ ضَرَائِرِها الجميـلاتِ ، وَقَدْ حَكَتْ عَائِشَةُ هَذَا عَنْ مَوْقِفِها مِـنْ جُوَيْرِيَةَ فَقَالَتْ: (وَكَانَت امْرَأةً حُلْوَةً مَلاَّحَةً لا يراها أَحَدٌ إلا أَخَذَتْ بنَفْسِهِ فأتَتْ رسُولَ اللهِ تستعينه في كتابتها) .

والغيرةُ تَشْتَدُّ وَتَضْعُفُ

وَمَعَ هَذِهِ الغيرةِ كُلِّها، فَقَدْ كَانَتْ جُوَيْرِيَةُ إلى جانِبِ عائِشَةَ إذا ما حَزَبَ زَوْجَاتُ الرَّسُولِ أمْرٌ مُشْتَرَكٌ ، فَقَدْ صَاحَبَتْ عائِشَةَ وَحَفْصَةَ وَزَيْنَبَ ابْنَةَ عمَّةِ الرَّسُول ﷺ عِنْدَما ذَهَبْنَ إلى دارِ حارثة بنِ النعمانِ متخفِّياتٍ لمشاهَدَةِ ضَرَّتهنَّ الجديدة (صفيَّة). وعِنْدَ رُؤْيتهنَّ لَهَا أَبْدَتْ كُلُّ واحِدَةٍ رَأْيَها ، فقالتْ عائِشَةُ : ما أرى هَذِهِ إلا سَتَشْغَلُنا عنِ الرَّسُول ، فَسَارَعَتْ جُوَيْرِيَةُ تقول بلهجَةِ الخبيرِ الواثِقِ، تُطمْئِنُ عائِشَةَ، وَتَحُدُّ مِنْ غيرتها، وَتُهَوِّنُ عليها الأمْرَ قائلةً: (..إِنَّها مِنْ نِسَاءٍ، قلَّما يحظَيْنَ عِنْدَ الأَزْوَاجِ..).

ولكنْ عِنْدَما تَبْدُو في الأُفُقِ ثَوْرَةُ غيرةٍ عارمةٍ لدى عائِشَةَ، كانَتْ جُوَيْرِيةُ من المشمولات بقَوْلها إذا ما قَالَتْ: (لَمْ يَتزَوَّجْ ﷺ بِكْراً سِوَاي)، وإِنَّ عائِشَةَ لترى نَفْسَهَا مَزْهُوَّةً فخورةً بذلك علَى ضَرَائِرها بأنَّها الزَّوْجَةُ الوحيدَةُ البِكْرُ التي تَزَوَّجَها رَسُولُ اللهِ ﷺ ، وأَنَّ زَوْجَاتِهِ أرَامِلُ وَجُوَيْرِيَةُ مِنْ بَيْنِهِنَّ..

العِبادَةُ تُزيِّنُ الأعْمالَ

وعاشَتْ جُوَيْرِيَةُ في بَيْتِ الرَّسُولِ ﷺ عيشَةً رضيَّةً هانِئَةً، وَرأى فيها الرَّسُولُ الكريمُ ﷺ زَوْجَةً مِنْ خيرَةِ الأزْوَاجِ، وَمُسْلِمَةً مِنْ أفْضَلِ المُسْلِماتِ، وَكَانَتْ حَيَاتُها في حياةِ زَوْجِها العظيمِ حَيَاةَ المُؤمنةِ الخاشعةِ، التي عرَفَتْ حُقُوقَ اللهِ عليها. فَخَشَعَ قَلْبُها، وَسَبَّحَتْ أطْرَافُها، وَسَجَدَتْ للربِّ الذي تَخْشَعُ لَهُ القلوبُ.. وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَيَذْكُرُ لَها تَعَبُّدَها وَخُشُوعَهَا، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِها عِنْدَ صَلاةِ الْفَجْرِ، وَيتركها وهي تُصَلِّي وَتَتَعَبَّدُ، ثُمَّ يَمُرُّ عليها إذا مَا ارْتَفَعَ الضُّحَى فَيجدُها كما تَرَكَها، تُصَلِّي وَتَتَعَبَّدُ، فَيَحْمَدُ مِنْها ذَلِكَ، وَيُقْبِلُ عَلِيْها يُرْشِدُها بما تَسْتَطيع به أنْ تُشْبع رَغْبَةَ نَفْسِها في العبادَةِ وَتَسْبِيحِ اللهِ سُبحانَهُ وتعالى.

ما أكرمَكِ يا أُمَّ المُؤْمنين!! أَسْلَمْتِ وَحَسُنَ إِسْلامُكِ، وأصْبَحْتِ في الصَّفِّ الأوَّلِ مِن العابداتِ الصَّالحاتِ الطَّاهراتِ.. وَلَيْسَ غريباً على زَوجَةٍ من زَوْجَاتِ الرَّسول أنْ تكونَ مِثْلَ هَذَا وزيادة.

صفحةٌ مميَّزةٌ

وَاسْتَمَرَّتْ جُوَيْـرِيَةُ عَلَى هَذَا، وَعَاشَـتْ بَعْدَ وَفَاةِ الرَّسُول ﷺ على ما كَـانَتْ عليه مِـنْ حُسْنِ العبادةِ وَخُشُـوعِ القَلْبِ، وَوَافَـاها الأجَـلُ بَعْدَ مُنْتَصَـفِ القَرْنِ الأوَّلِ للهجْـرَةِ ، وَصَلَّى عَلَيْها مَرْوَانُ بْنُ الحَكَمِ والي المدينة المنوّرةِ زَمَنَ مُعَاوية، وَدُفِنَتْ بالبقيع بجوارِ مَنْ سَبَقْنَها مِنْ أُمَّهاتِ المُؤْمنين .

وَعُـرِفَتْ في تـاريـخِ الإِسلام بجُـوَيْـرِيةَ أُمِّ المؤمنين ، التـي أدْخَلَتْ عَلَى قَـوْمِها مـن البركَةِ والجودِ والعَطـاءِ مَا لَمْ يُـدْخِلْهُ أحَدٌ غَيْرُها على قَوْمِهِ .

لَقَدْ حَمَلَـتْ بَيْنَ جَنْبَيْها نَفْساً عظيمـةً ، فَأَعْظَمَ اللهُ مَكَـانَتَها وَثَوابها . رَحمكِ اللهُ يـا أُمَّنَا ، وَرَضي عَنْكِ كُـلَّ الرِّضـا، وَجَعَلنا مِثْلَكِ مِنْ عِبادِهِ الخاشعين ، والمتعبِّدين الذين يُشْبِعون رغَبَاتِ نُفُـوسِهِمْ في العبـادَةِ والتَّسْبِيـحِ، فيحْسُنُ بـذلـكَ إسْلامُهُـمْ وإِيمانُهُم، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين..

حَذارِ من المُغْرِضين

في هَذِهِ الصفحةِ الباقيةِ أُحبُّ أنْ أُبَيّنَ لكم شيئاً هامّاً يا أحبَّائي:

قد يقول لكمُ البعضُ مِنْ أعْـداءِ الإِسلامِ : (إِنَّ رسولَكُمْ كانَ قَدْ تَزَوَّجَ عَدَداً كبيراً من النِّساءِ، وَإِنَّهُ قَدْ فَعَـلَ هَذا حُبّاً في الدُّنْيا وَمَلَذَّاتِها وَشَهـواتِها) ، وَإِنِّي أطْلُـبُ مِنْكُـمْ أيُّها الصِّغـارُ أَنْ لا تُنْكِـروا زَوَاجَ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ نِساء عديداتٍ ولكنْ عليْكُمْ أَنْ تَقُولوا لمن جاءَ يَتَّهِمُ رَسُولَنا بأَسْبابٍ كاذبةٍ لزواجِهِ:

إنَّ رَسُولَنا الكريم لَمْ يَكُنْ فيه حُبٌّ للإكثارِ مِنَ النِّساءِ في بَيْتِهِ، وَلَوْ أرادَ ذَلِكَ لَفَعَلَ وَهُوَ في مَكَّةَ، وَمَا نَعْلَمُ إلا أَنَّهُ قَد اكْتَفَى بخديجةَ زَوْجَةً لَهُ مَدىٰ رُبْعِ قَرْنٍ من الـزَّمَانِ، وما فَكَّرَ بالزَّوَاجِ بَعْدَ مَـوْتِ خديجةَ إلا بَعْدَ أنْ شَعَرَ بحاجةٍ لمن يَعْتَني بتربية صغيرتِهِ فاطمة، وَإِنَّ ما كانَ مِنْ زَواجِهِ بعدَ ذلكِ لم يكُنْ بِدافِـعِ حُبِّ الشَّهْوَةِ والنّساء وإِنما لغـاياتٍ أجَلّ وأسْمىٰ: كـإِكْرَامِ أرْمَلَةِ شهيدٍ، أو تكريم أسيرةِ حَرْبٍ، أوْ فَتْحِ بابِ مُصَاهَرَةٍ يتقرَّبُ به مِنْ خُصُومِهِ محبَّةً وإِلفةً.

وَقَدْ كَانَ لزَواجِهِ مِنهُنَّ ما يُبَرِّرُهُ في زَمَنِ أحْداثٍ كبارٍ تَشْغلُ بالَهُ وَجِهادٍ طويلٍ يَمْلأُ وَقْتَهُ .

صَفِيَّة

عقيلة بَنِي النَّضِير

بسم الله الرحمن الرحيم



دَارُ الهُدَى لِلنَّشرِ وَالتَّوزيع

الرياض: طريق صلاح الدين الأيوبي - حي الملز - بالقرب من إدارة مكافحة المخدرات
هاتف: ٤٧٧٧٥٤٤ - ٤٧٩٤٥١٧ - ناسوخ: ٤٧٧٦١٣٩ - ص.ب: ٢٥٥٩٠ - الرياض ١١٤٧٦

أَضَلَّهُ اللهُ على عِلْمٍ

صفيَّةُ.. اسمٌ جديدٌ ، لزَوْجـةٍ جديدةٍ، نتَعرَّفُ عَلَيْها بَيْنَ أُمَّهاتِ المؤْمنين ، كَانَتْ تَعيشُ في المدينَـةِ مَعَ أهْلِها في بَني النَّضِيرِ ، قَبْلَ مَقْـدمِ الرَّسُـولِ الكريـمِ إلى يَثْرِبَ مُهَـاجراً، وَصَفِيَّةُ هَـذِهِ مِنْ أُسْرَةٍ شَهيرةٍ بَيْنَ يَهُودِ المدينَـةِ ، وهي ابْنَـةُ حُيـي بْنِ أخْطَـبَ العدوِّ الأوَّلِ لمحمَّـدٍ بَيْنَ أعدائِهِ داخِـلَ صُفُـوفِ المُنافقين واليَهـودِ ، وَلَعلَّكُـمْ سمعتُـمْ باسْمِـهِ في تاريـخِ سيِّدنا محمَّـدٍ ضدَّ المشركين والكفَّـارِ ، ولا سيما بَعْدَ غَزْوَة أُحُدٍ وَأَثْنَـاءَ غَزْوَةِ الأَحْزَابِ (الخَنْدَقِ) وَإِنَّهُ مـن الذين عَرَفُوا صِدْقَ الرَّسُولِ وصوابَ دعوتِهِ ، لكنَّهُ لم يَكْتَفِ بِعَدَمِ طـاعتِـهِ والخروجِ عَلَيْـهِ والنُّفُـورِ مِنْـهُ ، بَـلْ زَادَ على ذلـك بمعانَدَتِهِ لَهُ ، وَتَدْبِيرِ وتأْليبِ النَّاسِ عَلَيْهِ .

وكانَتْ صَفيَّةُ ترى والِدَهَا يَفْعَـلُ هَذا برغمِ العُهُودِ التي عَقَدَها محمَّدٌ مَعَ يهودِ المدينـةِ ، والموادعات التي وادَعَهُمْ، وَأَمَّنَهُم فيها على حياتِهِم وأمواهِم وأراضيهم وأملاكِهِم ..

العُقوبةُ مِنْ جنْسِ الذَّنْبِ

وتَعْلَمُون يا أَحبَّتي الصِّغار أَنَّ اليهودَ في يَثْرِبَ قَدْ لاقوا جَزاءَهُمْ بَعْدَ أَنْ نَقَضُوا العَهْدَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَبَنو قَيْنُقَاع حَقَّ عَلَيْهِم الطَّرْدُ بَعْدَ غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَبَنُو النَّضيرِ تَبِعُوا سابقيهم بَعْدَ غَزْوَةِ أُحُدٍ وَبَنُو قُرَيْظَةَ لم يجدوا مَخْرجاً مِنْ غَدْرِهِم وَعَداوتِهِمْ سِوى الموتِ بَعْدَ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ.

وانْتَهَى اليهودُ مِنَ المدينة، وَتَجمَّعَتْ أَشْتَاتُ مَنْ طُرِدَ مِنْهُم في خَيْبَرَ مَعَ يَهُودِ ذَلِكَ المكانِ، ولم يَأْمَنِ الرَّسُولُ ﷺ جانبَهُم أَيْضاً خارجَ المدينةِ، فَقَدْ شَكَّلُوا في خيبرَ مَصْدَرَ خَطرٍ كبيرٍ للغَدْرِ والخيانَةِ.

وَتَناهى إلى الأَسْماعِ مَقْتَلُ حُيَي بْنِ أَخْطَبَ سَيِّدِ بني النَّضيرِ والذي كَانَ يُحَرِّضُ بني قُرَيْظَةَ قَبْلَ مَوْتِهِمْ ضِدَّ مُحَمَّدٍ، وَأَدْرَكَتْ صفيَّةُ أَنَّ أَباها الذي كانَ يَعْرِفُ الحقيقةَ قَدْ ظَلَّ حقّاً على عَداوَتِهِ لِمُحَمَّدٍ حتَّى قَتَلَتْهُ هذِهِ العداوَةُ وَقضَتْ عليهِ، ولقي بذلك جزاءَهُ عادِلاً وِفاقاً لا شَطَطَ فيه ولا جَوْرَ.

الرأيُ الصّائِبُ مَفْخَرةٌ

وَتَتَبَّعَتْ صَفِيَّةُ أَخْبَارَ المُسْلِمِينَ بَعْدَ مَقْتَلِ أبيهَا ، وَرَأَتْ جُموعَ اليهودِ في خيبرَ وقَدْ أكَلَهَا الغَيْظُ والحِقْدُ ، لكنَّ صَفيَّةَ التى شَبَّتْ إذْ ذاك ، وَأَصْبَحَتْ فتاةً حُلْوَةً يزيِّنُها عَقْلٌ رَاجِحٌ، وَيَطْبَعُها هدوءٌ محبَّبٌ ، وَتجمِّلُها محاسِنُ أَخَّاذَةٌ ، كانَتْ إلى جانِبِ ذلك لا ترى صواباً في تَصرُّفِ قَوْمِها وغيظِهم وحِقْدِهِمْ على محمَّدٍ ، وهي الآن إلى جانِبِ زَوْجِها (سَلام بن مُشْكم) الذي عَرَفَهُ يهودُ بني النَّضِيرِ واحداً مِنْ أوائِلِ أصْحَابِ الرَّأيِ والمشُورة فيهمْ ، لكنَّ سَلاماً لَمْ يَدُمْ لها طويلاً، فَقَدْ فَارَقَها وَمَاتَ ، ليتزوَّجها مِنْ بَعْدُ (كنانةُ بنُ الرَّبيع) ولمَّا تَتَجَاوزِ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمرِها ، ولم يكُن الزَّوْجُ الجديد ليشاركَها صَوَابَ رأْيِها ، فقد اقْتَرَبَتْ مِنْهُ ذاتَ يَوْمٍ تَقُصُّ عليه حُلُماً رأَتْهُ فما رَاعَها إلا يَدُهُ تَهْوي على وَجهِها، والشَّرُرُ يَتَطَايَرُ مِنْ عَيْنَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ لَها : (ما هذا إلا أنَّكَ تتمنّين مَلِكَ الحجازِ محمَّداً!!)، وَلَيْتَها لَمْ تَتَفَوَّهْ بِكَلِمةٍ !! لكنَّها قَدْ رَأَت الحُلُم ولا تعرف ما وراءه وَلَعَلَّهَا قَدْ تراءى لها المُسْتَقْبَلُ بما يخبئه مِنْ مصيرٍ محتومٍ !!

بَعْضُ الأَحْلامِ يَتَحَقَّقُ

وآنَ الأوانُ لكيْ يَتَحَقَّقُ الحُلُمُ، فها هو ذا رَسُولُ اللهِ قَدْ جاءَ والجَيْشُ معه . وَوَصَلَ خَيْبَرَ بحصُونِها ومعاقِلِها، وَسَمِعَ هُتافَه كِبارُ اليهودِ عنْدَما قال: (اللهُ أكْبَرُ ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ..)، وَحَقّاً خَرِبَتْ خَيْبَرُ كما قال الرسول ، فَقَدْ سَقَطَتْ حُصُونُها بَعْدَ قِتالٍ عنيفٍ حِصْناً بعد حِصْنٍ في أيدي المسلمين ، واسْتَوْلى المُسْلمون على الغنائم التي يَصْعُبُ عليها العدُّ والإِحْصَاءُ .. ، وكانَ زَوْجُ صَفيَّةَ (كنانةُ بنُ الربيع) على رأسِ القتْلَى من اليهود، بَعْدَ أَنْ أصرَّ على غَدْرِهِ وَكَذِبِهِ وخِيانَتِهِ . وَتَرَفَّقَ الرَّسُول ﷺ باليهودِ ، وأَكْرَمَهُمْ، بَعْدَ اسْتِسْلامِهِمْ، وعامَلَهُم بالحُسنى، وسيقَتْ إليه السَّبايا، وَبَيْنَهُنَّ عقيلةُ بني النَّضير (صفيَّةُ) التي لا تزال آثارُ اللَّطْمَةِ النَّكراءَ على وَجْهِهَا بَعْدَ أَنْ قَصَّتِ الحُلُمَ لِزَوْجِها المقْتُولِ، ورآها المُسْلِمون وهي ترى جُثَثَ أقارِبِها، فلا تتَمالَكُ نَفْسَها عن البكاءِ، ولكنَّهُ بكاءٌ في سكونٍ وصَمْتٍ، وَتَطَلَّعَتْ إلى حُلُمٍ قَرُبَ في الوصول إليها على حقيقتِهِ .

العاقِلُ يُكْرَمُ

وَتقَـدَّمَتْ صفيَّـةُ مِـنْ رسُـولِ اللهِ ﷺ في حُزْنِها الصَّـامِـتِ وجَزَعِها المكبوتِ، تُحاوِلُ أنْ تتَماسَكَ في حَذَرٍ شديدٍ ، وما مِنْ أَحَدٍ يعـرفُ فيمَ كانَـتْ تُفكِّرُ ، ورآهـا الرَّسُولُ ﷺ تَنْظُـرُ إليهِ نَظْرَةَ اسْتِعْطَافٍ واسْتِرحَامٍ تَلُوذُ بِهِ ليحميها وهي سَيِّدَةُ قومِها، وصاحِبَةُ النَّسَبِ العريقِ الذى يَنْتهي إلى مُوسَى وهارونَ عليهما السلام .

ثم أَلْقَـى الرَّسُولُ عليها نَظْـرةً رحيمةً، أَتْبَعَهَا بِـرِدائِهِ، يُلْقيه عليها، فكانَ ذلكَ إعلاناً بأنَّه قَد اصْطَفاها لِنَفْسِهِ، وَدَعَاهَا إلى الإِسْلام ، فَكَفْكَفَتْ صَفيَّـةُ دُموعَها ، وأَشْرَقَ وَجْهُها بـابتسامةٍ حُلْوةٍ ، وهي تقولُ يا رسُولَ اللهِ : لَقَدْ هَويتُ الإسلامَ وَصَدَّقْتُ بِكَ قبلَ أنْ تَدْعوني إلى ذلك .

وَيعتِقُها الرَّسُـولُ ﷺ ويتزوَّجُها، وتنالُ ما كـانَتْ تتمناه في الشِّرْكِ فكيْفَ بها إذا أَسْلَمتْ والحمدُ للهِ؟ .. لَقَـدْ تَحَقَّقَ الحُلُمُ وَزَادَ عليه إِسلامُها برغم مَقْتَلِ أبيها وَزَوْجِها وأَشْرَافِ قومِها ، فأكْرِمْ بها مِنْ عَرُوسٍ مُسْلِمَةٍ راجحةِ العقْلِ !!

كُلُّنا نَفْرَحُ لِفَرَحِكَ

وعلى بُعْدِ سِتَّةِ أميالٍ مِنْ خَيْبَرَ ، حَطَّ النبيُّ ﷺ رِحالَهُ يَبْغي الزِّفَافَ بعروسِهِ ، لكنَّ صَفيَّةَ أبَتْ على رسُولِ اللهِ ، وخافَتْ عليه قُرْبَ اليهودِ في ذلك المكانِ ـ وتَمَّ العُرْسُ في مكانٍ آخرَ اسْمُهُ (الصَّهْبَاءُ) بَعْدَ أنْ أعدَّتْ إحْدى الصحابيّاتِ العروسَ لرسولِ اللهِ ، وَزَيَّنَتْها لَهُ حَتّى بَدَتْ صبيَّةً من أوْضأ الصَّبايا وأَجْمَلِهِنَّ .

وَوَجَدَتْ صفيَّةُ في رسولِ اللهِ ﷺ الزَّوْجَ الأنيسَ ، الذي يَعْمَلُ على إسْعادِها، وَتَمَّ للرَّسولِ فرحتانِ: فرحتُه بانْتِصارِهِ في خَيْبَرَ ، وَفَرْحَتُه بزفافِهِ وَزَوَاجِهِ مِنْ صَفيَّةَ، وفرِحَ المسلمون لفرحِهِ، وَأَكَلُوا مِنْ وَلِيمَةِ نبيِّهم وقائِدِهِمْ، وعَظُمَت العروسُ في أعْيُنِهِمْ لحُسْنِ مَوْقِفِها مِنْ رَسُولِهم العظيمِ . وتَابَعَ الرَّكْبُ سَيْرَهُ عائداً نَحْوَ المدينةِ ، فاسْتَقْبَلَتْهم المدينةُ عِنْدَ الوُصُولِ ، ورأى الجميعُ ابْتسامةَ النبيِّ المنتصِرِ ، وَفَرْحَتَهُ وَرِضاهُ ، وحمدُوا رَبَّهُمْ على نِعَمِهِ ، وشَكَرُوه أنْ هَيَّأَ لِرَسُولهم بعدَ النَّصْرِ واحدةً مِنْ راجِحاتِ العَقْلِ، يقرِّبُ بها ما بَيْنَ الأُمَمِ وَأَهْلِ الأَدْيَانِ..

وَنَفْرَحُ لإِسلامِ الآخَرِيْن

وَنَـزَلَتْ صفيَّـةُ في بَيْـتِ حارثـةَ بـنِ النُّعمانِ ، حَيْثُ لم يَشَـأ الـرَّسُولُ ﷺ أنْ يـأتيَ بعَـرُوسِـهِ إلى دارِهِ أوَّلاً ، خَشْيَةَ مـا قـدْ يُصيـبُ نُفُوسَ زَوْجَـاتِـهِ مِنْ ألَمِ الغيرةِ ووَخْـزِهـا، لكنَّ نِسَـاءَ الأنْصَـارِ والمهـاجـريـن سرعان مـا تَسَـامَعْـنَ بجمـالِ صفيَّـةَ ووَضاءَتِها، فجئْـنَ يَنْظُرْنَ إلى جمالها، وكَانَـتْ عائِشَـةُ وحَفْصَةُ وزَيْنَـبُ وَجُوَيـريـة وَهُـنَّ ضرائرُ صفيَّةَ مِـنْ بيْن اللَّـواتي أتيْنَ لـرؤْيتِها، وَرأى الـرَّسُول عـائِشَةَ التي لم تَسْتَطِعْ كَتْـمَ غيرتِها، فَأَقْبَـلَ عَلَيْهَا يسألها مُلاطفـاً: كَيْفَ رَأيتِ يا شُقَيْراءُ؟ فقـالت تَأْكُلُها الغيرةُ: رَأَيْتُ يهوديَّةً، فقال الرسولُ ﷺ : لا تَقُولي هذا يا عائشةُ ، فإنَّها قَدْ أَسْلَمَتْ وَحَسُنَ إسْلامُهَا .

لم تُنكِرْ عَائِشَـةُ أنَّ صَفيَّةَ جميلةٌ جداً، لكـنَّ رسولَ اللهِ أحَبَّ أنْ يُعلِّمَها أدبَ الحديـثِ عَنْ ضرَّتها، ولو كـانَـتْ يهوديَّـةً قَبْلَ إسْلامِها، ومِنْ جميلِ صفاتِ المسلمِ أنْ يَفْرَحَ لإسْلامِ الآخرينَ وإيمانِهم .

شُروطُ الحَياةِ السَّعيدَةِ

والحقُّ يُقالُ: إنَّ صفيَّةَ بصفائِها وهُدُوئِها ورَجاحَةِ عَقْلِها قَدْ حَظِيَتْ عِنْدَ زَوْجِها بمكانةٍ تُحْسَدُ عَليها ، واسْتَطاعَتْ أنْ تُسالِمَ ضَرائِرَها وَتَعْمَلَ ما وَسِعَها لاكْتِسابِ وُدِّهِنَّ ، ونَيلِ رِضائِهِنَّ ، وزادَتْ على ذلك أنَّها أَظْهرَتْ كامِلَ الوُدِّ لتكْسَبَ عَطْفَ وَحُبَّ آلِ بَيْتِ الرَّسُولِ ﷺ، فها هِيَ ذِي تُهْدي إلى فاطِمَةَ الزَّهْراءِ ابنةِ الرَّسُولِ حِلْيَةً مِنَ الذَّهَبِ كانَتْ تمتلكُها ، وَلَقَدْ كانَ الرَّسُولُ مقابِلَ ذلكَ خَيْرَ حامٍ لها مِنْ حَسَدِ ضرائِرِها، وَخَيْرَ مُدافِعٍ عنها إذا ما ذَكَرْنَ أَصْلَها ودينَها الأوّلَ ، وبلطْفِهِ وحُسْنِ معاملَتِهِ وجميلِ قَوْلِهِ كانَ يطيِّبُ خاطِرَها ، ويهوِّنُ عليها الأمْرَ .

إنَّهُ لتَسامحٌ كريمٌ مِنَ الطَّرَفَيْنِ .. ومِنْ كلا الزَّوْجَيْنِ ، وَإِنَّها لَرِقَّةٌ وطيبُ معاملةٍ ، وما أَكْرَمَنا مَعْشَرَ المسلمين ، إذا اتَّخَذْنَا مِنْ ذلك طريقةً نتَعَلَّمُ بها كَيْفَ نعالجُ ما قَدْ يَعرِضُ أحْياناً من المُشْكلات ، ونحمدُ اللهَ أنْ جَعَلَ لنا قُدْوَةً حَسَنَةً في رسولِ اللهِ زَوْجاً وأباً ورَسُولاً ، وَنسأله أنْ يهدينا دَوْماً إلى كُلِّ خُلُقٍ فاضِلٍ.

الدِّفاعُ اللائِقُ

نَعُودُ إلى أُمِّ المُؤمنين صَفيَّةَ ، وَقبلَ أَنْ أزيدكم بها معرفةً قدْ يسْألني بعضكم: ألم يكُنْ رسُولُ اللهِ ﷺ يذْكُرُ لها شَيْئاً عَنْ عداوةِ والدِها وَزَوْجِها السَّابِقِ وَقومِها ؟

إنَّ النبيَّ الكريمَ يا أحبَّتي قَدْ كَانَ يُدافِعُ عَنْ صَفيَّة أَجْمَلَ دِفاعٍ، إذا ما نَالَ منْها أحَدٌ ، ومِنَ الأرْجَحِ أنْ لا يَرْضَى عَنْ نَفْسِهِ في إيذائِها بذكْرِ الماضي ، وَلَقَدْ ظَلَّ الرسولُ ما عاشَ لا يذكُرُ شيئاً لصفيَّةَ عَنْ عَدَاوَةِ أبيها حيي بْن أخْطَب ، ولا عَنْ نتائِجِ تلك العداوةِ وما سَبَّبَتْهُ مِنْ صُعُوباتٍ ، والرسولُ قَدْ رأى منها لَباقَةَ الطَّبْعِ وحُسْنَ التَّقَرُّبِ مِنْهُ ومن آلِ بَيْتِهِ ، لذلك لَمْ يقابِلْ ذلك وَهُوَ الكريمُ إلا بأحْسَنِ رَدٍّ ، ولم يتركْ صفيَّةَ تَشْعُرُ بالغُرْبَةِ ، بلْ جعَلَها في أَحْسَنِ رِعايةٍ ، وأكْمَلِ عنايةٍ حتى آخر لحظاتِ حياتِهِ .

لَقد كَانَ لَها أكْرَمَ زَوْجٍ ، وأعَزَّ رجُلٍ ، وكان كلامُهُ ينزل عليها بَرْداً وَسلاماً يخفِّفُ الوَطْأَةَ، وَيُؤْنِسُ وحشَةَ الغُرْبَةِ، وَيُهوِّنُ حَسَدَ الضرائِرِ .

لَقَدْ عَصَمَتْ نَفْسَها عنِ الوقوعِ في الخطأ ، فسَهَّلَ اللهُ لها أطْيَبَ حمايةٍ من رسُولِ اللهِ ﷺ .

المؤمنُ لا يكْذِبُ

ويمرضُ الرَّسُولُ ﷺ مَرَضَـهُ الأخيرَ ، وتكُونُ صفيَّةُ بَيْنَ أُمَّهاتِ المؤمنين حَـوْلَ فِـراشِ زَوْجِها وَتَـدْمَـعُ عَيْنُهـا لصاحِـبِ الحمايـةِ الطيِّبةِ، وَتَنْظُرُ في عينَيْ رسُولِ اللهِ وَتقُولُ :

(إني واللهِ يـا نبيَّ اللهِ لـوددْتُ أنَّ الـذي بكَ بي) ، أي تَـوَدُّ أنَّ المرَضَ الذي أصابَ رَسُولَ الله يَنْتَقِـلُ إليها ، ويَبْقى زَوْجُها سليماً مُعَافَى ...

ولما قالـتْ هذا القَـوْلَ ، نَظَرَتْ زَوْجَـاتُ الرَّسُـولِ بَعْضُهُنَّ إلى بَعْضٍ ، يَتَغامَزْنَ مِنْ قَوْلِ صَفِيَّةَ ، فَنَظَرَ الرَّسُول إليهنَّ نَظْرَةَ عتابٍ وغضبٍ وقالَ : (واللهِ .. إنَّها لَصَادِقَةٌ) .

وسمعتِ الضَّرائِرُ ذلِكَ ، وَفَهِمْـنَ أنَّ تَغامزَهُنَّ لم يَكُـنْ سَويّاً ، وَشَعَـرْنَ بالنَّـدَمِ مِـنْ مَـوْقِفِهِنَّ ، وَقَـدَّرْنَ لصفيَّـةَ حُسْـنَ كلامها وصِدْقَ قَوْلها ..

هكـذا يـا أحبـائي ، لم تُحرمْ صفيَّةُ هـذه الحمايـة عنـد مـرضِ الرَّسُولِ وقُرْبِ وَفاته . فهل يـا ترى وَجَدَتْ مَنْ يسْتَمِرُّ في حمايتِها بَعْدَ مَوْتِ رسُولِ الله ﷺ ؟

ولا يَطْعَنُ أَحَداً

لَقَدْ لحقَ الرَّسُولُ ﷺ بربِّهِ الكريم ، فافْتَقَدَتْ صفيَّةُ ما كانتْ تجدُهُ مِنْ قَبْلُ ، وَلَقَدْ خَلَّفَها رسولُ اللهِ ولا حاميَ لها ، ولا مُدافع عَنْها ، إلا ما كانَتْ تمتازُ بهِ من رجاحَةِ العَقْلِ ، وتَتَّصِفُ بِهِ من تُؤدَةٍ وحِكْمَةٍ في تصْريفِ الأُمُورِ .

وإنْ كانَ بَعْضُ النَّاسِ ما زالوا يرَوْنَ في أصْلِها اليهوديِّ ثَغْرَةً يَطْعَنُونَها مِنْ خِلالها ، فإنَّ اللهَ لا يَقْبَلُ هَذا مِنْهُمْ ، فهي زَوْجَةُ نبيٍّ مُسْلِمٍ هو محمَّدٌ رسولُ اللهِ ، ولقد آمنَتْ بِهِ وَحَسُنَ إسْلامُها ، ولا داعي لأنْ تُؤْذىٰ صفيَّةُ في نَسَبِها ، أوْيُطْعَنَ في أصْلِها .

ولا تَنْسُوا يا أحبَّتي أنَّ اللهَ لَمْ يَنْسَ صفيَّةَ . وَقَدْ ساعَدَها بعنايَتِهِ في إنْهاءِ ما كان قائماً بيْنَها وبَيْنَ زَوْجاتِ الرَّسُولِ مِنْ تحاسُدٍ ، وإنَّ صفيَّةَ لم تكُنْ بتلكَ التي تدَعُ للآخرين ثغراتٍ في مُعاملتِها لهم ، يَنْفُذُونَ منها للطعنِ في حُسْنِ إسْلامِها .

اللَّهُمَّ أحسِنْ خُلُقَنا ، وَأَلْهِمْنا تجَنُّبَ الطَّعْنِ في أَحَدٍ ، فإنَّه ليس مِنْ صِفاتِ المسلمِ أَنْ يكونَ طعّاناً ، كما علَّمنا رسولُ اللهِ صَلواتُ اللهِ وسلامُهُ عَليهِ .

الصَّدَقَةُ تُزَيِّنُ العِبادَةَ

وناحيةٌ أُخرىٰ امتازتْ بها أُمُّنا صفيَّـةُ ، فإِنَّها يا أحبائي الصِّغار لم تَنسَ أقارِبَها ، ولو كانُوا يهوداً ، لَقَدْ كانَتْ تَصِلُهُمْ ما اسْتَطاعَتْ في حدودٍ لا تُغضِبُ فيها ربَّها ، ولا تتجاوزُ ما شَرَعَهُ للمُسْلمين في معامـلاتِهم مع الكفّـارِ المُسالمين لهم .. ولم يقِـفْ صَلاحُهـا عِنْدَ حُسْنِ الصِّلَةِ بالأقارب ، بَلْ كـانَتْ تتصدَّقُ على كافَّةِ المحتاجين ما تمكَّنَـتْ من ذلك ، ويَـذْكُرُ لها التَّـاريخُ أنَّها تَصدَّقَـتْ بدارٍ لها قَبْلَ أنْ تموتَ ، وأنَّها فَعلَتْ كثيراً مـن أعْمالِ البرِّ والإحْسانِ مما زادَ في مكـانتِها ، وأعْظَـمَ لها في أجْرِهـا عِنْـدَ الله ، ورَفعَها إلى دَرجَـةِ المتَّقين الصالحين ذوي الإِحْسَانِ والقَدْرِ الكريم .

ولَعَلَّ صفيَّةَ رضيَ اللهُ عنها أَرادَتْ أنْ تُزيِّنَ عبادتَها بالتقرُّبِ إلى اللهِ تَعالى عَنْ طَـريقِ الإِحْسانِ والصَّدَقَـةِ ، وأعمالِ الخيرِ ، فكانَتْ بذلـك مِنْ خِيرةِ المتقرِّبين الـذين يعـرفون كَيْفَ يَسْلُكُـون سبيلَ الكَمالِ في الخُلُق ، والغنىٰ في النَّفْسِ والطَّهارة في الرُّوحِ .

ولَيْسَ غريبـاً أنْ تَفْعَلَ كُلَّ هذا وزيادة ، فهي يـا أحبَّائي زوجةُ رسُولٍ مُصْطَفى ، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّمْ وبارِكْ عَلَيهِ .

أَكْرِمْ بِمُروءَتِها !!

وتعيشُ صفيّةُ أيّامَ الخِلافةِ الرّاشِدةِ كُلِّها ، وتَنْدفِعُ لتُشارِكَ في الدِّفاعِ عن عثمانَ بنِ عفّان خليفةِ المسلمينَ زمَنَ الفتنةِ ، ولتصدَّ الخارجين عليه ، وتَرُدَّ الثائرينَ ضِدَّهُ ، ولَقَدْ رأَتْهُمْ يمنعُون عَنْهُ الطَّعامَ والشَّرابَ أثْناءَ حِصارِهِ بُغْيَةَ قَتْلِهِ ، فجعلتْ جِسْراً بَيْنَ دارِها ودارِ عثمانَ ، لتعبُرَهُ وتَنْقُلَ إليه ما اسْتطاعت نقْلَهُ مِنَ الماء والطَّعامِ وهُو في محنَةِ الحِصارِ ..

إنّها لمروءَةٌ .. وأيّةُ مروءةٍ !!

وإنّها لَنجْدةٌ .. وأيّةُ نجدةٍ !!

تَقدَّمَتْ بذلك صفيّةُ وهي امرأةٌ وَقْتَ أنْ وَقَفَ أكْثَرُ الرِّجال عاجزينَ عَنْ عَمَلٍ يُشَابِهِ عملها ، فأكْرِمْ بها مِنْ حكيمةٍ عاقلةٍ، ترى للضَّرُورات حكمها ، ولا تألُ جُهْداً في الولاءِ لأمير المؤمنينَ عثمانَ مَعَ ما كان في عملِها هَذا مِنْ تعريضِ نفسِها للمخاطرِ والقَتْلِ على يدِ الثَّائرينَ الذين يحاصرون عثمانَ في دارِه .

هَكذا فَلْتَكُنِ النِّساءُ

وَتُشْرِفُ صَفيَّـةُ على النِّهايـةِ ، وَتَمُوتُ زَمَـنَ مُعَـاويةَ بْـنِ أبي سفيانَ بَعْدَ مُنْتَصَـفِ القَرْنِ الأَوَّلِ للهجرةِ بقليـلٍ ، أيْ حوالي سَنَةَ خمسين ، وَدُفِنَتْ بـالبقيعِ بجوارِ زَوْجاتِ الـرَّسُولِ أُمَّهاتِ المؤمنين ..

وتركتْ لَنـا اسْمَها في كُتُبِ الحديثِ ، وَقَـدْ رَوى عَنْها عَدَدٌ مِـنَ الصَّحابـةِ والتابعين .. سَـلامٌ عليها زَوْجَـةً لرسـولِ اللهِ ، وَسَلامٌ عليْهـا أُمّاً للمؤمنين .. وَسَـلامٌ عليْهَا امْـرَأَةً ذاتَ نخوةٍ ومُروءةٍ ونجدةٍ ، وسلامٌ عليها راويةً حديث رسُولِ اللهِ ﷺ ..

ورحمها اللهُ امرأةً حكيمةً ، صادقةً محسنةً عابدةً .

وهنيئاً لها صَفْحَتَهـا التاريخيةَ النقيَّـةَ ، ومثلها فلتكُـنْ نساءُ اليهودِ ، وعلى هَدْيِها فليحاوِلْنَ السَّيْر ، ولنْ يضيِّعَ اللهُ أجْرَ مَنْ أحْسَـنَ استخـدامَ عَقْلِـهِ وتفكيرهِ في سبيـلِ الخيرِ والحقِّ ..

أمُّ حَبِيبَة ﵂

بنْتُ زَعيم مَكّة

بسم الله الرحمن الرحيم



دَارُ الهُدَىٰ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيع

الرياض: طريق صلاح الدين الأيوبي - حي الملز - بالقرب من إدارة مكافحة المخدرات
هاتف: ٤٧٧٧٥٤٤ - ٤٧٩٤٥١٧ - ناسوخ: ٤٧٧٦١٣٩ - ص.ب: ٢٥٥٩٠ - الرياض ١١٤٧٦

﴿ وَتَواصَوْا بالصَّبْر ﴾

جَلَسَتْ رَمْلَةُ بنْتُ أبي سفيانَ زعيمِ مكَّةَ في بَيْتِ والِدِها ، لِتَسْمَعَ مِنْهُ خبراً مُفرِحاً: (يا رَمْلَةُ .. شَابٌّ من شَبابِ مكَّةَ ، وحفيدُ عبدِ المطلب (عُبَيْدُ اللهِ الأسديِّ) قَدْ أَتاني يَخْطبُكِ عَلَى نَفْسِهِ . فما رَأْيُكِ يَا ابْنَتي ؟) .

وَتَمَّتِ المُوافَقَةُ ، وَزُفَّتِ العَرُوسُ إلى الشَّابِّ عُبَيْدِ اللهِ بَعدَ فَتْرةٍ مِنَ الزَّمن ، وَشَاءَ اللهُ أَنْ يُكْتَبَ العروسَان في قائمةِ المُؤْمنينَ الأَوائلِ إِذْ قَامَ محمَّدٌ ﷺ يَدْعو إلى اللهِ بَعْدَ أَيَّامِ عُرْسِها بقليلٍ ، ورَضِيَتْ رَمْلَةُ بِحمدِ اللهِ أَنْ تَستجيبَ لِدَعْوَةِ زَوْجِها لها إلى اعْتِنَاقِ الإِسلام ، ونعمَتْ مَعَهُ بالخروجِ مِنَ الظَّلامِ إلى النُّورِ ، وَصَبَرَتْ وإِيَّاهُ على أَذى المشركين من كُفَّارِ قُرَيْشٍ ، واحْتَمَلَتْ بكُلِّ صدْرٍ رَحْبٍ عَذَابَهُمْ واضطهادَهُمْ .

وَخَشِيَتْ رَمْلَةُ أَذى أبيها الذي وَقَفَ آنذاكَ إلى جانِبِ الكُفَّارِ ، فَهاجَرَتْ مَعَ عُبَيْدِ اللهِ إلى الحبشةِ فِيمَنْ هاجَروا ، وتركتْ أبا سفيان وَقَدْ كادَ أَنْ يَفْقِدَ صَوَابَهُ بَعْدَ إسلامِها وَلَيْسَ له إليها مِنْ سبيلٍ ، وَهُوَ مِنْ زعماءِ القَومِ وَقَادَتِهِمْ !!

بأحرُفٍ من نور

وهُناكَ في الحبَشةِ حَطَّ المهاجرونَ رِحالَهُمْ ، وبدأَتْ رَمْلَةُ تَسْتَعْرِضُ بِخيالها ما لاقتْ من صُعُوباتٍ ومتاعبَ في هِجرتِها، هَوَّنَها عليها إيمانُها بالدينِ القَويم . إنَّها يا أحبائي قَدْ هاجَرَتْ وفي أحْشَائِها جَنينٌ يَقْتَرِبُ مَوْلِدُهُ ، ولَقَدْ أرْهَقَها الحملُ كما يُرْهِقُ جميعَ النِّساءِ الحوامِلِ ، وَضاقَتْ بمتاعِبِهِ وآلامِهِ، لكنَّ الفرْحَةَ بِسَلامَةِ الوُصُولِ والشُّكْرَ لله على نعمةِ الإِسْلام ، والقناعَةَ بأنَّ ما تُعانيه هُوَ جهادٌ في سبيلِ اللهِ ... كُلُّ هذا جَعَلَها لا تُبالي بالهمومِ والضِّيقِ وآلامِ الحملِ ، زيادةً علَى مصاعِبِ الرِّحْلَةِ الطَّويلةِ مِنْ مَكَّةَ . وَرَأَتِ المُسْلِمَةُ الحامِلُ أنَّ أرْضَ الصِّدْقِ التي وَصَلَتْ إليها ، لا بُدَّ وأَنْ تجدَ فيها الحفاوَةَ والتَّرحيبَ ، كما وَعَدَ بذلك رسُولُ اللهِ ﷺ عندما طَلَبَ مِنْ أتْباعِهِ الهجرةَ إلى الحَبَشَةِ . والزَّوْجُ عُبَيْدُ اللهِ هُوَ العِوَضُ عمَّنْ فارَقَتْ مِنْ أَهْلٍ وَعشيرةٍ ، وأقارِبَ وأحْبابٍ ، والمهاجِرَةُ الآنَ تَحْمَدُ اللهَ وتُسَطِّرُ مَرْحَلَةً جديدةً مِنْ حياتِها على صفحاتِ التَّاريخِ بأحْرُفٍ مِنْ نُورٍ ، وإنها لَبَطَلَةٌ خالدةٌ مؤمنةٌ .

لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدون

وَمَرَّت الأَيّامُ رُوَيْداً رُوَيْداً ، تُثْقِلُها الغُرْبَةُ والشَّوْقُ لكنَّ أمْراً واحداً لم تكُنْ لِتَتَوقَّعهُ !! لَقَدْ قامَتْ ذاتَ لَيْلَةٍ مِنْ نَوْمِها مَذْعُورَةً !؟ حُلُمٌ مُزْعِجٌ رَأَتْهُ !! زَوْجُها عبيدُ اللهِ في أسْوأ صُورَةٍ وعلى أبشَعِ خِلْقَةٍ !! فهبَّتْ مِنْ نَوْمِها وَقَدْ أخذَها الرُّعْبُ واسْتَبَدَّ بها الفَزَعُ ، وأَخَذَتْ تفكِّرُ فيما رَأَتْهُ ، ولما أصْبَحَتْ إذْ بِزَوْجِها يُعْلِنُ ما آلَتْ إليهِ حَالُهُ ويقولُ :

(يا زوجتي .. إني نظرْتُ في الدّين ، فَلَمْ أرَ ديناً خَيْراً مِنْ النَّصْرانيَّة ، وإِنِّي قَدْ دَخلْتُ في هذا الدّين ، تارِكاً دِينَ مُحَمَّدٍ؟؟) .

ما هَذَا القولُ يا عُبَيْدَ اللهِ ؟ وماذا دَهَاكَ ؟ أَهَذِهِ يا تُرى الصُورَةُ السِّيئَةُ والخِلْقَةُ البَشِعَةُ اللَّتانِ رأَيْتُهما في الحُلُمِ ؟ ..

ولم يَكْتَفِ المرتَدُّ بارتدادِهِ ، بَلْ حَاوَلَ أنْ يَرُدَّها عن الإِسْلام ، فَصَبَرَتْ على دينِها ، وكادَتْ تَفْقِدُ عَقْلَها مِنْهُ ، كَيْفَ يَفْعَلُ ذَلِكَ وهو الذي دَعاها مِنْ قَبْلُ إلى الإِسلام وَأَسْلَمَتْ عَلى يديْهِ؟! .

مَا أَبْشَعَ الرِّدَّةَ !!

وراحَتِ الزَّوْجَةُ تَنْظُرُ في وليدتِها (حبيبة) التي وَضَعَتْها مُنْذُ أيَّامٍ ، لِتَقْرَأَ في وَجْهِها آياتٍ وآياتٍ ، ما ذَنْبُ هَذِهِ الابْنَةِ الحبيبةِ؟ ما ذَنْبُها لكي تُولَدَ لمثل هذا الأبِ الصَّابىء المُرْتَدِّ ؟ وماذا فَعَلَتْ لكي تَشْبُتَ بَيْنَ أبَوَيْن كلٌّ منهما على دين ؟ ولماذا تَخْرُجُ إلى الحياةِ في أَرْضٍ غريبةٍ ، وَقَدْ تَمَزَّقَ شَمْلُ أُسْرَتِها : فأَبُوها نَصْرانيٌّ ، وأُمُّها مُسْلِمَةٌ ، وَجَدُّها أبو سُفيان مُشْرِكٌ عَدُوٌّ للإِسْلام ؟ وَأَمْسَكَتْ أُمُّ حبيبةَ دَمْعَتَيْن كادَتا أَنْ تَنْهَمِرا ، وَرَفَعَتْ نَظَرَها مِنْ جَديدٍ إلى زَوْجِها وكأنَّها تَقُولُ : (وَأَنْتَ يا عُبَيْدَ الله ، فيمَ كانَتْ هجرتُك إذَنْ ؟ وفيمَ كانَ عَذابُ الاضطهادِ ومحنةُ التَّشرُّدِ ومَرارَةُ التنكُّرِ للآباءِ والأجدادِ ؟ فيمَ الخُروجُ عَنْ الإِسلام الذي تحمَّلْنا مِنْ أجْلِهِ كُلَّ ما تحمَّلْناهُ ؟ لقد كَانَ أكْرَمَ لَكَ يا عبيدَ اللهِ لَوْ بقيتَ على دين آبائِكَ مِنْ أنْ تكْفُرَ بالإِسلام بهذِهِ البَساطَةِ وَدُونَ تحرُّجٍ ، كما يُبَدَّلُ الثَّوْبُ على الجسْمِ .

وما أَصْعَبَ الغُرْبَةَ !!

واعْتَزَلَتْ أُمُّ حبيبةَ النّاسَ شاعِرَةً بالخِزْيِ لِفِعْلِ الرَّجُلِ الذي كان لها زَوْجاً ، ولا يزال لِطِفْلَتِها والداً ، وَأَغْلَقَتِ البابَ عَلَيْها وَعَلَى وَليدَتِها (حبيبةَ) مُضاعِفَةً غُرْبَتَها ، لا تريد أنْ تَلْقَى النَّاسَ في دارِ هِجرتِها ، ولكنْ هَلْ مِنْ مجيرٍ لها إذا ما عَادتْ إلى مكّةَ ؟ لا..

هُنَاكَ لا سبيل لها إلى الأمانِ ، فأَبُوهَا ما زَالَ يَعْلِنُ حَرْباً شَعْواءَ على النَّبِيِّ الذي صَدَّقَتْهُ وآمَنَتْ بِهِ ، وَدَارُ أَهْلِ عُبَيْدِ اللهِ قَدْ أَقْفَرَتْ ، وَأَخْفَقَتْ أَبْوَابُها ، وَمَرَّتْ حقْبَةٌ مِنَ الزَّمَنِ ، وهي في عُزلَتِها الحزينةِ ، تَكْتُمُ الكثيرَ من الأَقْوالِ والحنينِ وآلامِ الغربةِ وفراقِ الأهْلِ والزَّوْجِ المرتدِّ ..

جَرَّبَتْ مِنْ جديدٍ أنْ تَنْصَحَ عُبَيْدَ الله ، وَتُعِيدَهُ إلى الهُدى ودينِ الحقِّ ولكنَّ محاولاتِها لَمْ تُجْدِها نَفْعاً ، فَفَارَقَتْهُ وَقَدْ تَنَصَّرَ وَارْتَدَّ ، وبقيتْ وحيدةً معَ ابنتِها ، لا سَلْوى لها ولا عَزاء ، إلا ما يضيءُ قَلْبَها مِنْ نورِ الإِسْلامِ ..

ويموت عبيدُ الله أخيراً ، وهو ما يزالُ على دينِ النّصرانيةِ ، وما أَصعبَ ذلكَ على قَلْبِها !

مِنْ بَعْدِ ضيقٍ مَخْرَجاً

وَيَعْلَمُ رَسُولُ اللهِ بالخبرِ ، وهُوَ الذي يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوحْيُ من السَّماءِ ، وَيَا للْمُسْتَقْبَلِ الجميلِ ، مَنْ يَعْلَمُ ما سَوْفَ يصيبُ أُمَّ حبيبةَ مِنَ الخيرِ العظيمِ ؟ إنَّها في دارِها مَعَ وَلِيْدَتِها تفكِّر في غُرْبَتِها وَحالِها ، وَهَا هِيَ ذي طَرَقَاتٌ على البابِ تُلِحُّ بِفَتْحِهِ ، وَتَقُومُ المهاجِرَةُ المؤمنةُ لِتَفْتَحَهُ ، وَتَدْخُلُ جاريةٌ مِنْ جواري المِلِكِ النّجاشيِّ مَلِكِ الحَبَشَةِ لتقولَ : (إنَّ المِلِكَ يقولُ لَكِ : وَكِّلي مَنْ يُزَوِّجُكِ مِنْ نبيِّ العَرَبِ ، فَقَدْ أرْسَل إليْه لِيخْطُبَكِ لَهُ) وتملكَتِ الدَّهْشَةُ أُمَّ حبيبةَ ، وَاسْتَوْلى عليها العَجَبُ !!

محمَّدٌ رَسُولُ اللهِ يُرْسِلُ إلى نجاشيِّ الحبشةِ ليزوِّجَهُ منها ؟!

تَوَقَّفَتْ لَحْظَةً ، بَلْ لحظاتٍ ، وَقَدْ أشْرَقَ وَجْهُها بنورِ الفَرَحِ ، وَأُفْعِم قَلْبُها بالسَّعادةِ والسُّرورِ ، فالرَّسُول قَدْ عَلِم إذَنْ ما كانَ مِنْ تَنَصُّرِ عُبَيْدِ اللهِ وما كانَ من مَوْتِهِ مُرْتَدّاً ، فأَرَادَ أنْ يُكْرِمَ فيها النِّساء المؤمِناتِ المجاهداتِ الصابراتِ ، كما أكْرَمَ نساءً مؤمناتٍ مجاهداتٍ صابراتٍ قَبْلَ أُمِّ حبيبةَ .

هَنِيْئاً لكِ أُمَّ حَبِيْبَةَ

هنيئاً يا مَنْ سَتُصْبِحين أُمّاً للمؤمنين مِثْلَ خديجة وعائشة وزَيْنَبَ وَحَفْصَةَ وأُمِّ سَلَمَةَ ، ويا لنِعْمَةِ اللهِ التي أنْعَمَها على أُمِّ حبيبةَ ، ويا لكَرَمِ رسولِهِ الذي سَوْفَ يُكرِمها بِهِ ، إِنَّهُ نَبأٌ سَارٌّ سعيدٌ ، ما وَسِعَها بعده إلا أنْ تَقُولَ فَرِحَةً مُسْتَبْشِرَةً : (بَشَّرَهُ اللهُ بالخيرِ) تَرُدُّ بِذَلِكَ على النَّجاشِيِّ مَلِكِ الحَبَشَةِ ، ثُمَّ خَلَعَتْ مِنْ يَدَيْها سِوارَيْنِ مِنْ فِضَّةٍ أَعْطَتْهُما للجاريةِ التي حَمَلَتْ لها البِشَارَةَ ، وَأَرْسَلَتْ إلى كبيرِ المهاجرينَ مِنْ قَوْمِها (خالدِ بن سعيدِ بن العاص) تُوَكِّلُهُ عَنْها في زَوَاجِها من رسُولِ اللهِ ، وَجَلَسَتْ في بَيْتِها إلى جانبِ ابنتِها تُسَبِّحُ للهِ حمداً ، وَتَسْجُدُ لَهُ شُكراً ، وَتَسْتَعْرِضُ في خيالها بَعْضَ ما كانَ مِنْ ماضيها ، وما مَرَّ بِحياتِها مِنْ حَوادِثَ في مكَّةَ ، وفي الطَّريقِ ، وفي الحَبَشَةِ ، وإنَّها لنِعْمَ المكافأة يا رَمْلَةُ ، مكافأةٌ من السَّماءِ أنْتِ أهْلٌ لاستِلامها هديَّةً ولَقَباً جميلاً وزَوْجاً كريماً ، ومَنْ يتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً والحمدُ للهِ ، فلقد انْتَهَتْ مَرْحَلَةُ الحُزْنِ والكآبةِ ، وَأُزِيحتْ عَنْ كَاهِلِها مَرارَةُ الغُرْبَةِ .

أُصولُ الضِّيافَةِ والوَداعِ

وفي قَصْرِ النَّجاشِيِّ ، اجْتَمَعَ المُسْلِمُونَ المهاجرونَ ، ومحيّاهُمْ يفيضُ بالبِشْرِ ، ووُجُوهُهُمْ يَغْمُرُهَا السُّرُورُ ، وَتَمَّ عَقْدُ الزَّواجِ الكريمِ ، وَأَرْسَلَتْ نِساءُ النَّجاشيِّ إلى أُمِّ المؤمنين هَدايا مِنْ طيبٍ وعَنْبَرٍ ، وَأَوْلَمَ الملكُ للحاضرينَ وَليمةَ الزَّواجِ ، وعادتْ أُمُّ حبيبةَ إلى بيتِها ، لِتَتَقَبَّلَ التَّهاني مِنْ أَخَواتِها المهاجراتِ اللواتي أَتَيْنَ إليها مُهَنِّئاتٍ مبارِكَاتٍ ، وَأَرْسَلَ إِلَيْها النجاشيُّ جاريَةً تُساعِدُها في إِعْدادِ حاجاتِها ، وَتُعاونها في تَجْهِيزِها وتَجهيزِ ابْنتها (حبيبةَ) بما يَلْزَمُ للرَّحِيلِ .

وتجهَّزَ المُسْلِمُونَ مَعَها لمغادَرَةِ الحَبَشَةِ إلى بِلادِهِمْ ، حَيْثُ اسْتَقَرَّ الأمْرُ للرَّسُولِ ﷺ في المدينةِ ، وَعُقِدَ الصُّلْحُ مَعَ أَهْلِ مَكَّةَ ، وَصَالَحَ يَهُودَ خَيْبَرَ بَعْدَ انْتِصارِهِ المُظَفَّرِ عليهم ، وَوَدَّعَ النجاشيُّ ضيوفَهُ ، وبَعَثَ بِرُسُلٍ مِنْ عِنْدِهِ يرافقونهم إلى شاطِئِ البَحْرِ ، ثُمَّ انْطَلَقَ المُهاجِرُون وَبَيْنَهُمْ أُمُّ المؤمنين ، مُوَدَّعين بمثْلِ ما اسْتُقْبِلوا بِهِ مِنْ حَفاوَةٍ وَكَرَمِ ضِيافَةٍ ، ويا للشَّوْقِ واللَّهْفَةِ إلى لقاءِ الرَّسُولِ وَرُؤْيَةِ الصَّحابَةِ والأَحْبابِ .

لَقَدْ حَقَّتِ الفَرْحَةُ

واحْتَفَلتِ المدينَـةُ بدُخُـولِ المُهاجـرينَ إليهـا ، وَأَوْلَمَ عُثْمانُ بْنُ عَفّانَ وليمـةً حافلـةً ، نُحِرَتْ فيها الـذَّبَائحُ ، وَأُطْعِـمَ النَّاسُ لحماً شهيّـاً ، وَانْتَشَرَتْ أَنْبـــاءُ قُرْب عَـوْدَةِ الجَيْـشِ المُسْلِمِ بقيـادَةِ الرَّسولِ ﷺ مِنْ خَيْبَرَ مُنْتَصِراً ظافِراً .

ولمْ تَمْضِ على عَوْدَةِ المهاجرين بضْعَةُ أيّـامٍ ، حَتَّى قَدِمَ الرَّسُولُ علَى رَأْسِ جَيْشِ المسلمين ، فكانَت الفَرْحَةُ فَرْحَتَيْنِ ، وكانَ سُرُورُ المُسْلمينَ بمَقْدِم نبيِّهم ظافراً ، وبعَوْدَةِ مهاجري الحَبَشَةِ سالمين لا يُعَادِلُهُ سُرورٌ ، وَلَمَحَ الرَّسُولُ بَيْنَ العائِدين ابْنَ عَمِّهِ (جَعْفَرَ بْنَ أبي طالِـبٍ) ، فَوَثَبَ مِـنْ فَوْقِ رَاحِلَتِهِ ، وَأَقْبَـلَ نَحْوَهُ مُعَانِقـاً ، وَقَبَّلَ عَيْنَيْهِ ، وَهُوَ يَقُولُ له في غِبْطَـةٍ : (مَا أَدْرِي بأيّهما أُسَرُّ : بفَتْحِ خَيْبَرَ أَمْ بقُدوم جَعْفَرَ ؟) وَلَمْ يَنْسَ الـرَّسُولُ ﷺ أَنْ يَسْتَقْبِلَ زَوْجَتَهُ (أُمَّ حبيبةَ) . وَيَعْلَمُ أبـو سفيان أنَّ ابْنَتَهُ قَدْ أصْبَحَـتْ أُمّاً للمؤمنين ، وَزَوْجَةً لرسـولِ اللهِ ، فقال : (هَذا الفَحْلُ لا يُقْـدَعُ أَنْفُهُ) أيْ أَنَّ محمَّداً رَجُلٌ شَرِيفٌ لا يُرَدُّ عَنْ مُصاهَرَةٍ .

حَفاوَةٌ واعْتِدادٌ

وَدخلَت ابْنَةُ أبي سُفْيانَ مَسْكَنَها ، لِتَحْظَى بحفاوةِ الرَّسُولِ وإكْرامِهِ ، وَلتُقَابلَهـا ضَرائِرُها بسُكُونٍ وهُدُوءٍ وَاحْتِرامٍ لما لها في نُفُوسِهـنَّ مِنْ مَكَـانَةٍ وَمَنْزِلَـةٍ عـاليةٍ ، وَلتَعْتَـزَّ بما رَفَعَها إلَـيه الرَّسُولُ ﷺ مِنْ مقامٍ كريمٍ بَيْنَ النِّسَاءِ ..

وَعَاشَتْ أُمُّ حبيبـةَ مَعَ زَوْجِها رَسُولِ اللهِ ، حَيَـاةً رفيعةً طَيِّبَةً لا يُعكِّرُ صَفْوَها إثَارَةُ خلافٍ وَلا حُدُوثُ جَفْوَةٍ ، وَمِنَ الجميلِ أنَّ عائِشَةَ التي اشْتُهِرتْ بالغيرةِ الشَّديدةِ مِنْ ضَرَائِرِها رَأَتْ في بِنْتِ أبي سفيـان ضرَّةً لا تحبُّ أنْ تكون تَـابِعَةً لأُخْـرَى ، مِمَّـا جَعَلَ لها في نَفْسِهـا هَيْبَةً وَمَكَانَـةً جَليَّةً ، وَلَعلَّ أصْلَهـا وَنَسَبَها وَصَفْحَةَ جهادِها وَصَبْرِها كُلُّ ذلك قَدْ كَانَ لهُ أكْبَرُ الأثَرِ في ما أحَاطَ بها مِنْ جَوٍّ وَسط ضَرَائِرِها .

وَلَمْ يَكُنْ ليـزعجَ رَمْلَةَ أُمَّ حبيبـةَ إلاَّ بَعْضُ ذكريـاتٍ من الماضي وأَخْبَارٌ تـأتي من مَكَّةَ عـنْ عداوَةِ أبيهـا لمحمَّدٍ زَوْجِها ، وكَـانَتْ لذلك تحسُّ في أَعْماقِها حُزْناً قاسياً ، وَيُؤْلِمها أَنْ تَظَلَّ الحربُ قائمةً بَيْنَ أبيها والمسلمين ، ويا ليتها تَقْدِرُ على إصْلاحِ الأمُـورِ .

لا نَسْكُتُ على ضَيْمٍ

وَتَناهَـى يَوْمـاً إلى سَمْعِها أَنَّ قُـرَيْشاً قَـدْ نَقَضَتِ العَهْـدَ مَعَ رَسُولِ الله ، وَأَدْرَكَتْ أَنْ رَسُولَ اللهِ لَنْ يَسْكُتَ على ضَيْمٍ ، وَلَنْ يَرْضـى أَنْ يُغْدَرَ بِـهِ ، ولاحَ نَذِيـرُ الخَطَرِ ، فمحمَّـدٌ أَوْشَكَ أَنْ يَنْقَضَّ عَلَى المُشْرِكِين لِيهـدمَ الأَصْنامَ على رُؤُوسِهِـم في مكَّةَ ، وأَجْبَرَتِ الظُّـروفُ وَقَضَتِ الأَوْضَـاعُ على أبي سفيـان أَنْ يَسيرَ إلى المدينة على الرَّغْمِ مِنْ عَـداوَتِهِ لِلْمُسْلِمين ، وَأَنْ يَذْهَبَ إلى هُنَاكَ لِيَتَدارَكَ وُقُوعَ الخَطَرِ قبْلَ اسْتِفْحَالِ الأَمْرِ ، ولكنْ كَيْفَ لَهُ أَنْ يُقابِـلَ ابْنَتَهُ المؤمنـةَ في بَيْتِ الـرَّسُولِ ؟ وَهَـلْ سَيَسْمَحُ لَـهُ الرَّسُـولُ بالتَّحَـدُّثِ مَعَهُ بَعْـدَ نَقْضِ الْعَهَـدِ ؟ هَا هُـوَ ذَا الآن يَدْخُلُ المدينـةَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ أمْرَه جـدُّ عَسير ، وَرَأى أَنْ يَقْصِدَ ابْنَتَهُ أَوَّلاً لتكُونَ وَاسِطَةً بيْنَهُ وَبيْنَ زَوْجِهـا ، وَدَخَلَ عليها وهي التي لَمْ تَـرَهُ مُنْذُ وَقْـتٍ طَويـلٍ وَسَنَواتٍ مَلَأتْـها العداواتُ .. وَرَأَتْهُ المُؤْمِنَةُ وَهُوَ يُقْبِلُ نَحْوَها ، وَوَقَفَتْ حيْرَانَةً لا تَدْرِي ماذا ستجيبه إذا ما سَألها ؟ وإِنَّها لمفاجأةٌ لم يُحْسَبْ لَهَا حِسابٌ .

اسْتِعْلاءُ الإِيمان

وَأَدْرَكَ أبو سُفْيَانَ ما تُعانِيهِ ابْنَتُهُ ، فَأَعْفاها مِنْ أنْ تَأْذَنَ لَهُ بالجُلوسِ ، وتقَدَّمَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ لِيجْلِسَ على الفِراشِ ، فما راعَهُ إلا أنْ وَثَبَتْ ابْنَتُهُ ، فَاخْتَطَفَتِ الفِراشَ وَطَوَتْهُ في إعْزازٍ ، ثُمَّ وَقَفَتْ تَلْهَثُ ، فسَأَلَها وَهُوَ يلُوذُ بالصَّبْرِ : (أطَوَيْتِهِ يا بُنَيَّةُ رَغْبَةً بي عَنِ الفِراشِ ، أمْ رَغْبَةً بالفِراشِ عَنِّي ؟) وَهُنا اسْتَجْمَعَتِ المُؤْمِنَةُ أنْفاسَها وَجُرْأَتَها وَقالَتْ بصَوْتِ الابْنَةِ العاقِلَةِ : (هو فراشُ رَسُولِ اللهِ ، وَأَنْتَ رَجُلٌ مُشْرِكٌ ، فَلَمْ أُحِبّ أنْ تَجْلِسَ عَلَيْهِ) . وَانْصَرَفَ الأبُ غاضِباً ، وقَدْ عَلِمَ أَنَّ السَّبِيلَ مَسْدُودَةٌ أمامَهُ ، فإذا كانت ابْنَتُهُ قَدْ فَعَلَتْ هذا مَعَهُ فكَيْفَ بالآخرين حَيْثُ لا صِلَةَ قَرابَةٍ أوْ رَحِمٍ ؟ . .

وَعادَ خَائِباً ، يَجُرُّ وَراءَهُ الفَشَلَ في مَهَمَّتِهِ ، بَيْنَما راحَتِ البِنْتُ المؤْمِنَةُ أُمُّ المؤمنين تَدْعُو لِزَوْجِها بالنَّصرِ مَعَ ما في ذلك مِنْ صُعُوبَةٍ ، فَإِنَّ نَصْرَ الرَّسُولِ ﷺ يَعْني القَضاء على أبيها وعَشيرَتِها وَقَومِها في مَكَّةَ .

الصِّراطُ واضِحٌ

ولكـنَّ شُعَـاعَ الأمَـلِ تَسَرَّبَ إلى نَفْسِهـا ، وَلاحَ لها أَنَّـهُ مِـن الممكِنِ تـلافي المصير الفاجِـعِ الذي يَنتُظِرُ أَبـاها وقَـوْمَه ، إنَّ السَّبِيلَ إلى ذلك واحدةٌ : (إيمانُ هَذا الأبِ والزَّعيم) . فإِذا ما آمَنَ وَهَـدَاهُ اللهُ إلى الإسلامِ ، انْتَهَـتِ العَداوَةُ وانْتَشَرَتِ المودَّةُ والمحبَّةُ وَرَفَعَتْ رَمْلَةُ يَدَيْها إلى السَّماءِ تَدْعُو رَبَّها أنْ يَهْديَ قَلْبَ أبِيْها ، وَيَشْرَحَ صَدْرَهُ . وما ذلك على اللهِ بعزيزٍ ، فَقَدْ آمَنَ مِنْ قَبْلُ عمـرُ وخالـدٌ وأمثالُهُمْ ، ويَـا للْبُشْرى المفرحـةِ !! لَقَدْ تَـمَّ الفَتْحُ ، وآمَنَ أبُو سُفْيـانَ دُونَ مَعَارِكَ ولا دِماءٍ ، فَسَجَدَتْ أُمُّ حبيبـةَ للهِ شاكِـرةً ، وَزَاحَ عَنْ كَـاهِلِهَـا عِبءٌ عظيـمٌ باهِـظٌ ، وَهَدَأَتْ نَفْسُها المؤمنَةُ ، واطْمأنَّ قَلْبُهـا ، وَعَاشَتْ بَعْدَ ذلك في بَيْتِ زَوْجِها رسولِ اللهِ راضِيةً هـانِئَةً مُسْتَقِرَّةً هادِئَةً ، ولِمَ لا تَهْنَأُ وَقَدْ زَادَتْ أَنَّها ابْنَةُ زَعيمٍ مُسْلمٍ أَسْلَمَ وَحَسُنَ إسْلامُهُ ، وَكَانَتْ قبلَ ذلِـك زَوْجَةَ رسولِ المسلمين وَأُمّاً للمـؤمنين ؟ الحمدُ للهِ ، آمَنَ الأبُ واجْتَمعَ الشَّمْلُ في نهاية المطافِ .

مِثالُ الرَّوْعةِ

واقْتَرَبَتْ أُمُّ المؤمنين من الوَفَاةِ بَعْـدَ سنين طويلةٍ عَاشَتْها في خـلافَـةِ أبي بكـرٍ الصِّـدِّيـقِ وعُمَـرَ وعثمانَ وعليٍّ ، واسْتَغْفَـرتْ ربَّها ممـا قَـدْ يكُـونُ بَيْنَ الضرائِرِ في حيـاتِهِنَّ ، وَاسْتَـدْعَـتْ عائِشَـةَ وَأُمَّ سَلَمَـةَ ليتـمَّ التَّسامُـحُ فيما بَيْنَهَـا وبينَهُما، وَأَضَاءَ وَجْهُها بنور الرِّضـا عندما هَمَسَتِ الضُّرَّتَانِ في أُذُنَيْها أن قَدِ اسْتَغْفَرْنا لكِ .

ثُـمَّ رَقَـدَتْ بِسَـلامٍ ، وأُودِعَ جَسَـدُهَـا في ثَـرَى البقيـع الطَّيِّـب، عَلَى أرْضِ المدينة سَنَـة أرْبَعٍ وأربعين للهجـرة في خلافَةِ أخيها معاوية .

رَحمها اللهُ مؤمنةً طاهرةً ، تَسْتَحِقُّ كَلَّ تَقْدِيرٍ .

لَقَـدْ مَـاتَتْ راضيـةً عَـنْ نَفْسِهـا ، وعَنْ أَهْلِهـا ، وَعَـنْ أبنائِها، مرضِيّاً عنها ممَّن عَرَفْنَها وعَاشَرْنَها .

مَارِيَةُ القِبْطِيَّةُ

أُمُّ إبْرَاهِيمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ



دَارُ الهُدَى لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيع

الرياض: طريق صلاح الدين الأيوبي - حي الملز - بالقرب من إدارة مكافحة المخدرات
هاتف: ٤٧٧٧٥٤٤ - ٤٧٩٤٥١٧ - ناسوخ: ٤٧٧٦١٣٩ - ص.ب: ٢٥٥٩٠ - الرياض ١١٤٧٦

﴿ فاصْدَعْ بما تُؤْمَرُ ﴾

من الجميل يا أحبَّائي أنْ يَدْعُوَ المُسْلِمُ الآخرينَ إلى الإِسْلام، وَهَذا ما لَمْ يَنْسَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَصَحَابَتُهُ ، بَلْ جَعَلُوا ذَلك من الواجباتِ الهَامَّةِ والفرائِضِ العظيمةِ عَلَيْهِم ، فَهَا هُوَ ذا القائدُ العظيمُ يَبْعَثُ رُسُلَهُ إلى مُلُوكِ الأرْضِ وَرُؤساءِ الشُّعُوبِ يَدْعُوهُمْ إلى اتِّباع دينِهِ وَتَصْدِيقِ رسالَتِهِ ، وَلَقَدْ حَمَلَ الصَّحابَةُ الموفَدُونَ كُتُبَ نبيِّهم إلى الجهاتِ التي أُرْسِلوا إليها ، وَدَخَلَ حَاطِبُ بْنُ أبي بَلْتَعَة على (المُقَوْقِسِ) ، صَاحِبِ مِصْرَ ، يحمل إليه رسالةَ محمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَقَرَأَ المُقَوْقِسُ في الرّسالة دَعْوَةَ النبيِّ الكريمِ لَهُ بالدُّخُولِ في الإِسْلامِ ، وَعَلِمَ أنَّ محمَّداً هُوَ نبيُّ العالمين يَدْعُوهُ إلى دينٍ جديدٍ : لا يُشرِكُ باللهِ شيئاً ولا يتَّخِذُ غَيْرَ اللهِ رَبّاً .

تَفَتَّحَ قَلْبُهُ ، وَانْشَرَحَتْ نَفْسُهُ لهذا الدين القويم ، وأَدْرَكَ صَوَابَ ما يَدْعُوه إليه محمَّدٌ ، وَرَأى أنَّ الخَيْرَ كُلَّ الخير في اتِّباع الرَّسُولِ والإيمانِ بِهِ ، ولكنْ ماذا كانَ جوابُهُ يا تُرى إلى رسول اللهِ ﷺ ؟

مِنْ أَدَبِ الجوابِ

لَقَدْ طَوى الكتابَ في عنايةٍ وتوْقيرٍ ، وَوَضَعَهُ في آنيةٍ مِنْ عَاجٍ، والْتَفَتَ إلى حاطِبِ بن أبي بَلْتَعَةَ يَسألُه المزيدَ مِنْ صِفاتِ هَذَا النَّبيِّ الكريمِ ، ثم فكَّرَ وَقَالَ :

(قَدْ كُنْتُ أعْلَمُ أنَّ نبيّاً قَدْ بَقِي ، وَأَرَاهُ قَدْ خرَجَ مِنْ أرْضِ العرب ، ولكنَّ القبطَ لا تُطاوِعني) ، ثُمَّ دَعَا بكاتِبِهِ فَأَمْلَى عَلَيْهِ جوابَهُ إلى رسولِ اللهِ : (أمَّا بَعْدُ: فَقَدْ قَرَأْتُ كتابَكَ وفهِمْتُ ما ذَكَرْتَ فيه ، وما تَدْعُو إليه ، وَقَدْ علمْتُ أنَّ نبياً قَدْ بقي.. وَقَدْ أكْرَمْتُ رَسُولَكَ وبَعَثْتُ لك بِجارِيَتَيْنِ لهما مكانٌ من القِبْط عظيمٌ ، وبثيابٍ ومطيَّةٍ لتركبَها ، والسَّلامُ عليْك) .

إنَّهُ أدْرَكَ الحقيقةَ ، لكنَّهُ خَافَ ذَهَابَ مُلْكِهِ ، وَرَأى أنْ يُحسِنَ الجوابَ ، فَبَعَثَ بهديَّتِهِ إلى رسول الله مُعَبِّراً بذلك عما في نَفْسِهِ مِنْ نِيَّةٍ حَسَنَةٍ ، وَلَوْ لَمْ يُسَارِعْ إلى الإيمان بِدِينِ اللهِ ورسُولِهِ والمؤمنين .

وَأَمَرَ المُقَوْقِسُ بتجهيزِ الهدايا ، وأكْرَمَ حامِلَ الكتابِ ، وَوَدَّعَهُ بِسَلامٍ .

خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا

وَغادَرَ حـاطِبٌ قَصْرَ المُقَـوْقِسِ ، وَمَعَـهُ الجاريتانِ (مـارِيةُ وسيرين) وفي الطَّريـق إلى المدينة ، قَصَّ حاطـبٌ للجاريتين قِصَّةَ النبيِّ العظيـمِ ، وَأَخْبارَ صِدْقِهِ وَعَدْلِـهِ وَجِهادِهِ في سبيلِ نَشْرِ دَعْوَتِـهِ ، فَخَشَعَ قَلْبُ الفتـاتَينِ لما سمِعَتاهُ ، وأكْبَرَتـا هذا الرَّسـولَ المجاهدَ الـذي لاقىٰ ما لاقـىٰ صَابراً مُحْتَسِبـاً ، وَمالَ قلباهُما لأَنْ تَعْتَنِقا الإِسْلامَ ، وَأَسْلَمَتْ مـارِيَةُ ، وتبِعتْها سيرِينُ على الفَوْرِ ، قَبْلَ أَنْ تَرَيا صاحِـبَ الرِّسالَةِ الذي تسيران إليه ، وشَعَرَتا بـالأُنْسِ بَعْدَ أَنْ وَجَدَتـا مِنْ وَحْشَةِ الفراق للـوَطَنِ ما أَدْمَعَ عُيُونَهُما ، وَمَا أَحْلَى العِوَضَ في الإِسْلامِ والمستقبل القريب الـذي ينتظـرهما هُنَـاكَ في المدينَةِ ، حَيْـثُ الحيـاةُ الجديـدةُ ، والسَّيِّدُ المُطَاعُ في قومِه ، والصحابـةُ الكرامُ ! . وَبَلَغَ الـرَّكْبُ أخيراً مشارِفَ يَثْرِبَ ، واسْتَقْبَلَ نبيُّ المسلمينَ هَـدِيَّةَ المُقَوْقِسِ بالقبول والرِّضا ، وَأَعْجَبَـهُ تَصَرُّفُ حاطبٍ في إسْلام الجاريتينِ على يدَيْهِ . وفي هذا قِسْمٌ عظيم من الخيرِ ، ولا خَيْرَ أعْظَمُ مِنْ أَنْ يَهدِيَ اللهُ القلوبَ على أَيْدينا .

الأسْرَعُ انْتِشاراً

وَأُعْجِبَ الرَّسُولُ بخلُقِ الفَتاتَيْنِ ، واكْتَفَى بأنْ تَبْقَى مارِيَةُ عِنْدَهُ ، وَوَهَبَ أُختهـا سيرينَ لِشَاعِرِهِ (حسَّان بن ثَابتٍ الأنصاري)..

وَطَارَ النَّبأُ إلى دُورِ النَّبيِّ أنَّ هديَّةَ المُقَوْقِسِ مارية فَتَاةٌ حُلْوَةٌ، جاءتْ من أرْضِ النِّيلِ والجمالِ ، وَأَنْزَلَها الرَّسُولُ بمنزِلِ حارثة ابنِ النعمانِ قُرْبَ مَسْجِدِ المدينة .

وَرَاحَتِ الغيرةُ تَلْعَبُ لعبتها في نَفْسِ عائشَةَ ، وبعضِ الضَّرائِرِ الأُخْرَيات ، وَتَكَلَّفت ابْنَةُ أبي بكْرٍ الكثيرَ من الجُهْدِ ، لكيْ تُعلِّلَ نَفْسَها بأنْ لا خطرَ عَليها مِنْ هَذِهِ الشَّابَّةِ المصْريةِ الجديدةِ ، لكنَّها بقيَتْ تُرَاقِبُ في كثيرٍ مِنْ القَلَقِ مَظَاهِرَ اهْتمامِ الرَّسُولِ بمارِيَةَ الجميلةِ ، وَأثَارَ جزَعها أنْ تَراهُ ﷺ يَتَرَدَّدُ عَلَيْها ، وَيَمْكُثُ لَدَيْها طَوِيلاً ، وَهِيَ تَدْرِي كَمْ هُوَ كَرَمُ رسولِ اللهِ كبيرٌ في إحاطتِهِ بأَزْوَاجِهِ ، وَإِنَّهُ لَيْسَ غريباً يا أحبَّتي أنْ تَسْعَدَ مَارِيَةُ بحظوتِها عِنْدَ رسُولٍ مثْلِ محمَّدٍ ﷺ ، وَأَنْ يَطْمَئنَّ لها المُقامُ في كَنَفِهِ ويُعَامِلَها مُعامَلَةَ أُمَّهاتِ المؤمنين ، وَأيُّ سعادةٍ أَعظَمُ مِنْ ذَلِكَ؟

الحذَرُ مطلوبٌ

وَتَشْتَدُّ الغيرةُ ، وَيَصْعُبُ على الضَّرائِرِ أَنْ يَرَيْنَ مارِيَةَ تعيشُ بالقُرْبِ مِنْهُنَّ في سَلامٍ ، وَشَعَرَ الرَّسُولُ ﷺ بذلِكَ ، وَخافَ أَنْ يُصيبَ مارِيَةَ مكْرُوهٌ ، فَنقلَها إلى مكانٍ آخَرَ مُحاطٍ بالكروم يُعْرَفُ بالعاليةِ ، في ضاحِيَةٍ مِنْ ضَواحي المدينة ، ولكنَّ غيرَةَ أزْواجِ النبي لَمْ تَهْدَأْ ، وَهَذِهِ عائِشَةُ تَقُوْلُ فيما تَقُولُهُ : (مَا غِرْتُ مِنْ امْرَأَةٍ إلا دون مَا غِرْتُ مِنْ مَارِية) ، وَلَمْ يَكُنْ قَوْلُها هَذَا إلا لما كان يُبْدِيْهِ رَسُولُ اللهِ مِنْ إعجابٍ بمارِيَةَ .

وَكَثيراً ما كَانَ الرَّسُولُ يَجْلِسُ إلى مَارِيَةَ يحادِثُها وَيُلاطِفُها ، لِتَنْسى مرارة البُعْدِ والغُرْبَةِ عَنْ مِصْرَ ، ولِتَجدَ عِنْدَهُ الأُنْسَ والمودَّةَ والسَّكينَةَ .

ومضت الأَيَّامُ ومارِيَةُ سعيدةٌ بالزَّوْجِ الأنيسِ الذي هو لها السَّيِّدُ والصَّاحِبُ والأَهْلُ والْوَطَنُ ، وانْحَصَرَتْ أمانيها وَخواطِرُها في شَخْصِهِ ، حَيْثُ رَبطَها القَدَرُ بِهِ عَلى غَيْرِ ميعادٍ ،لذلك راحتْ مقابِلَ هَذِهِ المعامَلَةِ الطَّيِّبَةِ تُكِنُّ لَهُ الحبَّ والاحترامَ ، وصَارَ هَمُّها أَنْ تَظَلَّ أبداً مَوْضِعَ حظْوَتِهِ وَرِضاهُ .

﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء ﴾

وَرَفعَتْ ماريةُ يَدَيْها ذَاتَ يَوْمٍ ، وَطَلَبَتْ مِنَ اللهِ أَنْ يَجُودَ عليها بنعمةٍ تجعلها أهْلاً لأنْ ترضيَ رَسُولَ اللهِ وَأَنْ تُنَافِسَ بها ضرائِرَها اللواتي أتيْنَ قبْلَها .

وَلَعَلَّ أَحْلَى الأُمنياتِ التي تحقِّق لها ذلك أنْ يَرْزُقَها اللهُ وَلَداً وذريَّةً ، ولكنْ ما أبْعَدَ الأُمْنية !! وَمَا أدْنَاهَا مِن المُسْتحيل !. هكَذَا كانَتْ تَرَاهَا في نَظَرِها ، وَلَقَدْ تَزَوّجَ الرَّسُولُ بَعْدَ خديجَةَ عَشْرَ زَوْجاتٍ مِنْهُنَّ الشَّابَّةُ الفتيَّةُ ، والمرأةُ الناضجةُ ومنهنَّ مَنْ كانَتْ ذَاتَ وَلَدٍ ، ولكنهنَّ في بَيْت رسُولِ اللهِ لَمْ يُنْجِبْنَ لَهُ وَلَداً ولا بنتاً ، وحَتَّى أوْلادُهُ مِنْ خديجَةَ رحمها اللهُ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ سِوى ابنةٌ واحِدَةٌ هي السَّيِّدَةُ (فاطمةُ الزَّهْراءُ) ، وَقَدْ كادَ السَّيِّدُ الرّسولُ يُنْهي العِقْدَ السَّادسَ مِنْ عُمُرِهِ وَأَمْضَى سنينَ مُجْدبةً من الذرِّيَّةِ ، فَأَنَّى لمارِيةَ أنْ تكُونَ لَهَا الأُمُومَةُ إذَنْ ؟! إنَّها لأُمْنِيةٌ أبْعَدُ مِنَ الوَهْمِ وَيا لَهُ مِنْ أمَلٍ أوْهَى مِنَ السَّرَابِ ، ولكنّ الدُّعاء مَطْلُوبٌ ، وَهَا هي ذي قَدْ دَعَتِ اللهَ تَعالى ، وَهُوَ السَّميعُ المجيبُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ وَيخْتارُ وهُوَ سَمِيعُ الدُّعاء .

ما أكرمَكَ يا ربُّ !!

وأَقْبَلَ العامُ الثاني على زَوَاجِ مارِيَةَ مِنْ رسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَحَسَّتْ بَوَادِرَ الحملِ ، فكَذَّبَتْ إِحْسَاسَهَا ، وَكَتَمَتْ ما بها شَهْراً وَشَهْرَيْنِ وهي في رَيْبٍ مِنَ الأَمْرِ ، لا تَدْرِي أَحَقٌّ هُوَ ؟ أَمْ حُلُمُ يَقَظةٍ ؟ أَمْ رُؤيا مَنَامٍ ؟ .

لكنَّ الجنين يكبر يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ ، وَأَعْرَاضُ الوحَمِ وآلامُ الحمل قَدْ بَدَأَتْ تَظْهَرُ ، وَصَارَ الأَمْرُ أَوْضَحَ مما بَدَأَ ، فلا داعي لِكَتْمِهِ ، ولا مُبَرِّرَ أَنْ تكتُمَه وتكذِّبَهُ ، وَهُنَا أَسَرَّتْ بالخبرِ إلى أُخْتِها سيرين ، وهي تبكي دُمُوعَ الفَرَحِ . فَمَا حَسِبَتْ أَنَّ السَّماءَ سَوْفَ تُفْتَحُ لدُعائِها ، وتحضُنُ لها أُمْنيتها ، وكَمْ كَانَ سُرورُ الرّسولِ ﷺ عظيماً حينما جاءَ فَأَخْبَرَتْهُ وَهُوَ يعرف أعْرَاضَ الحملِ والوحَمِ مِنْ قَبْلُ - أيَّامَ خديجةَ - وإِنَّهُ الآنَ لَيَرْفَعُ إلى السَّماءِ وَجْهاً مُشْرِقاً ، ويشكُرُ ربَّهُ مُغْتَبِطاً ، أَنْ أنْعَمَ عَلَيْهِ بذلك بَعْدَ أنْ فقَدَ رُقيَّةَ وزينب وأُمَّ كلثوم ، ومِنْ قَبْلِهِنَّ القاسمَ وعبدَ الله ، وسرعان ما سَرَتِ البُشْرى في أنحاءِ المدينةِ أنَّ رسولَ اللهِ يَنْتَظِرُ مولوداً لَهُ مِنْ ماريةَ المصرية ، ولكنْ ما أصْعَبَ الوقْعَ الأليمَ على نِسَاءِ النَّبيِّ الأُخْرَيات !!

﴿ فإنِّي قريبٌ .. ﴾

لَقَدْ غَارتِ الضَّرائِرُ ، وَأَكَلَهُنَّ الغَيْظُ ، وَسَيْطَرَ عليهنَّ الحُزْنُ فكَيْفَ تحْمِلُ هَـذِهِ الغريبةُ ، ولمّا يَمْضِ عليها في المدينة وقْتٌ طويـلٌ ؟ أَيُؤثِـرُها اللهُ بهذه النّعمـةِ الكبرى وهُنَّ محْرُومـاتٌ لَمْ يَلدْنَ للرَّسُول ﷺ وَلَداً ؟ ..

وَحاول الرَّسُولُ جُهْدَهُ أنْ يُبْعِدَ عَنْها خطَرَ الغيرةِ ، وَدَامَ عَلَى رعايته لمارية ، والعنايةِ بها ، حتى أَتمَّتْ أشْهُرَ حمْلِها ، وَحَانَتْ سَاعَةُ الوَضْعِ ، فَدَعَا النَّبيُّ إحدى الصحابيّات لِتكُونَ قابلتَها وَمُسَاعِدَةً لها أثْناء الولادَةِ .

وانْتَحى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ناحيةً من الدارِ : يصلِّي وَيَدْعُو، وَيَسْأَلُ اللهَ لها الراحةَ والسَّلامَـةَ وَحُسْنَ الخلاصِ مِنْ آلامِ الوَضْعِ وَمَصَاعِبِهِ .

وما هـي إلا سَاعَةٌ ، حَتَّى جـاءَتِ البُشْرَى ، فَقَدْ وَلَدَتْ مـارِيةُ بِسَلامٍ طفلاً صغيراً ، ولا تَسألوا يا أحبائي عَنْ فَرْحَةِ الرّسول بابْنِهِ المولودِ ، لَقَدْ أثْلَجَ صَدْرَهُ ، وَطَـابَتْ رُوحُهُ ، وَأَشْرَقَ وَجْهُهُ ، وَظَهَرَ البِشْرُ على محيّاهُ الكريمِ .

كالجسدِ الواحِدِ

ويُقبِّلُ الرَّسولُ على وليدِهِ يَحْمِلُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَرِحاً ، ويُهنىءُ مارِيةَ بِوَلَدِهَا الذي جَعَلَها حُرَّةً بَعْدَ أنْ كَانَتْ جارِيةً مهداةً من المقَوْقِسِ..

وَيَخْتَارُ للصَّغِيرِ اسْماً جميلاً هُوَ (إبراهيم) تَيَمُّناً باسم جَدِّ الأنبياءِ سيِّدِنا إبراهيمَ ، ويهيىءُ لَهُ مَنْ يُرْضِعُهُ ويَعْتني بِهِ ، ثُمّ يَتَصَدَّقُ عَلَى مساكينِ المدينة بما جَادَتْ بِهِ نَفْسُهُ فرحاً بهذِهِ المناسَبَةِ الحلوةِ.. ولَيْسَ غريباً أنْ يَفْعَلَ رسُولُنا هذا ، فَلَقَدْ رَزَقَهُ اللهُ بِإبْراهيمَ بَعْدَ طُولِ انْتِظارٍ ، والحمدُ للهِ ، والشُّكْرُ لَهُ .. وأحْلَى التّهاني لكَ يا رسولَ اللهِ ، وهنيئاً لكَ المولودَ الجميلَ يا أبا إبراهيمَ ..

وَيَنْمُو الصغير نمواً طيِّباً ، ويَرْقُبُ أَبُوهُ نُمُوَّهُ ، ويجِدُ فيه أُنْسَهُ وَمَسَرَّتَهُ ، وَيَودُّ لو شَارَكَتْهُ دنياهُ كُلُّها هَذا الأُنْسَ .. وَحَقّاً: لَقَدْ فَرِحَتِ السَّماءُ وفرحتِ الأرْضُ ، وَبَدَا السُّرُور والبِشْرُ على وَجْهِ جبريلَ وبيوتِ الصَّحابَةِ ، وَأقْبَلَ الجميعُ يهنِّئُونَ النبيَّ السَّعيدَ بما أكْرَمَه اللهُ بِهِ ، متمنِّينَ للصَّغيرِ أيّاماً حُلْوَةً ، وسَعَادَةً دائمةً .

مِنْ طَبِيْعَةِ النَّفْسِ

وَعَصَفَتِ الغيرةُ مِنْ جَديدٍ في قُلوبِ عائشةَ وَضَرَائِرِهَا ، وَحَمَلَ الزَّوْجُ ابْنَهُ إبراهيمَ بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ ، وَذَهَبَ بِهِ إلى عائِشَةَ ، لِيُرِيَهَا إيَّاهُ ، وَمَا أَنْ وَصَلَ بِهِ حتَّى سَأَلَهَا فَرِحاً : (يا عائشةُ ، ألا تُلاحظِينَ الشَّبَهَ بَيْني وبَيْنَهُ) ..؟

ونظرتْ عائِشَةُ لا تدري ما تقولُ ؟ ولَذَعَها سَهْمُ الغيرةِ ، وأَحَسَّتْ أَنَّهُ نَفَذَ إلى قَلْبِها ، وكادَتْ تبكي ، فَأَمْسَكَتْ دُمُوعَها ، وَترَكَ لها حُرّيةَ القَوْلِ لِتُنَفِّسَ عَنْ نَفْسِها شيئاً مما أصابَها ، فلَمْ تَتَمالَكْ أنْ أجابَتْ رسولَ اللهِ قائلةً : (ما أرى بَيْنَكُما شَبَهاً) !! .

مَعَكِ الحقُّ يا عائِشَةُ أنْ تغاري ، ولكنْ ما ذَنْبُ أُمِّ إبراهيمَ إذَا أكْرَمَها اللهُ بولَدٍ جميلٍ يُشْبِهُ أباه ؟ وَغَفَرَ اللهُ للضَّرائِرِ غيرَتَهُنَّ ، ومَا على مارِيةَ أُمِّ إبراهيمَ إلا أنْ تَصْبرَ وتُحْسِنَ الاستعانة باللهِ على ما يحيطُ بها بَيْنَ أُمَّهاتِ المؤمنين رَضيَ اللهُ عَنْها وَعَنْهُنَّ .

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ.. ﴾

وإِنَّها لأَيـّامٌ حُلْوَةٌ تمرُّ على قَلْبِ الرَّسـول ﷺ ومـاريـة وإِبراهيـمَ الذي شبَّ وتَرَعْرَعَ . وها هـو ذا الصَّغيرُ يجْتازُ الشَّهْرَ السَّادِسَ بعـد السنةِ الأولى من عُمُرِهِ ، يـداعِبُه أبُوه وتحضُنه أُمُّـهُ فيجدان في ذلـك تسريةً وَسَلْـوَى ، ويدفقان عليه سَيْلاً مِنْ قُبُلاتِ المحبةِ والحنانِ مما لا يَبْخَل بِهِ الأبوان على أوْلادِهما ..

وَلَمْ تَسْعَدْ ماريـةُ سَعَادَةً أكبرَ مِنْ أنْ وَهَبَتِ الـرَّسُولَ الزَّوْجَ غُلاماً ، تُقِرُّ بِهِ عَيْنَهُ ، وَيَتَعَزَّى بِهِ عما فَقَدَهُمْ من أبْنَاءِ خديجة .

إلا أَنَّ هَذِهِ السَّعَادَةَ يـا أحبَّتي لَمْ تَدُمْ طويـلاً ، فَلَقَدْ مرِضَ إبراهيـمُ ، وَجَزِعَتْ أمُّـهُ وَدَعَتْ أُخْتهـا سيرين إليها ، فقَـامَتا ساهرتَيْنِ حَوْلَ فِراشِهِ تُمَرِّضَانِهِ قَلقتَيْنِ ، وَيَشْتَدُّ المرضُ ، وَيَبْذُلُ الأهْلُ جُهْـدَهُم كُلَّهُ ولكـنْ دُون جدْوى ، ويُـدركُ الأبوانِ أنَّ إبْـراهيمَ الـذي قرَّتْ بِـهِ العيونُ لَـنْ يمهلَهُ المَوْتُ ..وَجـاءَتْ سكراتُ الموتِ ، وحَـارَ الأَبُ في أَمْرِهِ أمـام أُمٍّ تبكي ، وَخَـالَةٍ تَصْرخُ !.

﴿.. وإِنَّا إليه راجعون﴾

ولم يتمالكْ رَسُولُ اللهِ نَفْسَـهُ أنْ حَمَلَهُ ، وَوَضَعَهُ على حِجْرِهِ ، وَقَلْبُـهُ يَتَفَطَّـرُ أسىً وحُـزْنـاً ، وَأَصْغَــى واجماً إلى حَشْرَجَةِ الاحْتِضارِ، ثُـمَّ انْحَنَى على جُثْمانِ فقيـدِهِ الذي فـارَقَ الحياةَ ، فَقَبَّلَهُ والدَّمْعُ يَفيضُ مِنْ عَيْنَيْهِ ، واللِّسانُ يحكي نَفْثَةَ قَلْبين :

(يا إبراهيمُ .. إنا لن نُغْنِيَ عنْكَ مِنَ اللهِ شيئاً .يا إبراهيمُ .. لَوْلا أنَّـهُ أمْرٌ حَقٌّ ، وَوَعْدُ صِـدْقٍ ، وأَنَّ آخِرَنا سَيَلْحَقُ بـأَوَّلنا ، لحزِنَّا عَلَيْكَ بأَشَدَّ مِنْ هذا .. تَدْمَعُ العَيْنُ ، وَيَحْزَنُ القَلْبُ ، ولا نَقُولُ إلا ما يُرضِي الرَّبَّ ، وإِنَّا يا إبراهيمُ عليك لمحزُونون ، وإِنَّا للهِ وإِنَّا إليه راجعُون) .

وَأَقْبَلَ الأبُ عَلَى مـاريةَ الأُمِّ الثكلى يُواسيها في ابنهـا قائلاً : (إِنَّ لَهُ مُرْضعاً في الجنَّةِ) ، ثُـمَّ أمَرَ بأنْ يُغَسَّلَ الصَّغيرُ ، وَشَيَّعَهُ بَعْدَها مَعَ عَمِّهِ العبَّاسِ ، وجماعةٍ من المسلمين ، وَدَفَنَهُ وَسَوَّى قَبْرَهُ بيدِهِ وَلَيْسَ لنا يا أحبَّتـي إلا أن نقُولَ معه : ﴿ إنـا لله وإِنَّا إليه راجعون ﴾ .

نَفْثَةُ قَلْبٍ مَكْلُومٍ

وَهكذا حُرِمَتْ ماريةُ مِنْ وَلَدِها ، وَجَلَسَتْ إلى جانِبِ زَوْجِها وَهُوَ يطْوي جُرْحَهُ في قَلْبِهِ الكبيرِ صابراً محتسباً مُسْتسلماً لقضاءِ اللهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى .

وَاعتكَفَتْ في بيتِها تُحاوِلُ أنْ تتَجمَّلَ بالصَّبْرِ حتَّى لا يُجْرَحَ القَلْبُ مَرَّتَيْنِ ، فإذا عَزَّ الصَّبْرُ ، خَرَجَتْ إلى البقيعِ أمَامَ القَبْرِ ، تَلْتَمِسُ هناكَ راحةً في البكاءِ .

ولم يَعِشِ الرَّسُولُ بَعْدَ مَوْتِ إبراهيمَ طويلاً ، فَلَقَدْ أَكْمَلَ اللهُ للمسلمين دينَهُمْ وَأَتَمَّ عليهمْ نعمتَهُ ، ويفارق النبيُّ الحَبِيْبُ صحابَتَهُ وَزَوْجاتِهِ ، وَيَلْحَقُ بالرفيقِ الأعْلَى وَتَحْزَنُ عليه ماريَةُ ، وتبكي أنْ حُرِمَتْ مِنْ زَوْجِها بَعْدَ أنْ حُرِمَتْ مِنْ وَلَدِها ، ولم يكُنْ يعزِّيها إلا أنَّها كانَتْ أُمّاً لإبراهيم وَزَوْجَةً لرسُول ربِّ العالمين الذي اسْتَوْصَى بها خيراً قبل وفاتِهِ فقال : (اسْتَوْصُوا بالقِبْطِ خَيْراً ، فإنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِماً) .

وَتَبْقَى ماريةُ في عُزلةٍ بَعْدَ فَقْدِ الحبيبِ ، لا تكاد تَلْقَى غيرَ أختِها سيرين ، ولا تَخْرُجُ إلا لكي تَزُورَ قَبْرَيْ الفقيدَيْنِ الغالِيَيْن ، وما أكرَمَها مِنْ أُمٍّ وَزَوْجَةٍ صابرةٍ مُحْتَسِبَةٍ !!

البقيعُ مَثْوَى الأُمَّهات

وتُتمُّ الصابِرَةُ خَمْسَ سنوات ، لِتَذُوقَ طعمَ الحياة الآخرة مَعَ زَوْجِها وولدِها ، وَيَحْشُدُ عمرُ ابنُ الخطّابِ النّاسَ في جنازتِها ، ويُشَيِّعها المسلمون حتّى مثواها بالبقيع حَيْثُ دُفِنَتْ إلى جانب أُمَّهات المؤمنين اللواتي سَبَقْنَها إلى ذاك الثَّرى الطَّيِّبِ ، رَحِمَها اللهُ .. وجَزاهَا الخيْرَ كُلَّهُ في الآخرةِ .. لَقَدْ ماتَتْ وَحَسْبُها وَصيَّةُ الرّسولِ ﷺ بالقبط خيراً ، وَحَسْبُها أنَّها بزواجِها مِنْ رَسُول اللهِ قَدْ دَعَّمَتْ ما بَيْنَ المسلمين وأَهْلِ الذِّمَّةِ ، كما فَعَلَتْ مِنْ قَبْلُ ريحانَةُ بني قريظة ، وصفِيَّةُ عقيلَةُ بني النَّضير .

إلى اللقاء يا أحبَّتي ..

مَعَ آخِرِ لقاء في مجموعة أمهات المؤمنين ، مَعَ (مَيْمونة بِنْت الحارِثِ) رَضِيَ اللهُ عَنْها .

ميمونة

آخر الزوجات

بسم الله الرحمن الرحيم



دَارُ الهُدَى لِلنّشرِ والتّوزيع

الرياض: طريق صلاح الدين الأيوبي - حي الملز - بالقرب من إدارة مكافحة المخدرات
هاتف: ٤٧٧٧٥٤٤ - ٤٧٩٤٥١٧ - ناسوخ: ٤٧٧٦١٣٩ - ص.ب: ٢٥٥٩٠ - الرياض ١١٤٧٦

..واجْعَلْنا للمتَّقينَ إماماً

مَرْحَباً بكم يا أحبائي في آخِرِ حَلقَةٍ مِنْ حَلقَاتِ أُمَّهاتِ المؤمنين، مَعَ الزَّوْجَةِ الأخيرةِ (مَيْمُونَةَ). وإِنَّها لواحدةٌ مِنْ أَرْبَعِ أَخواتٍ قَالَ عَنْهُنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذاتَ مَرّةٍ: (الأخواتُ الأَرْبَعُ مُؤمِناتٌ: ميمونةُ وأُمُّ الفَضْلِ وَأَسْماءُ وَسَلْمَى)، وَسَأَتَحَدَّثُ قَلِيلاً عَنْ أُسْرَتِها، ثُمَّ أُفَصِّلُ لَكُمُ الحَدِيثَ عَنْ مَيْمُونَةَ وَزَواجِها مِنْ الرَّسولِ الكريم عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

لَها أخواتٌ كثيراتٌ، لكنَّ الثلاثَةَ اللواتي شَمَلَهُنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ معَها بقَوْلِهِ قَدْ شَهِدَ لَهُنَّ التّاريخُ بِحُسْنِ إسْلامِهِنَّ وإِسْلامِ أزْواجِهِنَّ.

فَأُمُّ الفَضْلِ وَاسْمُها لُبابَةُ أَوَّلُ امْرَأَةٍ آمَنَتْ بِالرَّسُولِ بَعْدَ خديجَةَ، وَزَوْجُها هُوَ العبّاسُ عَمُّ الرَّسولِ ﷺ، وَأَسْماءُ تَزَوَّجَها جَعْفَرُ ابْنُ عَمِّ الرَّسولِ، وَبَعْدَ اسْتِشْهادِهِ في غَزْوَةِ مُؤْتَةَ، تَزَوَّجَها أَبُو بَكْرٍ الصِّدّيقُ والدُ عائِشَةَ زَوْجَةِ الرَّسول ﷺ، وَسَلْمَى هِيَ زَوْجُ حَمْزَةَ عَمِّ الرَّسولِ وَأَسَدِ اللهِ وَأَسَدِ رَسُولِهِ وسيِّدِ الشُّهَداءِ في أُحُدٍ.

الأُسْـرَةُ المؤمنةُ نِعمَةٌ

وقد اجتمعتِ الأَخَوَاتُ الأَرْبَعُ لأمٍّ أَكْرَمَها اللهُ بأَفْضَلِ الأَصْهَارِ، وَقد قيـل عَنْها: (أَكْرَمُ عجـوزٍ في الأَرْضِ أَصْهاراً هي هِنْـدُ بنْتُ عَـوْفٍ، أَصْهارُهـا رسـولُ اللهِ ﷺ، وأبـو بكْرٍ الصـدِّيـقُ، وَحَمْزَةُ والعبَّاسُ عمّا الرَّسولِ، وَجَعْفَرُ ابنُ عمِّهِ رضي الله عنهم أَجْمعِيْن).

وَمَيْمُـونَةُ يـا أحِبّائي هـي زَوْجَةُ الصِّهْـرِ الأَوّلِ مِنْ هَـذِهِ القائِمَـةِ الذَّهَبيَّةِ. وَقَدْ كَانَتْ مُتَزَوِّجَـةً قَبْلَ زَواجِها برسولِ اللهِ لكِنَّ زَوْجَها قَدْ مَـات عنها وهي في رَيْعـانِ الشَّبابِ والصِّبا، وبقيـتْ مُتَرَمِّلَةً حتَّى أكْرَمَها اللهُ بمحمَّدٍ أكْرَم رَجُلٍ تَتَمَنّاهُ النِّساءُ في مَكَّةَ وغيرِها.

تعالـوا الآنَ لِنعرفَ عَنْ هَـذَا الزَّوَاجِ ما نكْمِـلُ بِهِ مَعْرِفتَنـا عَنْ نِسَاءِ النبيِّ ﷺ.. وهنيئاً لِهٰذِهِ الزَّوْجَةِ الأخيرة التي شَهِدَ لَها رَسُولُنا العظيـمُ أَنَّها مُؤْمنـة في أُسرةٍ تَفَتَّحَـتْ قُلـوبُ أَفْرادِهـا للهُـدى، وَأُفْعِمَتْ نُفُوسُهُمْ بالإِيمانِ، وَسَعَـوْا لِنُصْرَةِ دينِ اللهِ وحمايةِ رسولِهِ بضمائِرِهِم وقُلُوبِهم وأيديهم وأعمالهم الخالصة لوجْهِهِ تعالى..

اللّهُمَّ اجْعَلْنَا نَنْشَأُ في أُسَرٍ مثلِ هَذِهِ الأُسْـرَةِ الكريمةِ المؤْمنةِ..

الضَّيْفُ ضَيْفُ اللهِ

مَيْمُونَةُ الآنَ في مَكَّةَ ، وَيَعْرِفُها النّاسُ باسْمِ (بَرَّة بنت الحارث) ، وَقَدْ أَخَذَتْ مع أهلِ مكّةَ تَرَقُّبُ مجيءَ الرَّسولِ وأَصْحَابِهِ مِنَ المدينة إلى الْبَيْتِ الحرام مُعْتَمِرينَ ، كَمَا نَصَّتْ على ذَلِك مُعَاهَدَةُ صُلْحِ الحديبيةِ . وَبَدَأَ قَلْبُها يَحِنُّ لِرُؤْيةِ المؤمنين الذين هَاجَروا مُنْذُ سَنَواتٍ سَبْعٍ مِنْ مَكَّةَ إلى المدينة ، وَبَاتَتْ تَحْلُمُ بِعَوْدَتِهِم ، وَتَتَمَثَّلُهُمْ يطُوفون بالبيتِ العتيقِ .

وَيَمْلَؤونَ عيونَهُمْ مِنْ مَراتِعِ الصِّبا وَأَرْضِ الأَجْدادِ ، فَلَقَدْ آنَ لَهُمْ أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ وَيَعْبُدُوهُ في المكان الذي رَفَعَ إبراهيمُ قواعدَهُ لِتَوْحيد اللهِ وَحْدَهُ دُونَ سِواهُ .

أُذُناها تَسْمعانِ أَنَّ محمداً قَدْ صَارَ مِنْ مكّةَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ، وَأَنَّ وَراءَهُ أَلْفَيْنِ مِن الصَّحابةِ الكرامِ ، يَتَلَهَّفُونَ شَوْقاً لِرُؤْيَةِ الكعبةِ ، وَيَحِنّونَ إلى أُمِّ القرى ومَنْبَتِ الإِسْلام وَمَهْبط الوَحْيِ .

رَفَعَتْ يَدَيْها إلى السَّماءِ تَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ ضُيُوفُكَ وَأَنْتَ الكريم ، فَأَنْزِلْ عليهم في بَيْتِكَ سكينةً منك ، وَانْشُرْ مَحَبَّتَهُمْ في قُلُوبِ سَاداتِ قُرَيْشٍ ، وَاجْعَلْها يا ربِّ فاتحةَ خَيْرٍ وَسَلامٍ .

المستَقْبَلُ للإِسلامِ

وَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُ الحُدَاةِ ، وَدَخَـلَ المعتمرونَ مكَّةَ آمنين لا يَخَافُون ، وَتَلَوْا آيةَ الوَعْدِ الحقِّ : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بالحقِّ ، لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحرامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمنين ، مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ، لا تَخافُونَ ، فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ، فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلْكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ ، ثُمَّ هَتَفُـوا في صَوْتٍ وَاحِـدٍ مُلبِّينَ : (لَبَّيْكَ اللَّهُـمّ لَبَّيْكَ ، لبَّيْكَ لا شَرِيـكَ لَكَ لَبَّيْـك ، إِنَّ الحمد والنِّعْمَةَ لَكَ والمُلْكَ ، لا شريكَ لـك) ، وتجاوَبَتْ أَرْجَاءُ مكّةَ بـالهتَافِ المُؤمِـنِ ، وَتَنَاهَـى إلى أسْمَاعِ المُشْرِكِين في مكَّةَ دُعَـاءُ رسولِ اللهِ ﷺ مِنْ سَاحَةِ الحَرَمِ .

(لا إلهَ إلا اللهُ وَحْـدَهُ ، صَدَقَ وَعْـدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَأَعَـزَّ جُنْدَهُ ، وَهزَمَ الأَحْزابَ وَحْدَهُ) ، وما بقي مكّيٌّ إلا وَأَيْقَنَ أنَّ ما يَراهُ حَقٌّ ، وَأَنَّ المُسْتَقْبَلَ لدين محمَّد حَقّاً وَفَعَلَ المَشْهَدُ المهيبُ في نُفُوسِ أَهْلِ مَكَّـةَ فِعْلَ السِّحْرِ وَمَا أَحْلاهُ مِـنْ مَشْهَدٍ !! وَمَا أكْرَمَهَا مِنْ دُمُوعٍ تَنْهَمِرُ مُبَشِّرَةً بالخير وَقُرْبِ السّلام الحقيقي .

الزّواج سُنّةُ الحَياةِ

ثـلاثَةُ أيّـامٍ ، سَيَبْقى فيهـا المُسْلِمُونَ في مَكّـةَ ، هكذا كـانَ الاتِّفاقُ والعَهْدُ ، وَتَطَلَّعَـتِ العُيُونُ حائِرَةً ، تَراهُـمْ وَهُمْ يُؤَدُّونَ الشَّعائِرَ ، وَشَعَرَتِ القُلُوبُ بـالعَظَمَةِ التي تَسِيرُ مَعَ المسلمينَ وَتَطُوفُ ، وإِنَّ القَلْـبَ لَيَخْشَعُ ، وإِنَّ النَّفْـسَ لَتَأْذَنُ بـالصَّفاءِ يَدْخُلُ إليها ، وَإِنَّ البيوتاتِ في مكَّةَ لَتُنْصت وَتَسْكُنُ ، لِتَسْمَعَ هَمَسَـاتٍ تَـدُورُ بَيْنَ أُمِّ الفَضْـلِ وأُخْتِها بَـرّة . ويـا لَلْهَمَسَـاتِ الحلْوَةِ ، مَا بَالهما تَتَحادثـان وعلى وَجْهَيْهِما إشراقةٌ جميلةٌ ، ونورُ أَمَلٍ سعيدٍ ؟ .

لقد أَسَرَّتْ بَرَّةُ إلى أُخْتِهـا حديثاً ، فيهِ أُمْنيةُ سَيِّـدَةٍ من أكْرَمِ سَيِّداتِ مَكَّةَ هَفا قَلْبُها إلى محمَّـدٍ ﷺ .. هَلْ يَقْبَلُ الزَّوَاجَ منها يـا تُرى ؟ وَهَـلْ يَضَعُ حَـدّاً لترمُّلِهـا وَوَحْدَتِها ؟ إِنَّها أَرْمَلَـةٌ في السّادِسَةِ والعشرين مِنْ عُمرِها ، وَيَعْرِفُها الرَّسُولُ واحدَةً من المُؤْمِنـاتِ السّـابقـاتِ إلى الإسْـلامِ ، وَلَيْـسَ لها إِلا أُختهـا أُمُّ الفَضْلِ ، تَذْهَبُ بِأُمْنيتِها هَذِهِ إلى حَيْثُ تَنال الرِّضا والموافقَةَ .

المؤمِنُ يتوسَّطُ للخَيْرِ

وَأَدْرَكَتْ أُمُّ الفَضْـلِ أَمْرَ أُخْتِها ، وَهَـزَّتْ رَأْسَهَا موافِقَةً على الوَساطَةِ الخَيِّرَةِ ، وَقامَتْ مِنْ فَوْرِهَا إلى زَوْجِها العبّاسِ تحكي لَهُ الأمْـرَ ، وَهُوَ عمُّ الرّسولِ الكـريم ، وَلَهُ مِنْ عِظَمِ المكانَةِ في نَفْسِ النَّبي مُنْـذُ السَّنَواتِ الأُوْلَى للدَّعْوَةِ ، ولا سيَّما أَيّـامَ بَيْعَةِ الأنْـصَارِ لابْـنِ أخيه في العَقَبَةِ قُـرْبَ مَكَّةَ ، وَفَهِمَ العبَّـاسُ ما تُـريـدُهُ زَوْجَتُهُ ، ومـا كَـانَ لِيَتَرَدَّدَ في حَمْلِ رسـالَةِ بَـرَّةَ إلى نبـيِّ الإِسْـلامِ ، ولِمَ لا يَـذْهَـبُ في مثلِ هـذا فيكـرمَ بَـرَّةَ شقيقـةَ أُمِّ الفَضْلِ ، فتكونَ بذلك زَوْجَةً لرسُولِ المسلمين ، تَلْمسُ عَظَمَةَ الإِسْـلام عَنْ قُـرْبٍ وَتُشَـارِكُ المجاهِـدَ الكبيرَ حيـاتَهُ ؟ إِنَّـهُ لم يَتَرَدَّدْ، أَظْهَرَ لأُمّ الفَضْلِ اسْتَعْدادَهُ وَرِضَـاهُ ، ثُمَّ سَارَ إلى النبيِّ ﷺ لكيْ يَنْقُلَ إليه رَغْبَةَ المُؤمِنَةِ الصَّادِقَةِ ، وَإِنَّ الأمـلَ ليتراءى في عَيْنَيْهِ في أَنْ يَسْتَجيبَ لَهُ ابْنُ أَخيهِ .

اللَّهُمَّ اجْعَـلِ العاقِبَـةَ خَيْراً ، وَحَقِّقْ أُمْنِيـةَ الأَرْمَلَةِ الشّـابَّةِ ، وَاجْعَلْها أُمّاً للمؤمنين ، وَوَاحِدَةً مـن النِّساء الكريمات اللواتي تَشَرَّفْنَ بالزَّوَاج من رسولِكَ العظيم ﷺ .

(فَاظْفَرْ بذَاتِ الدِّينِ)

وَوَصَلَ العبّاسُ إلى رسول الله ، وَحَدَّثَهُ عَنْ بَرَّةَ الصّالِحَةِ المُؤْمِنَةِ ، وَبَيَّنَ لَهُ أَنَّها تَرَمَّلَتْ مِنْ زَوْجها (أبي رُهْمٍ) ، وهي ما تَزَالُ شابَّةً صبيَّةً ، ثُمَّ سَأَلَهُ : هَلْ لَكَ أنْ تتزَوَّجها يا رَسُولَ اللهِ ؟ .

وما كانَ الرَّسُولُ ليبخَلَ في أَنْ يُحقِّق أُمنيةَ بَرَّةَ ، وَلَعَلَّهُ من الجميلِ إِنْ تَخَلَّلَتِ العُمْرَةَ موافَقةٌ كريمةٌ ، يَتَقَرَّبُ بها مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وبيوتاتِ البلدِ الحرام ، وَيُصاهِر القرشيِّين ويجعلها خاتمةَ لقاءِ الأَيّامِ الثَّلاثة بَعْدَ أَداءِ الشَّعائرِ والمناسِكِ ..

أَبْشِري يا بَرَّةُ .. هنيئاً هَذا الشَّرفُ العظيم .

لقد ارْتَضَى الرَّسُولُ زَوَاجَ بَرَّةَ ، وَأَرْسَلَ ابْنَ عَمِّهِ جَعْفراً زَوْجَ أُخْتِها أَسْمَاءَ لكي يخطبَها ، وَمِنْ حُسْنِ المصادَفةِ أَنَّ بَرَّةَ كانَتْ عَلَى بعيرٍ لها ، عِنْدَما جَاءَ طَلَبُ الخطبة ، فكَان جَوابُها : (البعيرُ وما عليه للهِ ﷺ ولرسُولِهِ) ، وَتَمَّ العقْدُ ، وَزَوَّجَ العبّاسُ بَرَّةَ مِنْ ابْنِ أخيه رَسُولِ اللهِ ، وَأَصْدَقَها الرَّسُولُ أربعمائة دِرْهَمٍ مَهْراً لها .

نُحِبُّ الخيرَ للآخَرِين

وكانَ عَقْدُ الزَّواجِ حادثَةَ خَيْرٍ ، أَحَسَّ النَّبيُّ بَعْدَهـا أَنْ لَوْ أَطَالَ المُقام بمكَّةَ لكانَ ذلك خَيْراً ، ولمالَتَ إلى الإسْلام قُلُوبُ كثيرٍ من أبْناءِ قريش ، لذلك كَانَ جَوَابُهُ لمنْ أَرْسَلتْهُمْ قُرَيشٌ إليه ليَطْلُبُوا مِنْهُ الخُرُوجَ في نهاية اليَوْمِ الثَّالِثِ ، أنْ قَالَ لَهُمْ : (ما عَلَيْكُمْ لَوْ تركْتُموني ، فَأَعْرَسْتُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ، وَصَنَعْنَا لكُمْ طَعَاماً فَحَضَرْتُمُوهُ ؟) . كان ذلك مما يحبُّه رَسُولُ اللهِ ليَجعلَهُ سبيلاً لإيمانِ قُرَيْشٍ ، لكنَّ قُرَيْشاً خَشِيَتْ عاقبةَ إِطَالَةِ محمَّدٍ مقامَهُ في مكَّةَ ، فكانَ رَدُّ السَّادَةِ فيها قَوْلَهُمْ بِشِدَّةٍ وَجَفَاءٍ : (لا حَاجَةَ لنا بطَعَامِكَ فاخرُجْ عَنّا) ..

إِذَنْ لا عُرْسَ في مَكَّةَ ، والعروس سَتَلْحَقُ بالجَيْشِ والمسلمين المعْتَمِرِينَ الذين أنْهوا أَيَّامهم الثَّلاثَةَ ، وَأَذِنَ الرَّسُولُ للمسْلِمين بالرَّحيل ، وَخَلَّفَ أَحَدَ صَحابتِهِ واسْمُهُ (أبو رافعٍ) ليلْحَقَ بِهِ في صُحْبَةِ العروس (بَرَّة) عِنْدَ خُروجِها مِنْ مَكَّةَ ، ولْنَرْحَلْ يا أحبتي مع رسول الله بقُلُوبنا ، نَسِيرُ مَعَ الرَّكْبِ، لنحْضُرَ الحَفْلَةَ التي سَتُقَامُ للعروسَيْنِ بعيداً عن مكَّةَ .

ختامُ مِسْك

وفي مكانٍ اسْمُهُ (سَرْفٌ) على مَسافةٍ قـريبةٍ من مكَّةَ ، نَزَلَ الرَّسُولُ في انْتِظَارِ عَرُوسِهِ ، وَخَرَجَ أَبُو رافِعٍ بعَرُوسِ رَسُولِ اللهِ مِـنْ مكَّةَ ، حَتَّـى لَـحِقَ بـالرَّسُـولِ ، وفي ظلالِ شجـرةٍ كبيرةٍ أُقيمَتْ قُبَّةٌ ، زُفَّتْ فيها برَّةُ إلى النبيّ ﷺ .

وفرِحَ المسلمون لِفَرَحِ نَبيِّهِمْ ، وَقَدَّمُوا له التَّهاني مَسْرُورين ، وباركُـوا للعروسَيْن زَواجَهُما ، وَإِنَّها لَفَرْحَـةُ العمرِ ، أَنْ يَـدْخُلَ المُسْلِمُونَ مَكَّـةَ بعد حِرمـانٍ دامَ سَبْعَ سنينٍ . وَمِنْ ثَـمَّ يكْمِلُ الرَّسُـولُ فَرْحَتَهُـمْ أَنِ اصْطفَى لِنَفْسِهِ وَاحِـدةً مِنْ نِسَـاءِ مَكَّةَ ، يُقَرِّبُ فيها ما انْقَطَعَ مِنْ صِـلاتِ الرَّحِمِ ، وَيُخَفِّفُ مِنْ عَداوَةِ القرشيِّين بِمُصاهَرَتِهِمْ ، وإِنَّها لمناسَبَةٌ حُلْوَةٌ ، أنْ يَجْعَلَ الرَّسُولُ مِـنْ دُخُولِ مَكَّـةَ الميمونِ ، سَبَبـاً في تَغْيير اسْـمِ عروسِـه الشّابَّـةِ (برَّةَ)، فَسَمّاها (مَيْمُونَةَ) تَيَمُّناً با لمناسبَةِ الميمونةِ الغرّاءِ .

بَارَكَ اللهُ لَـكِ يا أُمَّ المؤمنين ، وَمُبَـارَكٌ عليك زَوَاجُـكِ واسْمُكِ الجديدُ ، وأمومَتُـكِ للمؤمنينَ ، وَبُورِكَ لَكِ أَنَّكِ آخِـرُ زَوْجَةٍ زُفَّتْ إلى رَسُولِ اللهِ صَلَواتُ اللهِ وسلامُهُ عليه .

اليُمْنُ يَتْبَعُ المؤْمِنَ

وَتَابَعَ الرَّكْبُ رَحِيلَهُ نَحْوَ المدينَةِ ، وَأَسْرَعَتِ الأَخْبارُ إلى بيوتاتِ الصَّحابَةِ تَحْمِلُ بُشْرَى السَّلامَةِ وَزَفافِ العَرُوسَيْن (محمَّدٍ رسولِ الله ، وميمونَةَ بنتِ الحارث) . وَسَوْفَ تصل مَيْمُونَةُ إلى مَسْكنِها المخصَّص لها في مَساكِنِ النبيِّ ، ولكنْ مِنَ المُنْتَظَرِ أَنْ تَسْبِقَها الغيرةُ ، وهذا ما لا تَمْلِكُ القُلُوبُ إِمْساكَهُ ..

لَقَدْ دَخَلَتْ إلى بَيْتِ النَّبِيِّ مُسالِمَةً إلا أَنَّ الغيرَةَ مِنْ عائِشَةَ ثُمَّ مِنْ مارِيَةَ لَذَعَتْها : (أَن اسْتَأْثَرَتِ الأُوْلَى بحظٍّ أَوْفَى مِنْ حُبِّ الرَّسُولِ . وَكَانَ للثَّانِيةِ شَرَفُ أُمومَتِها لإبراهيمَ) . وَمَا مِنْ رَيْبٍ كذَلِكَ ، في أَنَّها لا تُقاوِمُ عاطِفَةَ الجماعَةِ ، حينَ تَشْتَدُّ الغيرَةُ بِنِساءِ الرَّسُولِ وهي وَاحِدَةٌ منْهُنَّ .

وَلَعَلَّ من جميل أَمْرِ مَيْمُونَةَ أَنَّ زَوَاجَها مِنْ رَسُول اللهِ لم يميِّزْهُ حادِثَةُ خُصُومَةٍ انْفَرَدَتْ بها ، أَوْ شِجارٌ كانَتْ سَبَبَهُ في بَيْتِ الرَّسُولِ ، وَهَذَا مما جَعَلَ زَواجَها مَيْمُوناً مِثْلَ اسْمِها ، وَأَكْرِمْ بذلك مِنْ يُمْنٍ وَبرَكَةٍ !! .

إِتْقَانُ العَمَلِ مَحْبُوبٌ

وتعيشُ مَيْمُونَةُ في بَيْتِ الرَّسُولِ عِيْشَةَ إيمانٍ وَتَعَبُّدٍ ، ما عُرِفَ عَنْ حيَاتها غير ذلك أَوْ ما اشْتُهِرَ عَنْها غيرُ العمل عَلَى مَرْضاةِ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَصِلَةِ الرحم ، لا تَتَهاوَنُ في عبادَتِها ، وَلا تَسْكُتُ عَنْ شَيْءٍ تَرَى فيه خُرُوجاً عَنْ طَاعَةِ اللهِ ، وَمَا أَجْمَلَ هَذا يا أَحِبَّتي !! وَمَا أَكْرَمَهُ مِنْ عَمل يزيِّن بهِ الإِنسانُ صَفْحَةَ عَمَلِهِ !! وَأَيُّ عَمَلٍ أَحْسَنُ مِنْ أَداءِ المعروفِ كاملاً وإِتْقانِ الإِيمان على هَذِهِ الصُّورَةِ ؟ .

هذا يا أعزّائي الصِّغار ما جَعَلَ أُمَّ المؤمنين مَيْمُونَةً في أَعْمالها ، زيادةً على يمنها وَبرَكَتِها في زواجِها واسمِها الجميل ، والحمدُ للهِ الذي زادَ في مَكانَتِها وعظمتِها وشَرَفِها ، وأكْرَمَها بالمجاهِدِ الكبيرِ والنَّبيِّ العظيمِ ، تَسْتَمِدُّ مِنْ أَخلاقِهِ ما تَطْبَعُ بِهِ اسْمَها الحُلْوَ عَلَى عبادَتِها وَعَمَلِها وَمُعامَلاتها وَسَعْيِها في إسْعادِ غيرِها مِنَ الأقارِبِ والمؤمنين ..

إِنَّها حقاً : حياةُ الإيمان والتَّقْوى .. وَهَذا خَيْرُ الزَّاد لمنْ أَرادَ .

﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ .. ﴾

وَيَمْرَضُ الـرَّسُولُ مَرَضَهُ الأخِيرَ ، وَهُـوَ في بَيْتِها ، وَيَشْتَدُّ به الألَــمُ ، وَتَشْعُرُ مَيْمُـونَةُ بـرغْبَةِ الـرَّسُولِ في أَنْ يعيـشَ أَيَّامَـهُ الأخيرةَ في بَيْتِ عائِشَةَ تُمَرِّضُهُ هُنَاكَ بنتُ أبي بكر ، فَرَضِيَتْ أَنْ يَنْتَقِلَ الرَّسُولُ حَيْثُ أَحَبَّ ، وَرَأَتْ في عَيْنَي الرَّسُولِ علاماتِ الشُّكْـرِ والتَّقْديـرِ كَأَنَّـهُ يَعْتَرِفُ لَهَا بطيـبِ خَاطِـرِها . وَبَـذْلِ جُهْدِهـا لِتُرْضِيَهُ وَتُسْعِدَهُ ما أَمْكَنَهَـا ذلك .. وفي بَيْت عـائِشَةَ شَارَكَتْ مَيْمُونَةُ في تمريضِ الرَّسُـول والعنايةِ بِهِ ، وَعَاشَتْ بَعْدَ مَوْتِهِ تـذكُرُ اليَوْمَ الميمونَ الذي جَمَعَها بـالزَّوْجِ الحبيبِ . وتَحِنُّ إلى البُقْعَـةِ المُبَـارَكَـةِ في (سَرْفٍ) حَيْــثُ تَمَّتْ حَفْلَـةُ زَفَـافِهـا الكريمِ.

ولما أَحَسَّتْ بقُـرْبِ مَنِيَّتِها أَوْصَتْ أَنْ تُـدْفَنَ في ذلـك المَوْضِعِ الذي تَمَّ فِيـه العُرْسُ . وماتَتْ مَيْمُونَةُ بَعْـدَ مُنْتَصَفِ القَرْنِ الأَوَّلِ للهجْـرَةِ ، وَحُمِلَتْ إلى حَيْـثُ أَحَبَّـتْ وَأَوْصَـتْ . وَهُنَاكَ في تِلْـكَ البُقْعَةِ المباركةِ حُفِرَ لَهَا القَبْرُ الذي رَقَدَتْ فِيهِ ..

رَحِمَهَا اللهُ وَرَضِيَ عَنْها .. وَجَزاها عَنَّا أَطْيَبَ الجَزاءِ ..

لا نَشْهَدُ إلا حَقّاً

وَلَقَدْ تركَتْ مَيْمُونَـةُ مِنْ وَرائِها ذِكْرَى طَيِّبَةً عطرةً ، وَلَعَلَّ عَائِشَـةَ بنْتَ أبي بكر قَـدْ عَبَّرَتْ عَمَّا كان لِمَيْمُونَـةَ ضرَّتِها مِنْ مَكَـانَـةٍ بَيْنَ نِسَاءِ النبـيِّ ، حِينَما قَـالَـتْ عَنْهَا بَعْـدَ مَـوْتِها :

(ذَهَبَتْ واللهِ مَيْمُـونَةُ .. أمَـا إنها كَانَـتْ واللهِ مِنْ أَتْقـانا للهِ وَمِنْ أوْصَلِنا للرَّحِمِ ..) .

وَإِنَّها لَشَهَادَةُ حَقٍّ ، وكَلِمَةُ صِدْقٍ ، وَعُنْوانُ حَياةٍ حافِلَةٍ ، وَلَيْسَ هُنَـاكَ أَعْبَدُ مِـنَ المؤْمِنَةِ الأتْقَـى والمُسْلِمَةِ الأوْصَـلِ للرَّحِم .

سَلامٌ على مَيْمُونَةَ أُمِّ المؤمنين ..

وَسَلامٌ على زَوْجَاتِ النبيِّ أُمَّهاتِ المؤمنين .

سَلامٌ على مَـنْ كُنَّ أكْرَمَ النسـاءِ ، وأعْلاهُنَّ دَرَجَـةً في العِفَّةِ والكمال ، وَأَشَدَّهُـنَّ وَرَعاً وَتَديُّناً ، وَأَقْـرَبهُنَّ إلى اللهِ : (خديجة وَسَـوْدَةَ وعـائِشَـةَ وحَفْصَـةَ وأُمِّ المسـاكين وأُمِّ سلمـة وَزَيْنَـب ورَيْحَانَةَ وجوَيْرية وصفيَّةَ وأُمِّ حبيبةَ ومارية ومَيْمُونَةَ) ..

المحتوى

م	الموضوع	رقم الصفحة
١-	خديجة : المجاهدة الطاهرة	١
٢-	سودة : أرملة المهاجر	١٧
٣-	عائشة : الحبيبة العالمة	٣٣
٤-	حفصة : حافظة المصحف	٤٩
٥-	زينب بنت خزيمة : أم المساكين	٦٥
٦-	بنت زاد الركب : أم سلمة	٦٨
٧-	زينب : الشريفة الحسناء	٨١
٨-	ريحانة بني قريظة	٩٧
٩-	جويرية : سيدة بني المصطلق	١١٣
١٠-	صفية : عقيلة بني النضير	١٢٩
١١-	أم حبيبة : بنت زعيم مكة	١٤٥
١٢-	مارية القبطية : أم إبراهيم	١٦١
١٣-	ميمونة : آخر الزوجات	١٧٧
--	المحتوى	١٩٢

نِسَاءُ النَّبِيِّ سَيِّدَاتٌ كَرِيمَاتٌ أَظَلَّهُنَّ بَيْتُ الرَّسُولِ ﷺ ، وَكَانَ لِكُلٍّ مِنْهُنَّ أَثَرُهَا فِي حَيَاةِ زَوْجِهَا ، وَمَكَانُهَا فِي تَارِيخِ الْبَطَلِ الَّذِي عَرَفَهُ التَّارِيخُ أَعْظَمَ زَوْجٍ وَأَكْرَمَ زَوْجٍ وَأَنْبَلَ زَوْجٍ .

وَجَمِيلٌ بِالرَّسُولِ ﷺ أَنْ يَتَزَوَّجَ ، فَهُوَ يَسْتَمِدُّ عَظَمَتَهُ مِنِ انْتِمَائِهِ لِلْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ ، وَأَنَّهُ فِي حُسْنِ مُعَامَلَتِهِ لِزَوْجَاتِهِ الْكَرِيمَاتِ قَدْ أَبْرَزَ شَخْصِيَّتَهُ الْفَذَّةَ الَّتِي جَمَعَتْ بَيْنَ النُّبُوَّةِ وَالْبَشَرِيَّةِ .

وَإِلَيْكُمْ يَا أَحِبَّائِي الصِّغَارَ أُقَدِّمُ هَٰذِهِ الْمَجْمُوعَةَ مُبَسَّطَةً سَهْلَةَ الْفَهْمِ عَنْ نِسَاءٍ تَزَوَّجَهُنَّ نَبِيٌّ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ .



دَارُ الهُدَىٰ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيع

الرياض : طريق صلاح الدين الأيوبي - غرب إدارة مكافحة المخدرات

هاتف : ٤٧٩٤٥١٧ - ٤٧٧٧٥٤٤ - ناسوخ : ٤٧٧٦١٣٩ - ص ب : ٢٥٥٩٠ - الرياض : ١١٤٧٦

بريد إلكتروني : daralhuda@ayna.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ للهِ وَالصَّلاةُ والسَّلامُ على نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إلى يَوْمِ الدِّين.... وَبَعْدُ:

فَالسَّلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاتُه.

تَمَّ بِعَوْنِ اللهِ ثُمَّ بِمُساعَدَةِ نَفَرٍ مِن الإِخْوَةِ تَصْوِيرُ هذا الكِتابِ ومَجْمُوعَةٍ مِن الكُتُبِ الأُخْرَى, وأَعْرِفُ أَنَّ جَمِيعَ حُقُوقِ هذه الكُتُبِ مَحْفُوظَةٌ, ولكنْ عَزَمْتُ على تَصْوِيرِ هذه الكُتُبِ لِأَنَّها نادِرَةٌ في المكْتَبَاتِ وغَالِيَةٌ جِدًّا والحُصُولُ عَلَيْها صَعْبَةٌ. وأَرْجُو مِنْ نَاشِرِ هذه الكُتُبِ ومَنْ لَه حُقُوقُها أنْ يُسامِحَنِي. واللهَ أَسْأَلُ أَنْ يَغْفِرَ لِي فَإِنَّه غَفُورٌ رَحِيمٌ وعَلِيمٌ بِنِيَّتِي.

وَأَشْكُرُ كُلَّ مَنْ سَاعَدَنِي فِي هذا المشْرُوعِ. جَزَاكَ اللهُ خيراً, وَأَطْعَمَكَ اللهُ طَيْراً, وَزَوَّجَكَ اللهُ بِكْراً, وَرَزَقَكَ اللهُ جُنْداً......

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

1431هـ



لَا تَنْسَنَا فِيْ الدُّعَاءِ